النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



السِّتَارَة

قضيّة بوْارو الأخيرَة

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

٧٦

Agatha Christie

أغاثا كريستي

السِّتَارَة

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٧٥ بعنوان

Curtain: Poirot's Last Case

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثانية

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

السِّتَارَة

قضيّة بوارو الأخيرة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٥

ترجمة: رنا عرفات

مراجعة الترجمة: حفظي الناجي

تحرير: محمود عبد الرازق

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون بدهشة واستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال؛ إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص، وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً، أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني؛ أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، وبالتالي لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يملّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكن مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيّبَ عنه بعض التفصيلات المهمة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثيرٍ من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثير منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَيْ أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأَ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبير عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثير من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها؛ فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمِعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق نحواً من سبع سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاءة ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة تمت المراجعة الكاملة والدقيقة لكل نص مترجَم؛ لغوياً، ونحوياً، وإملائياً. مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفِّذ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب

بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثيرٍ من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعة بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عملٍ ممكنٍ يطيقه الجهد البشري.

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب التراث أو نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- أن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب. وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو -بالذات- ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟

نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا القارئ- خير حَكَم.

الناشر

* * *

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف؛ فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «الشُّرْبة» (بضم الشين بلا واو بعدها اسماً للحساء) و«السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، و«الشرطة» جمع مذكّر وليس مفرداً مؤنثاً كما يظن عامة الناس؛ في الوسيط: «الشرطة هم حَفَظة الأمن في البلاد، الواحد شُرْطيٌّ وشُرَطيٌّ». ومثل هذا الخلط -فيما يجري على أقلام الكُتّاب وألسنة الناس- أيضاً كثير.

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام؛ مثل قولهم: «خجول» والصواب «خَجِلٌ»، وقولهم: «مُندهش» والصواب «دَهِشٌ» أو «مَدْهوش»، وقولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«الجِدّيّة» والصواب «الجِدّ»، ومنه: كان الأمر جِدّيّاً، وهو خطأ صوابه: كان الأمر جِدّاً، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف؛ لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها؛ فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاّ» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثيرٍ من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب". وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل ،وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً منعاً لالتباسه بالألف (كقولهم: "وجد مالا يفرح"، فهي بلا تنوين تفيد أنه لم يجد شيئاً يفرح، وبالتنوين تفيد أنه وجد من المال ما يفرح، فتأمّل الفرق!). وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس؛ كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً؛ إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة؛ إذ هي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود. واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً. فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية؛ إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة. أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه؛ وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«الغابون» و«السنغال»

و«بلغاريا» و«غرينتش»، وأمثال ذلك كثير كثير. وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. (واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها: «إنكليز» و«إنكليزية»؛ لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا).

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: c<u>a</u>t)، والألف المفخَّمة (كما في: c<u>a</u>r)، والألف الممالة (كما في: c<u>a</u>re)، والواو المشبعة (كما في: b<u>oo</u>t)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: b<u>o</u>ne)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: <u>o</u>range)، والياء المشبعة (كما في: m<u>e</u>)، والياء الممالة (كما في: <u>u</u>rgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغْز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب؛ فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

❊ ❊ ❊

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَيْ (ألفَيْ مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها؛ فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين. جرّبي وسترَين". عندئذ كتبت أغاثا أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب،

وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين!

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية طموحة، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُم؛ فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت -مرة أخرى- عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل»، و«لقاء في بغداد»، و«جريمة في بلاد الرافدين». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن

ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما قصصها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

أشهر أبطالها هِيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «القضية الغامضة في ستايلز»، وهي أول رواية نُشِرت لها، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة حتى «قُتل» أخيراً عام ١٩٧٥ في روايتها «الستارة». وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في الدنيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهمٍ عميقٍ للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكةٍ واسعةٍ من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنسية باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ؛ إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢، أي لأكثر من نصف قرن!

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «تعالي أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها)، حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

السِّتَارَة

قضيّة بْوارو الأخيرَة

قصة هذه الرواية

توضيح من «الأجيال»

في تعريفنا بأغاثا كريستي الذي قرأتموه في الصفحات السابقة قلنا إنها قد تطوعت للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد الجرحى خلال الحرب العالمية الأولى. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كانت أغاثا في نحو الخمسين من عمرها، لكن هذا لم يمنعها من العودة إلى التطوع والعمل بالتمريض، في بلدتها توركي أولاً ثم في لندن بعد ذلك.

وكانت الحياة في لندن في تلك الأيام مخاطرة حقيقية بسبب الغارات الكثيفة التي كانت الطائرات الألمانية تشنّها على العاصمة البريطانية ليلاً ونهاراً، حتى إن البيت الذي أقامت فيه أغاثا لم ينجُ من الإصابة بالقنابل. وحينما سافر زوجها إلى الشرق الأوسط ملتحقاً بمهمة مع القوات الجوية الملكية بقيت أغاثا في لندن وحدها، وراحت تشغل أكثر وقتها بالكتابة. ورغم انهماكها بأعمال التمريض كان الوقت الذي منحته للكتابة طويلاً، وفي تلك السنوات نشرت عدداً كبيراً من الأعمال: «السّروة الحزينة» و«إبزيم الحذاء» في عام ١٩٤٠، و«شر تحت الشمس» و«ن أو م؟» في عام ١٩٤١،

و«الجثة في المكتبة» و«الإصبع المتحرك» في عام ١٩٤٢ ، و«جريمة في الذاكرة» في عام ١٩٤٣ ، و«باتجاه الصفر» و«غائب في الربيع» (من روايات ماري ويستماكوت) في عام ١٩٤٤ ، وأخيراً «في النهاية يأتي الموت» و«السيانيد المتلالئ» في عام ١٩٤٥.

هذه هي الروايات التي نشرتها أغاثا مما كتبته في تلك السنوات الحرجة، لكنها لم تكن كل شيء؛ فبالإضافة إليها كتبت روايتين أرادت أن تجعلهما آخر روايات هيركيول بوارو والآنسة ماربل، لكنها صمّمت على عدم نشرهما في حياتها وأوصت بطباعتهما فقط إذا ما قُتلت في انفجارات القنابل في لندن. وحينما انتهت الحرب بسلام قررت أن لا تُنشَر هاتان الروايتان إلا بعد موتها.

فأما رواية الآنسة ماربل (الجريمة النائمة)، فقد نُشرت بعد وفاة أغاثا كريستي بأقل من عام، وأما رواية بوارو (التي يموت في آخرها)، «الستارة»، فقد نُشرت في آخر عام ١٩٧٥ بسبب إلحاح ناشر أغاثا الإنكليزي على تقديم جديد لقرّائها في تلك السنة التي أعجزتها فيها الشيخوخة عن تقديم جديد، وقد توفيت أغاثا بعد نشر هذه الرواية بأقل من ثلاثة أسابيع.

وهكذا فإن «الستارة» قد بقيت حبيسة الأدراج لنحو ثلث قرن قبل أن تخرج -أخيراً- إلى الناس.

* * *

الفصل الأول

من منّا لم يشعر بألم مفاجئ عندما يحيا مرة أخرى تجرِبة قديمة أو يشعر بشعور قديم؟ لقد حدث لي هذا من قبل. لماذا تؤثّر هذه الكلمات في المرء بعمق؟ كان ذلك هو السؤال الذي سألته لنفسي وأنا جالس في القطار أراقب أراضي إيسكس المنبسطة في الخارج. كم مضى من الوقت منذ أن قمت برحلة مماثلة لهذه الرحلة داخل نفسي؟ لقد شعرت (وهذا شعور سخيف) بأن الحياة قد انتهت بالنسبة لي. لقد جُرحت في الحرب، تلك الحرب التي ستبقى دائماً بالنسبة لي هي الحرب، تلك الحرب التي تبعتها حرب ثانية أكثر تهوراً.

في عام ١٩١٦ بدا لآرثر هيستنغز الشاب أنه قد كبر ونضج. لم أدرك الأمر جيداً، فبالنسبة لي لم تكُن الحياة إلا في بدايتها. كنت أقوم بهذه الرحلة (على الرغم من أنني لم أكُن أعلم) لأقابل الرجل الذي كان تأثيره عليّ سيغيّر حياتي ويعيد تشكيلها. في الواقع كنت سأذهب لأقيم مع صديقي القديم جون كافيندش الذي تملك أمه (التي كانت قد تزوّجت حديثاً) بيتاً ريفياً يُدعى «ستايلز». كان الأمر لمَّ شملٍ مسلّياً لأصدقاء قدامى... هذا كل ما كنت أعتقده، ولم أتنبأ بأنني سأُقحَم في جريمة غامضة.

وقد كان «ستايلز» هو المكان الذي التقيت فيه مرة أخرى بذلك الرجل الضئيل الغريب هيركيول بوارو، والذي قابلتُه لأول مرة في بلجيكا. أذكر جيّداً دهشتي لدى رؤيتي له وهو يمشي متمايلاً في شارع القرية بشاربه الكبير.

هيركيول بوارو! منذ تلك الأيام أصبح هو صديقي العزيز، وقد أعاد تأثيرُه صياغةَ حياتي. وخلال رفقته بحثنا عن جرائم جديدة، والتقيت بزوجتي سندريلا، تلك الفتاة الرقيقة التي يحلم بها أيّ رجل. إنها ترقد الآن تحت التراب الأرجنتيني؛ فقد ماتت كما كانت تتمنى، دون أن تعاني طويلاً أو يضعفها التقدم بالعمر، ولكنها خلّفت وراءها رجلاً وحيداً تعِساً.

آه لو كان بإمكاني الرجوع إلى الوراء لأعيش حياتي مرة أخرى! لو أن هذا اليوم كان ذلك اليوم من عام ١٩١٦ عندما سافرت إلى «ستايلز» لأول مرة! ما التغيرات التي حصلت منذ ذلك الوقت؟ هل اختلفت الوجوه؟ لقد باعت عائلة كافيندش قصر ستايلز ومات جون كافيندش. ولكن زوجته ماري، تلك المخلوقة المدهشة الغامضة، لا تزال حية وتعيش في ديفونشاير، أما لورنس فيعيش مع زوجته وأولاده في جنوب إفريقيا. تغيّرات، تغيّرات في كل مكان، ولكن بقي شيء واحد كما هو: هيركيول بوارو، على الرغم من غرابة ذلك.

كنت ذاهباً إلى «ستايلز» لمقابلة هيركيول بوارو. لقد دُهشت عندما استلمت رسالته، وكان عنوانها: «قصر ستايلز، ستايلز، إسكس». فأنا لم أرَ صديقي منذ نحو عام، وفي آخر مرة رأيته فيها

أصبت بالصدمة والحزن؛ فقد رأيت فيه رجلاً عجوزاً أقعده التهاب المفاصل. وقد ذهب إلى مصر وهو يأمل بأن تتحسن صحته، ولكنه عاد (كما أخبرني في رسالته) وقد ساءت صحته. وعلى الرغم من ذلك فقد بدا من كتابته بأنه مرح؛ إذ كتب لي في رسالته يقول:

ألا يسرّك أن تزور العنوان الذي أكتب لك منه يا صديقي؟ عنوان يثير الذكريات القديمة، أليس كذلك؟ نعم، أنا هنا في «ستايلز»، وقُل ما تشاء. لقد أصبح الآن نُزُلاً يديره كولونيل بريطاني عجوز محافظ جداً، ومن المعروف أن زوجته هي التي تجعل المكان مُربحاً؛ فهي مديرة جيدة، ولكن لسانها سليط يعاني الكولونيل المسكين بسببه كثيراً، ولو كنت مكانه لكنت قتلتها بالبلْطة!

لقد رأيت إعلاناً في الصحيفة، فقادني فضولي إلى العودة مرة أخرى إلى المكان الذي كان منزلي الأول في هذا البلد. كم يستمتع المرء بذكريات الماضي وهو في سنّي!

وقد وجدت هنا رجلاً، باروناً، وهو صديق للرجل الذي تعمل معه ابنتك. وفجأة أدركتُ الخطة، أدركت أنه يريد إقناع عائلة فرانكلين بالقدوم إلى هنا هذا الصيف، وبدوري سأقنعك أنا بالمجيء. سنكون كلنا معاً كعائلة واحدة، وسوف ينال هذا استحسان الجميع، ولذلك تعالَ بسرعة يا عزيزي هيستنغز، بسرعة كبيرة. لقد حجزت لك غرفة بحمام خاص. ستايلز القديم -كما سترى- تمّ تحديثه، وقد ناقشتُ السيدة لاتريل كثيراً بخصوص الأجر حتى توصلتُ إلى

اتفاق، والأجر رخيص جداً بالفعل.

عائلة فرانكلين وابنتك الساحرة جوديث يقيمون هنا منذ أيام، وقد تمّ ترتيب كل شيء، لذلك لا تحاول تلفيق الأعذار. إلى الملتقى قريباً.

صديقك دائماً: هيركيول بوارو.

* * *

كان الأمر مغرياً جداً، ولبيّتُ رغبة صديقي دون اعتراض. لم يكُن شيء يقيّدني؛ فأنا لست مستقراً في مكان ما، أمّا بالنسبة لأولادي فأحدهم في البحرية، والآخر متزوج ويدير مزرعة في الأرجنتين، وابنتي غريس تزوجَت جندياً وتقيم الآن في الهند. أما ابنتي جوديث فقد كانت دائماً ابنتي المفضّلة على الرغم من أنني لم أفهمها قط! كانت طفلة غريبة كئيبة تميل إلى الكتمان، تحتفظ بأمورها لنفسها ولا تستشير أحداً، الأمر الذي كان يزعجني ويجعلني أشعر بالإهانة. وكانت زوجتي أكثر تفهّماً وكانت تؤكّد لي أن ذلك لا يعني أن جوديث لا تثق بي بل هو أمر خارج عن إرادتها، ولكنها كانت تقلق بشأنها مثلي تماماً.

كانت تقول إن مشاعر جوديث عميقة جداً ومركّزة جداً، وإن طبيعتها المتحفظة تحرمها من أيّ صِمام أمان. كانت تمرّ بنوبات غريبة من الصمت الكئيب وشعور قوي بالانتماء. وكانت أذكى أفراد العائلة، ولذلك وافقنا بسرور على رغبتها في الالتحاق بالجامعة، وقد نالت شهادة جامعية في العلوم قبل عام، ثم عملت سكرتيرةً لطبيب كان يُجري أبحاثاً تتعلق بالأمراض الاستوائية، أما زوجته

فكانت مقعَدة نوعاً ما. وكنت أتساءل أحياناً عمّا إذا كان انهماك جوديث في عملها وإخلاصها لمديرها علامةً على أنها قد أحبته، ولكنني تأكدت أن أساس علاقتها هو أساس عملي فقط. وأعتقدُ أن جوديث تحبني ولكن طبيعتها لا تسمح لها بالتعبير عن مشاعرها، وكثيراً ما كانت تغضب وتتذمر ممّا تسميه أفكاري الانفعالية القديمة، وأعترف بأنني كنت أشعر بالعصبية تجاه ابنتي.

عند هذه النقطة قطع تأملاتي صوتُ القطار وهو يقترب من محطة ستايلز سينت ميري. على الأقل لم تتغير هذه المحطة، بل غفل عنها الزمان فلا تزال جاثمة وسط الحقول دون أيّ سبب للوجود. لكن حينما سارت سيارة الأجرة عبر القرية لاحظت الاختلاف الذي أحدثه مرور الزمن؛ فقد تغيّرت ستايلز سينت ميري كلّياً عمّا كنت أعرفها، فجدّت فيها محطات وقود ودار عرض وصفوف من منازل البلدية.

ثم انعطفنا نحو بوابة «ستايلز»، وهنا ابتعدنا مرة أخرى عن المدنيّة الجديدة. كان المكان لا يزال كما أذكره، لكن الممر كان مهمَلاً وقد نمت فيه الأعشاب فوق الحصى. وانعطفنا حول إحدى الزوايا، وعندها لاح لنا المنزل. كان لا يزال كما كان من حيث المظهر الخارجي، وبدا أنه يحتاج إلى أن يُعاد طلاؤه.

وكما حدث عندما أتيت إلى هنا في المرة الأولى، رأيت امرأة منحنية على أحد أحواض الحديقة. وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان من فرط الدهشة، ثم نهضَت وتوجهت نحوي فضحكتُ من نفسي؛ إذ كان بينها وبين إيفلين هاورد الضخمة فرق كبير لا يمكن تصوّره. كانت أمامي امرأة عجوز ضئيلة الحجم ذات شعر غزير أبيض مجعَّد

وخدود زهرية وزوجَين من الأعيُن الزرقاء الفاتحة الباردة، التي كانت تختلف تماماً عن لطفها وحسن تصرفها اللذين كانا مبالَغاً فيهما بالنسبة لي.

قالت لي بترحاب وودّ: أظن أنك الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟ يداي متسختان فلا أستطيع مصافحتك. نحن مسرورون لرؤيتك، وقد سمعنا عنك الكثير. يجب أن أعرّفك بنفسي أولاً: أنا السيدة لاتريل، وقد اشتريت أنا وزوجي هذا المكان في نوبة جنون، ونحن نحاول الاعتناء به ودفعه إلى النجاح. لم أحلم يوماً بأنني سأصبح مالكة فندق، ولكنني أحذّرك يا كابتن هيستنغز، أنا امرأة عملية وأقوم بكل ما أستطيعه.

وضحكنا معاً كما لو كانت نكتة جيّدة، ولكن بدا لي أن ما قالته السيدة لاتريل حقيقةٌ أكيدة، فخلف هذا المظهر الخادع من سحر السيدة العجوز استطعت أن ألحظ الصلابة والقسوة. وعلى الرغم من أن السيدة لاتريل تميل إلى استعمال اللهجة الأيرلندية إلاّ أنها لم تكُن من أصل أيرلندي، بل كان هذا مجرَّد تكلّف منها.

سألتُ عن صديقي فقالت: آه! السيد بوارو المسكين. الطريقة التي كان يترقب بها حضورك تذيب الحجر! أشعر بالأسف الشديد نحوه وهو يعاني بهذه الطريقة.

سرنا باتجاه المنزل في حين كانت تنزع قفازات العمل، وتابعت قائلة: وابنتك الجميلة أيضاً... إنها فتاة لطيفة ونحن جميعاً معجَبون بها جداً، ولكنني تقليدية كما تعلم، وممّا أراه محزناً أن فتاة مثلها تقضي وقتها في تشريح الأرانب والجلوس خلف المجهر

طول اليوم! مثل هذه الأمور يجب أن تُترك للرجال في رأيي، أما فتاة شابة مثلها فينبغي أن تستمتع بمباهج الحياة.

- أين جوديث؟ أهي قريبة؟

بدا الامتعاض على وجه السيدة لاتريل وقالت: آه، يا للفتاة المسكينة! إنها مسجونة في ذلك المعمل في نهاية الحديقة. لقد استأجره الدكتور فرانكلين منّي وهو الذي قام بإعداده وترتيبه وتجهيزه بأقفاص فيها حيوانات للتجارِب. يا للمخلوقات المسكينة، فئران وأرانب! لا أظن أنني أحب هذا العلم يا كابتن هيستنغز. آه، هذا هو زوجي.

كان الكولونيل لاتريل قد جاء ماشياً من وراء زاوية المنزل. كان رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه شاحب وعينين متوسطتَي الزرقة، وكان من عادته شدّ شاربَيه الأبيضَين بحيرة، وبدا سلوكه غامضاً ويميل إلى العصبية.

قالت زوجته: جورج، لقد وصل الكابتن هيستنغز.

فصافحني الكولونيل لاتريل قائلاً: لقد وصلت في قطار الساعة الخامسة وأربعين دقيقة، أليس كذلك؟

قالت السيدة لاتريل بحدة: وبمَ تظن أنه وصل؟ وماذا يعني لك الأمر على أي حال؟ اصحبه إلى غرفته يا جورج، ولعله يريد الذهاب إلى السيد بوارو من فوره أو لعله يفضل تناول الشاي أولاً.

أكدتُ لهما أنني لا أريد الشاي بل أفضّل الذهاب للسلام على صديقي، فقال الكولونيل لاتريل: حسناً، اتبعني؛ أظن أنهم أخذوا

أغراضك إلى غرفتك، أليس كذلك يا ديزي؟

قالت السيدة لاتريل بحدّة: هذا من اختصاصك يا جورج. كنت أعتني بأمور الحديقة ولا أستطيع الاعتناء بكل شيء هنا.

- نعم، نعم، بالطبع؛ سوف أهتم أنا بالأمر يا عزيزتي.

وتبعتُه إلى الدرجات الأمامية، وعلى عتبة الباب صادفَنا رجلٌ رمادي الشعر ممتلئ الجسم ذو وجه طفولي متحمس. كان يجري مسرعاً وهو يعرج وبيده منظار، وقال وقد تلعثم قليلاً: ثمة زوجان من الطيور بنيا عشهما عند شجرة الجمّيز.

وعندما كنا ندخل القاعة قال لاتريل: هذا نورتون، إنه فتى لطيف مغرَم بالطيور.

وفي القاعة نفسها رأيت رجلاً ضخماً يقف قرب الطاولة، وبدا من الواضح أنه قد انتهى من التحدث بالهاتف، ثم نظر نحونا قائلاً: أريد أن أشنق جميع المتعهدين والبنّائين... لا يمكنهم عمل شيء بالشكل الصحيح، قاتلهم الله!

بدا قوله مضحكاً جداً ومحزناً جداً بحيث ضحكنا معاً، وشعرت بالانجذاب نحو ذلك الرجل على الفور. كان وسيماً وقد تجاوز الخمسين، وكان وجهه شديد السمرة بفعل الشمس، وبدا وكأنه قد عاش حياته في الخارج وأنه من تلك النوعية من الرجال الذين أصبحوا نادرين بمرور الأيام؛ رجل إنكليزي من المدرسة القديمة، مستقيم يحب حياة الترحال، ويبدو أنه رجل قيادي.

ولم أصَب بالدهشة عندما قدّمه لي الكولونيل لاتريل على أنه

السير ويليام بويد كارنغتون. كان -على حد علمي- محافظاً في إحدى محافظات الهند حيث حقق نجاحاً مميَّزاً، وكان معروفاً بأنه رامٍ من الدرجة الأولى وصياد محترف. وفكرت بحزن بأنه من تلك النوعية من الرجال التي يبدو أنها لم تعد تتكاثر في هذه الأيام الفاسدة!

قال السيد ويليام: آه، أنا سعيد لأنني استطعت مقابلة هذه الشخصية الهامة... صديقي هيستنغز.

قالها ثم ضحك وأكمل يقول: ذلك الرجل البلجيكي يتحدث عنك كثيراً كما تعلم، وبالطبع ابنتك هنا أيضاً، وهي فتاة طيبة.

فقلت وأنا أبتسم: لا أظن أن جوديث تتحدث عنّي كثيراً.

- إنها فتاة عصرية، والفتاة في هذه الأيام تبدو محرَجة من الحاجة إلى التعرف بأبيها أو بأمها!

فقلت: الآباء مصدر إحراج فعلاً.

فضحك قائلاً: حسناً، أنا لا أعاني بهذه الطريقة لسوء الحظ؛ فليس لديّ أبناء. ابنتك جوديث فتاة جميلة وذات مستوى رفيع من الثقافة، وأنا أجد ذلك مدعاة للفخر.

ثم التقط سماعة الهاتف مرة أخرى وقال: أرجو أن لا تمانع إذا أرهقت عامل السنترال يا لاتريل؛ أنا لست بالرجل الصبور.

- لا بأس، هذا سوف يفيدهم.

ثم قادني لاتريل إلى الطابق الأعلى، وأخذني عبر الجناح الأيسر من المنزل إلى باب في نهاية الجناح فأدركت أن بوارو قد

اختار لي الغرفة ذاتها التي كنت قد شغلتها في الماضي. كانت هناك بعض التغيّرات، وبينما أنا أسير عبر الممر كانت بعض الأبواب مفتوحة، فلاحظت أن غرف النوم القديمة قد تمّ تقسيمها بحيث تصبح عدّة غرف صغيرة.

أمّا غرفتي التي لم تكُن كبيرة فلم يجرِ عليها أيّ تغيير باستثناء تركيب أنابيب المياه الساخنة والباردة، وقد فُصل جزء منها لاستخدامه حمّاماً صغيراً. ورأيت أن الغرفة قد فُرشت بطريقة عصرية رخيصة مما أثار خيبة أملي؛ إذ كنت أفضّل نمطاً ينسجم مع النمط المعماري للمنزل.

كانت حقائبي في غرفتي، وأوضح لي الكولونيل لاتريل أن غرفة بوارو هي الغرفة المقابلة، وكان على وشك اصطحابي إلى هناك عندما ترددَت من أسفل القاعة صرخة حادة تنادي: جورج!

جفل لاتريل كحصان عصبي ووضع يده على فمه وقال لي بسرعة وارتباك: أنا... أنا... هل كل شيء مناسب لك؟ استدعِنا عندما تريد أمراً ما.

- جورج!

- أنا قادم يا عزيزتي، أنا قادم.

وأسرع عبر الممر، ووقفت برهة أتبعه بنظري، ثم عبرت الممر وقد بدأت دقات قلبي بالتسارع قليلاً، وطرقت بابَ غرفة بوارو.

* * *

الفصل الثاني

من وجهة نظري لا يوجد ما يثير الحزن أكثر من رؤية شخص تغيّر شكله كلياً بمرور الزمن. يا لصديقي المسكين! لقد وصفتُه لكم أكثر من مرة، والآن سأنقل لكم الاختلاف: لقد أقعده التهاب المفاصل، ولذلك فهو يجرّ نفسه على كرسيّ متحرك. جسده الذي كان ممتلئاً ضَعُفَ فبات رجلاً ضئيلاً نحيفاً، وصار وجهه ممتلئاً بالخطوط والتجاعيد. صحيح أن شاربه وشعره لا يزالان شديدَي السواد، ولكنه ارتكب بذلك خطأً جسيماً في الواقع (رغم أنني لن أؤذي مشاعره بإخباره بذلك)، فأحياناً تظهر صبغة الشعر بشكل واضح، ولقد مر عليّ زمان دُهشت فيه عندما علمت أن سواد شعر بوارو مصدره زجاجة صباغ، أما الآن فقد ظهر زيفه أكثر حتى لقد بدا وكأنه يضع شعراً مستعاراً ويزيّن شفته العليا بالشارب ليسلّي الأطفال!

عيناه فقط بقيتا كما كانتا في السابق، متلألئتين برّاقتين، وفي تلك اللحظة رأيتهما تشعّان بعاطفة صادقة لا شك فيها. هتف بي حالما رآني: صديقي هيستنغز، صديقي هيستنغز!

وكما كان يفعل دائماً عانقني بحنان، وأخذ ينظر إليّ وقد اتكأ

إلى الخلف ورأسه يميل جانباً ثم قال: عزيزي هيستنغز، مازلتَ كما كنت؛ الظهر المستقيم والأكتاف العريضة والشعر الرمادي... أتعلم يا صديقي؟ لقد هرمتَ بشكل جيّد. ألا تزال الفتيات يُعجَبن بك؟

فاحتججت قائلاً: بوارو، هل يجب...؟

- ولكنني أؤكد لك أنه امتحان يا صديقي، بل هو الامتحان الحقيقي؛ فعندما تبدأ الفتيات بالتحدث إليك بلطف ورقة فاعلم أنها النهاية، فهنّ يقلن لأنفسهن: "يا للرجل المسكين! علينا أن نُحسِن معاملته". من المخيف أن تكون كذلك! ولكنك ما زلت شاباً يا هيستنغز، الفرصة لا تزال أمامك، نعم، ابرم شاربك وادفع بكتفك إلى الأمام. أنا أرى الأمر كما أقول، وإلاّ فلن تبدو واثقاً من نفسك.

انفجرتُ ضاحكاً وأنا أقول: لا مثيل لك يا بوارو! ولكن كيف حالك أنت؟

قال بحزن: حُطام، لا أستطيع المشي فأنا مُقعَد كما ترى! ولكن -والحمد لله- مازلت قادراً على إطعام نفسي، أما سوى ذلك فيجب أن أعامَل كطفل يجب مساعدته في كل أمر، يجب وضعه في الفراش بعد أن يكون قد اغتسل وارتدى ثياب النوم. هذه هي النهاية، وليس هذا بالأمر المسلّي، ولكن الحمد لله؛ فرغم كل هذا التداعي الخارجيّ فإن الجوهر سليم.

- نعم، بالطبع، فأنت تملك أحسن قلب في العالم.

- قلبي؟ هذا ممكن، ولكنني لم أكُن أعني القلب بكلامي، بل

العقل هو ما عنيته بالجوهر. عقلي لا يزال يعمل بصورة جيدة.

أدركت أن أيّ تدهور لم يُصِب حالته العقلية على الأقل، وخصوصاً فيما يتعلق بالتواضع. سألتُه: هل تحب المكان هنا؟

هزّ بوارو كتفيه قائلاً: بالتأكيد لا، ولكنه يفي بالغرض. الغرفة التي سكنت فيها عندما أتيت أول مرة كانت صغيرة، كما أنها لم تكُن مفروشة بالشكل المناسب لي، فانتقلت إلى هذه الغرفة دون أي زيادة في الإيجار. أما بالنسبة للطعام فهو طعام إنكليزي في أسوأ أحواله، فالبطاطا المسلوقة إمّا أن تكون جافّة أو أنها تتفتّت بسهولة، أما الخضار فطعمه كالماء، ماء ثم ماء مرة أخرى، كما أنهم لا يستعملون البهارات والملح في الطعام أبداً.

قلت: يبدو الأمر مريعاً.

قال بوارو: "أنا لا أتذمر". ولكنه تابع التذمر قائلاً: وهناك أيضاً ما يدعونه بالتجديد، كالحمّامات والصنابير في كل مكان، ولكن ماذا ينزل منها؟ ماء دافئ فقط يا صديقي... وفي معظم ساعات النهار، أما المناشف فهي صغيرة وعددها قليل.

قلت باحتراس: يوجد الكثير مما يمكن أن يُقال بحق الأيام الخوالي.

تذكرت سحب البخار الذي كان يتدفق من حنفيات المياه الساخنة الموجودة في الحمام الوحيد في «ستايلز» في تلك الأيام، وتذكّرت أيضاً المناشف الكبيرة والأواني النحاسية المتابعة المملوءة بالماء الساخن التي كانت توجَد في الأحواض القديمة.

وقال بوارو مرة أخرى: على المرء أن لا يتذمر، فأنا مستعد للتضحية في سبيل هدف يستحق المعاناة.

وخطرت ببالي فجأة فكرة معيَّنة فقلت: بوارو، أنت لا تعاني من متاعب مالية، أليس كذلك؟ أنا أعلم أن الحرب قد أثّرت على الاستثمار بشكل سيّئ.

ولكن بوارو طمأنني قائلاً: لا، لا يا صديقي، أنا مرتاح مادياً، بل أنا ثري في الواقع. أنا لم آتِ إلى هنا لأسباب اقتصادية.

قلت: "هذا جيد"، ثم تابعت: أظن أنني أفهم مشاعرك جيداً، فكلما تقدم العمر بالإنسان فهو يميل أكثر وأكثر إلى العودة إلى الأيام الماضية وتذكّرها ويحاول استعادة المشاعر القديمة. إن وجودي هنا يؤلمني بشكل ما، ولكنه -في الوقت ذاته- يعيد إلى ذاكرتي مئات الذكريات والأحاسيس التي نسيت أنني كنت أشعر بها، ويمكنني القول بأنك تشعر مثلي.

- بالطبع لا، أنا لا أشعر بمثل هذا أبداً.

قلت: لقد كانت أياماً جيدة.

- تستطيع التحدث عن نفسك يا هيستنغز، أما بالنسبة لي فقدومي إلى ستايلز سينت ميري كان محزناً ومؤلماً؛ لقد كنت لاجئاً منفياً من الوطن بعيداً عن البيت أعيش على الصدقات في بلد أجنبي! لا، لم تكُن أياماً سعيدة، ولم أكُن أعلم في ذلك الوقت أن إنكلترا ستصبح وطني وأنني سأجد السعادة فيها.

فاعترفت له قائلاً: لقد نسيتُ ذلك.

- بالضبط، أنت تصف دائماً للآخرين المشاعر التي تشعر بها أنت: هيستنغز كان سعيداً، إذن فالجميع كانوا سعداء.

فاعترضتُ ضاحكاً وقلت: لا، لا.

فتابع بوارو: على أي حال فهذا غير صحيح، فعندما تستذكر الماضي ترقرق في عينيك الدموع وتقول: "آه! تلك الأيام السعيدة، كنت عندها شاباً يافعاً"، ولكنك -في الواقع- لم تكُن سعيداً كما تظن الآن يا صديقي؛ لقد كنتَ تعاني آنذاك من جروح وإصابات شديدة، وكنتَ قلقاً من كونك لم تعُد لائقاً للخدمة العسكرية، وكنت تعاني من اكتئاب شديد نتيجة إقامتك في نُزُل للنقاهة، وكما أذكر فقد تعقدَت الأمور أكثر نتيجة لوقوعك في حب امرأتين في وقت واحد.

ضحكت وقد احمرّ وجهي خجلاً وقلت: ما أقوى ذاكرتك يا بوارو!

- أنا أذكر الآن كيف كنت تتنهد بحزن كلما تذكرتَ حماقتك بخصوص هاتين المرأتين الجميلتين.

- لعلك تذكر ما قلتَ لي، قلت: كلتاهما ليستا لك، ولكنْ تشجّع يا صديقي، فربما خرجنا معاً للصيد مرة أخرى، وعندها ربما...

وتوقفت، فقد ذهبتُ مرة أخرى للصيد مع بوارو في فرنسا، وهناك قابلت المرأة الوحيدة...

وبرفق ربّت صديقي على يدي وقال: أعلمُ يا هيستنغز، أعلم؛

لا يزال الجرح حديثاً ولكن عليك نسيانه. لا تنظر وراءك بل انظر إلى الأمام.

فأومأت باشمئزاز وقلت: أنظر إلى الأمام؟! وماذا هناك لأنظر إليه؟

- حسناً يا صديقي، أمامنا عمل يجب إنجازه.

- عمل؟ أين؟

- هنا.

حدّقت إليه فقال: لقد سألتَني الآن عمّا أتى بي إلى هنا، وربما لم تلاحظ أنني لم أجِبْك. سأعطيك الجواب الآن: «أنا هنا للبحث عن قاتل».

فحدقت إليه مدهوشاً، ولوهلة ظننتُ أنه يهذي فقلت: أنت لا تعني ما تقول، أليس كذلك؟

- بالطبع أعني ما أقول، ولماذا تظنّني حثثتك على اللحاق بي؟ لم يعد جسمي سليماً ولكن عقلي -كما قلت لك- لم يضعف بعد، ومبدئي في هذه الحياة لا يزال كما كان دائماً. هل تذكر: «اجلس وفكّر». هذا هو الأمر الذي لا أزال أستطيع القيام به، بل هو الأمر الوحيد الذي أستطيع القيام به في الحقيقة، أما بالنسبة إلى الجانب الآخَر الحيوي والفعّال من القضية فسوف أُشرِك به صديقي العزيز هيستنغز.

كررتُ بلهفة: أتعني ما تقول؟

- بالطبع؛ سنذهب أنا وأنت إلى الصيد مرة أخرى يا هيستنغز.

احتجت إلى بضع دقائق لأدرك أن بوارو جادّ في الأمر، ولم يكُن لديّ من الأسباب ما يجعلني أشك في حكم بوارو بالرغم من غرابة تعبيراته السابقة. قال لي وابتسامة بسيطة تغطي وجهه: لقد اقتنعتَ أخيراً. تصورتَ في البداية أن عقلي قد بدأ يخفّ، أليس كذلك؟

فأنكرت بسرعة قائلاً: لا، لا، ولكن لا يبدو أن جريمة قد وقعت هنا.

- هل تظن ذلك؟

- بالطبع لم أرَ جميع الأشخاص بعد.

- من رأيت؟

- فقط السيد والسيدة لاتريل، ورجلاً يُدعى نورتون بدا لي شخصاً مسالماً، وأيضاً التقيت بويد كارنغتون، وقد أثار اهتمامي بشدة.

أومأ بوارو قائلاً: حسناً يا هيستنغز، عندما تتعرف إلى بقية السكان ستبدو لك أقوالي بعيدة الاحتمال كما هي الآن.

- مَن يوجد أيضاً؟

- عائلة فرانكلين المكونة من طبيب وزوجته، وممرّضة تعتني بالسيدة فرانكلين، ثم ابنتك جوديث، وأيضاً يوجد رجل يُدعى أليرتون فاتن النساء، ثم الآنسة كول، وهي فتاة في الثلاثينيات. يمكنني أن أقول لك إنهم قوم لطفاء.

- وأحدهم قاتل؟

- نعم، أحدهم قاتل.

- ولكن لماذا؟ كيف؟ لماذا تظن...؟

وجدتُ صعوبة في صياغة أسئلتي التي كان بعضها يتهاوى فوق بعض، فقال بوارو: اهدأ يا هيستنغز ولنبدأ من البداية. أرجو أن تحضر لي تلك الحقيبة الصغيرة الموضوعة على المكتب. حسناً، ها هو ذا المفتاح.

وبعد أن فتح الحقيبة أخرج منها مجموعة من الأوراق المطبوعة وقصاصات الجرائد، ثم قال: يمكن أن تدرس هذه الأوراق في وقت فراغك يا هيستنغز، ولا تهتم بقصاصات الجرائد كثيراً، فهي روايات الصحف لعدد من المآسي، وهي غالباً غير دقيقة بل هي إيحائية أحياناً. ولكي تأخذ فكرة عن تلك القضايا فأنا أقترح عليك قراءة هذا الملخَّص الذي أعددتُه.

أخذت الملخَّص ورحت أقرؤه باهتمام:

القضية «أ»: قضية أ. إثرنغتون

ليونارد إثرنغتون: عادات غير حميدة، يتعاطى المخدرات والمسكرات، شخصية غريبة وسادية، زوجته شابة جذّابة ليست سعيدة معه أبداً. مات نتيجة لتسمم غذائي، لم يقتنع الطبيب الشرعي، وبعد التشريح تبيّن أن سبب الوفاة سم الزرنيخ، وتبيّن وجود سمّ قاتل للأعشاب الضارة في البيت ولكن كان قد تم طلبه منذ مدة طويلة. اعتُقلت السيدة إثرنغتون ووُجِّهَت إليها تهمة القتل،

وكانت قد تعرفت حديثاً إلى رجل يعمل في الخدمة المدنية سوف يعود إلى الهند.

لم يظهر أيّ دليل على وجود خيانة زوجية ولكن كان بينهما نوع من الانسجام العميق، ثم تبيّن أن ذلك الشاب قد خطب وسوف يتزوج فتاة كان قد عرفها في إحدى رحلاته. وقد ثارت الشكوك: هل تلقّت السيدة إثرنغتون رسالة تخبرها بتلك الحقيقة بعد وفاة زوجها أو قبل الوفاة؟ هي تقول إنها تلقّتها قبل وفاته، وكانت الأدلة ضدها ظرفية. لا يوجد متهَم آخَر واحتمال أن الأمر كان حادثاً غير وارد.

تعاطف الناس معها في أثناء المحاكمة نتيجة لشخصية زوجها ولمعاملته السيّئة لها، وكان تلخيص القاضي في صالحها مؤكّداً على أن حكم المحلفين يجب أن يكون مبنياً على عدم الشك إطلاقاً، فتمّت تبرئة السيدة إثرنغتون. ولكن الرأي العام كان يؤكّد أنها مذنبة، وقد أصبحت حياتها -بعد ذلك- صعبة نتيجة لمعاملة الأصدقاء وغيرهم لها ببرود، ثم ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعفة من الحبّات المنوّمة بعد سنتين من المحاكمة، وتقرر بعد التحقيق أن الوفاة كانت نتيجة حادثة.

القضية «ب»: السيدة شاربليس

عجوز عانس عاجزة صعبة المراس تعاني من الآلام كثيراً، تُعنى بها ابنة أختها فريدا كلاي، ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعَفة من المورفين، واعترفت فريدا كلاي بالذنب قائلة إن معاناة خالتها كانت شديدة ولم تعُد تستطيع الاحتمال فأعطتها المورفين لتخفيف الألم.

رأي الشرطة أن العمل كان متعمَّداً ولم يكُن عن طريق الخطأ، ولكن الأدلة لم تكُن كافية لاتهامها.

القضية «ج»: إدوارد ريغز

عامل زراعي، شكّ بأن زوجته تخونه مع نزيلهم بن كريغ. عُثر على كريغ والسيدة ريغز مقتولَين بالرصاص وتبيّن أن الطلقات مصدرها بندقية السيد ريغز. سلّم ريغز نفسه إلى الشرطة وقال إنه يظن بأنه هو الذي ارتكب الجريمة، ولكنه لا يستطيع التذكّر. حُكم على ريغز بالإعدام ثم خُففّ الحكم بعد ذلك إلى الأشغال الشاقة المؤبّدة.

القضية «د»: ديريك برادلي

كان على علاقة بإحدى الفتيات، واكتشفت زوجته الأمر فهددته بالقتل. مات نتيجة لوضع سيانيد البوتاسيوم في شرابه، وتم القبض على السيدة برادلي وحوكمت بتهمة القتل، وانهارت عند الاستجواب وتمّ الحكم عليها وشُنقت.

القضية «هـ»: ماثيو ليتسفيلد

طاغية عجوز، عنده أربع بنات لا يسمح لهنّ بالتسلية ولا يعطيهنّ نقوداً، وعندما كان عائداً إلى البيت هاجمه أحدهم في إحدى الأمسيات على عتبة بابه وقتله بضربة على رأسه. وأخيراً وبعد تحريات الشرطة تقدمت ابنته مرغريت إلى الشرطة واعترفت بقتل والدها، وقالت إنها ارتكبت جريمتها لكي تتمكن أخواتها من التمتع بحياتهنّ قبل فوات الأوان. وقد خلّف ليتسفيلد وراءه

ثروة هائلة، واعتُبرت مرغريت مجنونة وأُدخلت إلى مصح برودمور، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة.

* * *

قرأت بدهشة واهتمام، وأخيراً وضعت الأوراق جانباً ونظرتُ إلى بوارو متسائلاً فقال: حسناً يا صديقي، وماذا بعد؟

فقلتُ ببطء: أنا أتذكر قضية برادلي؛ لقد قرأت عنها في ذلك الوقت. ولكن أخبرني: ما سبب كل هذا؟

- أخبرني أولاً برأيك فيما قرأت.

كنتُ متحيراً فقلت: ما قدمتَه لي هو روايتك لخمس جرائم مختلفة حدثت في أماكن مختلفة وضمن طبقات مختلفة من الناس، كذلك لا يوجد أيّ تشابه بينها؛ فإحداها كانت قضية غيرة، وأخرى كانت زوجة تعِسة تحاول التخلص من زوجها، وثالثة كان الدافع إليها المال، ورابعة يمكن القول إن هدفها غير أناني، ولا سيما وأن القاتلة لم تحاول التخلص من العقاب. أما الخامسة فقد كانت وحشية وفي الغالب ارتُكبت بتأثير الشراب.

وتوقفتُ هنيهة ثم قلت: أنا لست واثقاً... هل يوجد أيّ عامل مشترك بينَها لم ألحظه؟

- لا، بل كنتَ دقيقاً في تلخيصك، ولكن النقطة الوحيدة التي كان يجب أن تذكرها ولم تفعل هي أنه لم يوجد مجال للشك في أيّ من القضايا.

- لا أظن أنني أفهمك.

- لقد تمت تبرئة السيدة إثرنغتون على سبيل المثال، ولكن الجميع -دون استثناء- كانوا متأكدين من أنها هي الجانية. ولم تُتَّهَم فريدا كلاي بشكل واضح ولكن أحداً لم يفكر بأيّ حل آخر للجريمة. وقد قرر ريغز أنه لا يتذكر بأنه قتل زوجته وعشيقها، ولكن لم يوجد أي احتمال بأن أحداً آخَر قد ارتكبها. واعترفَت مرغريت ليتسفيلد بجريمتها. فكما ترى يا هيستنغز: في كل قضية يوجد متهَم واحد فقط.

قطبتُ حاجبَيّ وقلت: نعم، هذا صحيح، ولكنني لا أدري ما هي الاستنتاجات التي تخرج بها من ذلك.

- آه، ولكن كما ترى فأنا توصلت إلى حقيقة لا تعلمها أنت بعد. لنفترض -يا هيستنغز- أنه في كل حالة من الحالات السابقة كان هناك طرف غريب، شخص غريب وُجد في الحالات كلها.

- ماذا تعني؟

قال بوارو ببطء: أنا أنوي أن أكون حَذِراً جداً فيما أقول يا هيستنغز. دعني أوضح لك الأمر: هناك شخص ما سأسمّيه «س». من الواضح أن السيد «س» هذا لم يكُن لديه دافع واضح في جميع الحالات السابقة لارتكاب جريمته، بل لقد اكتشفتُ أنه كان بعيداً مسافة مئتَي ميل عندما ارتُكبت الجريمة في إحدى القضايا. وعلى الرغم من ذلك فأنا أقول لك إن «س» كان على علاقة حميمة بإثرنغتون، وإنه عاش لبعض الوقت في نفس القرية التي عاش فيها ريغز، وإنه كان يعرف السيدة برادلي، وإن لديّ صورة له وهو يسير

مع فريدا كلاي في الشارع، وإنه كان قريباً من المنزل عندما قُتل العجوز ماثيو ليتسفيلد... فماذا تقول بهذا الشأن؟

حدّقت إليه ثم قلت ببطء: نعم، هذا كثير بالفعل. قد تكون صدفة في قضية أو اثنتين أو حتى في ثلاث، أما في خمس قضايا؟ هذا كثير! إذن لا بد من وجود علاقة، مع أن الأمر يبدو مستبعَداً بين تلك الجرائم المختلفة.

- إذن فقد توصلتَ إلى ما توصلتُ إليه أنا؟

- تقصد أن «س» هو القاتل؟ نعم، هذا ما توصلت إليه.

- في هذه الحالة أنت على استعداد للمُضِيّ معي قُدُماً يا هيستنغز. والآن دعني أخبرك: إن «س» يعيش في هذا المنزل.

- هنا؟! في «ستايلز»؟!

- نعم، في «ستايلز». فما هو الاستنتاج المنطقي الذي نستنتجه من هذا؟

كنت أعلم النتيجة عندما قلت: تابع، قلها.

فقال بوارو بصوت خفيض وَقور: إن جريمة ستُرتكب هنا عمّا قريب.

* * *

الفصل الثالث

لوهلة نظرتُ إلى بوارو برعب ثم قلت: لا، لن تحدث جريمة هنا لأنك سوف تمنعها.

رماني بوارو بنظرة حانية وقال: صديقي المخلص، كم أقدّر ثقتك بي، ولكن مع ذلك فأنا لست واثقاً إذا كنتَ محقّاً في تقديرك لي هذه المرة.

- هراء! أنت تستطيع منعها بالطبع.

وكان صوت بوارو منخفضاً عندما قال: انتظر لحظة يا هيستنغز، يستطيع المرء العثور على القاتل، ولكن كيف يستطيع أن يوقف جريمة؟

- حسناً، أنت... أنت... حسناً، أعني... إذا كنتَ تستطيع أن تتنبأ...

وتوقفتُ وقد أحسستُ بالضعف لأنني بدأت أرى الصعوبات، فقال بوارو: أترى أن الأمر ليس سهلاً؟ توجد ثلاث وسائل فقط: الأولى هي تحذير الضحايا؛ أن نجعلهم حَذِرين، وهذا لا ينجح

دائماً لأن من الصعب جداً إقناع بعض الناس بأنهم معرَّضون لخطر شديد، وقد يكون هذا الخطر من شخص قريب وعزيز عليهم. سوف يغضبون وسيرفضون التصديق. أما الوسيلة الثانية فهي تحذير القاتل، كأن تقول له بلهجة غامضة: "أنا أعلم نواياك، وإذا مات هذا أو ذاك فسوف تُشنق لا محالة". وهذا الأسلوب ينجح أكثر من الأسلوب الأول في أغلب الحالات، ولكن من المرجَّح أن يفشل أيضاً؛ فالقاتل هو أكثر المخلوقات غروراً على وجه الأرض يا صديقي، القاتل دائماً أذكى من الجميع؛ لا أحد يشك فيه، وسوف يرتبك رجال الشرطة ونتيجة لذلك فإنه سيمضي في خطته، وكل ما نحصل عليه هو السعادة عندما نشنقه لاحقاً.

وتوقف ثم قال بحرص: لقد أنذرتُ القاتل مرتين في حياتي، الأولى في مصر والثانية في مكان آخر، وفي كلتا الحالتين كان المجرم مصمّماً على القتل، وربما كان الوضع كذلك هنا.

وذكّرتُه قائلاً: لقد تحدثت عن أسلوب ثالث؟

- نعم، ولكنه يحتاج إلى براعة تامة، فأنت بحاجة لأن تتوقع كيف ستأتي الضربة وأين، ويجب أن تكون مستعداً للتدخل في اللحظة الحاسمة؛ يجب عليك الإمساك بالقاتل حتى إن لم يكُن متلبساً، ولكن يكفي أن لا تكون نواياه السيّئة محل يشك.

وتابع بوارو قائلاً: وهذا أسلوب ذو أهمية وصعوبة شديدتين يا صديقي، ولا أستطيع ضمان نجاحه ولو للحظة. قد أكون مغروراً ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

- وأيّ الأساليب تقترح استخدامه هنا؟

- من المحتمل أن أستخدم الثلاثة معاً، والأول هو أصعبها.

- لماذا؟ كنت أظنه الأسهل.

- نعم، هذا إن كنت تعرف مَن سيكون الضحية، ولكن ألا تدرك بأنني لا أعلم مَن الضحية يا هيستنغز؟

- ماذا؟!

قلتُها بقوة وبلا تفكير. وبدأَت تظهر لي صعوبات الموقف؛ فالصلة موجودة، يجب أن تربط بين هذه السلسلة من الجرائم صلة، ولكننا لا نعرف ما هي هذه الصلة! أما الدافع (وهو أمر شديد الأهمية) فإنه مفقود، ودون معرفته لا نستطيع معرفة المهدِّد بالقتل!

أومأ بوارو برأسه عندما رأى من تعبيرات وجهي أنني قد أدركت صعوبة الموقف وقال: هل ترى يا صديقي؟ إن الأمر ليس سهلاً.

- نعم، أرى ذلك. ألم تستطع -بعدُ- اكتشاف الصلة بين هذه القضايا المختلفة.

هزّ بوارو رأسه وقال: لا شيء هنا.

وفكرتُ مرة أخرى في القضايا «أ» و«ب» و«ج». لقد تعاملنا في الماضي مع قضية بدا منها ظاهرياً أنها سلسلة من الجرائم حسب الأحرف الأبجدية، ثم تبيّن أنها كانت أمراً مختلفاً في الحقيقة. سألته: هل أنت متأكد من عدم وجود أيّ دافع مادّي،

كما حصل في قضية إيفلين كارليل على سبيل المثال؟

- نعم، وكُن متأكداً من أن المكاسب المادية هي أول ما أبحث عنه يا عزيزي هيستنغز.

وفي الواقع كانت تلك هي الحقيقة. وفكرتُ مرة أخرى فيما إذا كانت عمليةَ انتقام، فهذا الافتراض يتفق مع الحقائق أكثر. ولكن حتى هذا الافتراض يفتقر إلى حلقة الوصل. وتذكرت قصة كنت قد قرأتها عن سلسلة من الجرائم بدا أنها تُرتكب دون أيّ هدف، ثم ظهر أن الضحايا كانوا من المحلَّفين، وقد ارتكب الجرائمَ رجلٌ كانوا قد جرّموه سابقاً. استوقفتني فكرة أن هذا قد ينطبق على قضيتنا، وشعرت بالخجل لأنني احتفظتُ بالفكرة لنفسي لأنني شعرت أنها ستكون مصدر زهوي لو استطعت أن أذهب إلى بوارو بالحل، وبدلاً من ذلك فقد سألته: والآن أخبرني، مَن هو السيد «س» هذا؟

وليزيد من إزعاجي هزّ رأسه بتأكيد وقال: هذا ما لا أستطيع إخبارك به يا صديقي.

- هذا غير منطقي! ولماذا لا يمكنك هذا؟

تلألأت عينا بوارو وقال: لأنك لا تزال هيستنغز القديم ذاته يا صديقي، حيث تُظهر ملامحك ما تفكر به، وأنا لا أريدك أن تجلس محدّقاً إلى هذا الرجل وفمك مفتوح ووجهك يشير بوضوح إلى أن هذا الذي تنظر إليه قاتل.

- يمكنك أن تثق بي وبقدرتي على الإخفاء عند الحاجة.

- عندما تخفي يزداد الأمر سوءاً. لا، لا يا صديقي، يجب أن نكون أنت وأنا كتومَين وحذرَين، وعندما نقرر الهجوم فسوف نهاجم.

- أيها الشيطان العجوز العنيد! لي عقل جيّد و...

قاطعني طرق على الباب فهتف بوارو: ادخل.

ودخلت ابنتي جوديث. أحب أن أصف لكم جوديث، ولكنني كنت دائماً ضعيفاً في الوصف. جوديث فتاة طويلة القامة مرفوعة الرأس حاجباها حالكان مستويان، فكّاها وخدّاها جميلان، وهي متزمتة وَقورة متّزنة، ولكنها من النوع الساخر، وكنت أتذكرها دائماً وقد اقترن بها شيء من المأساة.

لم تأتِ إليّ لتقبّلني؛ ليست جوديث من تلك النوعية، بل ابتسمت لي قائلة: مرحباً يا أبي.

كانت ابتسامتها خَجلى ولكنها جعلتني أشعر بأنها (وبالرغم من عدم إعلانها عن عواطفها) مسرورة لرؤيتي. وقلت وأنا أشعر بالحماقة كما أشعر دائماً مع الجيل الأصغر سناً: حسناً، لقد وصلتُ إلى هنا.

- هذا ذكاء منك يا أبي.

قال بوارو: كنت أصف له الطعام هنا.

فسألَت جوديث: هل هو سيّئ إلى هذا الحد؟

- كان يجب عليك عدم السؤال يا طفلتي، فأنت لا تفكرين

في شيء غير أنابيب الاختبار والمجهر. أصبعك الأوسط ملطّخ بأزرق الميثيلين، وهذا ليس بالأمر الجيّد بالنسبة لزوجك إن كنت تهتمّين بمعدته.

- يمكنني أن أقول إنه لن يكون لي زوج.

- بالطبع سوف يكون لديك زوج. لماذا خلقك الله؟

- أرجو أن يكون لعدة أمور.

- الزواج أولها.

قالت جوديث: حسناً، إذا وجدتُ زوجاً لطيفاً فسوف أعتني بمعدته جيداً.

قال بوارو: ابنتك تسخر مني يا هيستنغز، ولكن يوماً ما ستعرف معنى حكمة الرجال الكبار.

ثم طُرق الباب مرة أخرى ودخل الدكتور فرانكلين. كان شاباً طويلاً نحيلاً يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، يُوحي فكه بالحزم، ذا شعر أحمر وعينين زرقاوين لامعتين، وبدا لي من أحمق الناس الذين عرفتهم إذ كان يرتطم بالأشياء بفكر غائب، وقد ارتطم بستارة خلف كرسي بوارو فأدار رأسه نصف دورة وهمس قائلاً لها: عذراً.

أردت الضحك ولكن جوديث بقيَت هادئة ورزينة كما لاحظت، وأظن بأنها اعتادت مثل هذا الأمر. قالت: هل تتذكر والدي؟

فتلفّتَ الدكتور فرانكلين بحذر وخجل وأغمض عينيه نصف

إغماضة وحدق إليّ، ثم مدّ يده باتجاهي قائلاً: بالطبع، بالطبع. كيف حالك؟ لقد سمعت بأنك ستأتي.

ثم التفت نحو جوديث وقال: هل تظنين أن ثمة ما يدعو إلى تغيير ملابسنا؟ إذا لم تكُن لذلك حاجة فنستطيع العمل قليلاً بعد العشاء، وإذا استطعنا إعداد عدد أكبر من هذا الشرائح...

- لا؛ أريد التحدث مع والدي.

- آه، نعم، بالطبع. أنا آسف.

وابتسم فجأة ابتسامة اعتذار صبيانية وهو يكمل: أنا آسف؛ لقد انشغلت كثيراً بهذا الموضوع. هذا يجعل من الصعب مسامحتي كما أنه يجعلني أبدو أنانياً... أرجو أن تعذروني.

ودقّت الساعة فنظر إليها فرانكلين بسرعة وقال: يا إلهي! هل الوقت متأخر إلى هذا الحد؟ سوف أقع في المتاعب؛ لقد وعدت باربرا بأنني سوف أقرأ لها قبل العشاء.

وابتسم لنا وأسرع بالخروج مصطدماً بالباب في أثناء عبوره، فقلت: كيف حال السيدة فرانكلين؟

فأجابت جوديث: لا تزال كما هي، بل أسوأ.

قلت: إنه لأمر محزن أن تكون معوَّقة بهذا الشكل.

قالت جوديث: كم تثير غضب الأطباء! الأطباء يحبون الناس الأصحّاء.

فتعجبتُ قائلاً: ما أقساكم أيها الشباب!

فقالت جوديث ببرود: بل أنا أقرّ حقيقة واقعة.

قال بوارو: وبالرغم من ذلك فالدكتور الطبيب أسرع ليقرأ لها.

قالت جوديث: هذا منتهى الغباء. تستطيع الممرّضة المسؤولة عنها القراءة لها بصورة جيدة إن أرادت السيدة القراءة. أنا شخصياً أكره أن يقرأ لي أي شخص بصوت مسموع.

قلت: حسناً، ولكن الأذواق تختلف.

- إنها امرأة غبية جداً.

قال بوارو: لا يا طفلتي، أنا أختلف معك في هذا.

- ولكنها لا تقرأ إلا الروايات الرخيصة، كما أنها لا تهتم بأي عمل ولا تتابع أمور الساعة، بل هي فقط تتكلم عن صحتها لأيّ شخص يستمع إليها.

- ولكنني أؤكد لك أنها تستعمل خلاياها الرمادية وملكاتها العقلية بطرق لا تعلمين عنها شيئاً يا طفلتي العزيزة.

فقالت جوديث: إنها امرأة ظاهرة الأنوثة؛ تتمسح وتموء مثل القطط، وأتوقع أنك تفضلهنّ هكذا يا عم هيركيول.

فقلت: بالطبع لا؛ بل إنه يفضّلهن ضخمات روسيات!

فقال بوارو: هكذا تشي بي يا هيستنغز؟ حسناً، سأشي بك أنا أيضاً. لقد كان والدك -يا جوديث- يميل دوماً إلى الشعر البنّي

المحمَرّ، وقد سبب له هذا الأمر المتاعب أكثر من مرة.

وابتسمت جوديث بتسامح قائلة: يا لكما من مسلّيَين!

ثم انصرفت ونهضتُ أنا قائلاً: يجب أن أفكّ أمتعتي، وقد أغتسل قبل العشاء.

وضغط بوارو على الجرس الذي كان بمتناول يده، وبعد دقيقتين دخل علينا الخادم، ودُهشت حين رأيت أنه خادم جديد فقلت: أين جورج؟!

كان جورج خادم بوارو الذي يعمل لديه منذ زمن بعيد، وقال بوارو: لقد عاد جورج إلى عائلته لأن والده مريض، وأرجو أن يعود في وقت قريب.

ثم ابتسم للخادم الجديد وهو يكمل: أما في الوقت الحاضر فإن كيرتس يعتني بي.

وابتسم كيرتس باحترام. كان رجلاً ضخماً يوحي وجهه بالبلادة والغباء، ولاحظتُ وأنا في طريقي خارجاً أن بوارو يقفل الحقيبة جيداً والأوراق بداخلها، وكان عقلي يلفّ ويدور وأنا أعبر الممر إلى غرفتي.

* * *

الفصل الرابع

في تلك الليلة نزلت لتناول طعام العشاء وأنا أشعر بأن كل ما في الحياة قد أصبح غير حقيقي فجأة، وتساءلتُ أكثر من مرة وأنا أستعد للعشاء عمّا إذا كان بوارو قد تخيّل الأمر كله؛ فهو الآن رجل عجوز وصحته متدهورة، هو يقول إن عقله ما زال سليماً كما في السابق ولكن هل هو كذلك في الحقيقة؟ لقد أمضى حياته كلها في تعقّب الجريمة، فهل من المستبعَد -في النهاية- أن يتخيل الجرائم حين لا تكون جرائم؟

لا بد أن البطالة المفروضة عليه قد أثّرت فيه بشكل كبير، والاحتمال الأكبر هو أنه سوف يخترع لنفسه فريسة جديدة. هل هي أمنيّة أم اختلال عقلي كامل؟ لقد اختار عدداً من الأحداث التي نُشرت في الصحف وقرأ من خلالها أموراً لم تكُن موجودة. ولم أرَ خلف تلك الأحداث قاتلاً مجنوناً، بل الاحتمال أن السيدة إثرنغتون قد قتلت زوجها فعلاً، وأن العامل قد أطلق النار على زوجته، وأن الفتاة قد أعطت خالتها العجوز جرعة مضاعَفة من المورفين، وأن الزوجة الغيور قد تخلصت من زوجها كما هددته من قبل، وأن العانس المجنونة قد ارتكبت فعلاً الجريمة ثم استسلمت بعد

ارتكابها... وفي الواقع فلا بد أن تلك الجرائم هي ما تبدوه تماماً.

لكن بوارو قدّم رأياً مضادّاً لهذا الرأي المعقول! ولم أستطع إلا أن أضع في اعتباري إيماني المطلَق بفطنة بوارو وذكائه. قال بوارو إن جريمة قد تم إعدادها، وللمرة الثانية سيستضيف قصر ستايلز جريمة. الزمن وحده سوف يُثبت هذا الزعم أو ينفيه، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فإنه يتوجب علينا منع الجريمة.

بوارو كان يعرف هوية القاتل التي لا أعرفها أنا، وكلما فكرتُ بالأمر ازداد انزعاجي؛ ففي الحقيقة كان هذا منتهى الوقاحة من بوارو: يريد منّي أن أتعاون معه وفي الوقت ذاته لا يثق بي! ولكن لماذا؟ كان هناك السبب الذي ذكره، وهو سبب غير كافٍ بالطبع. لقد سئمتُ من سخريته من وجهي المعبّر. أنا أستطيع الاحتفاظ بالسر مثل غيري، وبوارو يُصرّ دائماً على اعتقاده المُهين بأنني ذو شخصية يستطيع الجميع الرؤية من خلالها ويزعم أن أيّ شخص يستطيع قراءة ما يدور في ذهني، ثم يحاول التخفيف من حدة الإهانة بإرجاع ذلك إلى شخصيتي اللطيفة الصادقة التي تمقت أيّ نوع من أنواع الخداع.

فكرت أنه إذا كان الأمر كله من أوهام بوارو وتخيلاته فيمكن تفسير تكتّمه وتحفّظه. ولم أكُن قد توصلت إلى أي شيء حينما قُرِع جرس الطعام، فنزلتُ لتناول العشاء بعقل متفتّح وبعين يقظة بحثاً عن مجهول بوارو الأسطوري، السيد «س».

في الوقت الحالي سأقبل أيّ شيء يقوله بوارو وكأنه حقيقة قاطعة لا مجال للشك فيها، وسوف أقتنع بأن في هذا البيت شخصاً

ارتكب حتى الآن خمس جرائم قتل ويُعِدّ الآن لارتكاب جريمة أخرى. ولكن من هو؟

في غرفة الجلوس وقبل أن نذهب إلى العشاء تم تقديمي إلى الآنسة كول والميجور أليرتون. كانت الآنسة كول امرأة طويلة جميلة في أوائل العقد الرابع من عمرها، أما الميجور أليرتون فقد كرهتُه غريزياً. كان رجلاً وسيماً في أوائل الأربعينيات عريض المنكبَين أسمر الوجه يتحدث بطلاقة وتحمل معظم كلماته أكثر من معنى، وأعتقد أن التجاعيد تحت عينيه سببها طريقته اللاهية في الحياة، فهو يعبث كثيراً ويقامر ويكثر من شرب الكحول، ولا بد أنه زير نساء. ولاحظتُ أن الكولونيل لاتريل لا يحبه كثيراً أيضاً، وكذلك كان بويد كارنغتون متحفظاً في تصرفه نحوه.

أما النجاح الذي أحرزه أليرتون في الحفلة فقد كان مع النساء؛ فها هي السيدة لاتريل تبتسم له وتثرثر معه في حين يُطريها هو بلهجة لا تخلو من الوقاحة، وقد انزعجتُ وأنا أرى أن جوديث تستمتع برفقته هي الأخرى وتبذل جهداً أكثر من المعتاد في الحديث معه، والسؤال الذي لم أستطع الإجابة عليه هو: "لماذا ينجح أسوأ أنواع الرجال في لفت انتباه ألطف النساء وأحسنهن؟". لقد أدركت غريزياً أن أليرتون شخص بغيض وسوف يوافقني على ذلك تسعة رجال من أصل عشرة، ولكن تسع نساء سوف يقعن في أسره فوراً، بل ربما وقع العشرة كلهن!

بينما كنا نجلس حول طاولة العشاء وأمامنا صحون من الحساء أخذتُ أطوف بعينيّ حول الطاولة وألخّص الاحتمالات الموجودة،

فإذا كان بوارو على حق وكان قد احتفظ بعقله سليماً غير مشوَّش فإن واحداً من هؤلاء الأشخاص مجرم خطير، ومن المرجَّح أن يكون مجنوناً أيضاً. لم يقُل لي بوارو ذلك بوضوح ولكنني اعتقدتُ أن «س» سيكون رجلاً على الأرجح، ولكن أيّ واحد من هؤلاء الرجال هو؟

بالتأكيد ليس هو الكولونيل لاتريل بتردده وحيرته ومظاهر الضعف المحيطة به. هل هو نورتون، الرجل الذي التقيت به وهو يندفع خارج المنزل يحمل منظار الميدان؟ لا، هذا غير محتمل؛ فهو يبدو شخصاً لطيفاً، وهو -في الغالب- شخص خامل يخلو من الحيوية. لكنني حدّثت نفسي بأن الكثير من القَتَلة كانوا أشخاصاً عاديين ليسوا ذوي أهمية، وهذا السبب يدفعهم إلى ارتكاب جرائمهم لإثبات وجودهم، فهم يستاؤون من تخطّي الناس لهم وتجاهلهم إياهم. ربما كان نورتون قاتلاً من هذا النوع، ولكن لدينا مسألة اهتمامه بالطيور، وأنا أعتقد أن حب الطبيعة هو بالضرورة علامة حسنة في صالح الرجل.

هل هو بويد كارنغتون؟ مستحيل، هذا الرجل معروف في كل مكان، وهو رياضي جيّد وإداري جيد ورجل يحبه الجميع ويغبطونه. وأيضاً استبعدتُ فرانكلين لأنني أعرف كم تحترمه جوديث وتقدّره.

حسناً، لنبدأ بالميجور أليرتون. أمعنت فيه النظر جيداً؛ كان شخصاً كريهاً لم أرَ مثله من قبل، فهو من تلك النوعية من الأشخاص الذين هم على استعداد لسلخ جلد جدّاتهم وهنّ على

قيد الحياة، تحيط به هالة من الفتنة الخادعة، فها هو ذا يتحدث الآن فيروي قصة خيبته وهزيمته مثيراً ضحك الجميع على نكتة أطلقها على نفسه. وتوصلت إلى أنه إذا كان أليرتون هو «س» فجرائمه قد ارتُكبت لتحقيق الربح بوسيلة ما.

لكن بوارو لم يصرّح بوضوح بأن المشتبَه به رجل، لذلك يمكن اعتبار الآنسة كول احتمالاً من الاحتمالات؛ فقد كانت حركاتها قلقة ومتشنجة، ومن الواضح أنها امرأة عصبية. كانت جميلة إلى حد ما ولكنها بدت عادية جداً، وكانت هي والسيدة لاتريل وجوديث النساء الوحيدات على طاولة العشاء، فالسيدة فرانكلين تتناول عشاءها في غرفتها في الطابق العلوي والممرّضة التي تعتني بها تتناول وجباتها بعد أن ننتهي نحن من تناول الطعام.

بعد العشاء كنت أقف بجانب النافذة في غرفة الجلوس أنظر إلى الحديقة وأتذكّر الوقت الذي تعرفت فيه على سينثيا ميردوك وهي تركض في المرج، وهي فتاة شابة شعرها بني محمَرّ. كم بدت فاتنة في ثوبها الأبيض! وبينما أنا مستغرق في أفكاري عن الماضي فزعت عندما وضعَت جوديث ذراعها في ذراعي وقادتني من النافذة إلى الشرفة، وعلى نحو مفاجئ سألتني: ما الأمر؟

فقلت وقد أخذتني المفاجأة: الأمر! ماذا تعنين؟!

- لقد كنتَ غريب الأطوار هذه الأمسية، فلماذا كنت تحدق إلى الجميع في أثناء العشاء؟

وتضايقتُ لأنني لم أعلم بأنني قد سمحت لأفكاري بأن تتحكم بي وتسيطر عليّ، فقلت: هل كنتُ كذلك؟ لا بد أنني كنتُ

أتذكّر الماضي، بل ربما ظننت أنني أرى أشباحاً.

- آه، نعم، بالطبع؛ لقد أقمتَ هنا عندما كنتَ شاباً يافعاً، أليس كذلك؟ لقد قُتلت هنا امرأة عجوز فيما أظن، أليس هذا صحيحاً؟

- بلى، سُمِّمَت بالإستركنين.

- وكيف كانت؟ لطيفة أم بغيضة؟

فكرت في السؤال ثم قلت ببطء: كانت امرأة طيبة كريمة، وكان الكثير من أموالها يذهب للصدقات.

- آه، هذا النوع من الكرم!

بدت في صوت جوديث نبرة خفيفة من الاحتقار، ثم سألتني سؤالاً فضولياً فقالت: هل كان الناس سعداء هنا؟

كنت أعرف أنهم لم يكونوا سعداء فقلت ببطء: لا.

- لماذا؟

- لأنهم كانوا يشعرون بأنهم سجناء؛ فالسيدة إنغليثورب كانت تملك المال كله وتصدقت به، ولم يستطع أولاد زوجها أن يعيشوا حياتهم مستقلّين.

سمعتُ جوديث تشهق بصوت مرتفع واشتدت قبضتها على ذراعي وهي تقول: هذا أمر سيّئ؛ إنه سوء استخدام للسلطة يجب عدم السماح به، يجب أن لا تُمنَح السلطة للعجائز والمرضى ليتحكموا في حياة الشباب الأقوياء ويجعلوهم مقيَّدين قلقين،

يضيعون وقتهم وطاقتهم التي يمكن الاستفادة منها والتي يحتاج إليها المجتمع، هذه أنانية!

فقلت بلهجة جافة: العجائز لا يمتلكون هذه الصفة الاحتكارية.

- أجل، أنا أعلم أنك تظن أن الشباب أنانيون يا أبي، ربما كنا كذلك حقاً، ولكنها أنانية نظيفة. على الأقل نحن نريد أن نفعل ما نريده ولا نريد من الآخَرين فعل ما نريده، نحن لا نريد استعباد الآخرين.

- نعم، ولكنكم فقط تدوسون عليهم إذا حدث وكانوا في طريقكم.

ضغطت جوديث على ذراعي ثم قالت: لا تكن قاسياً هكذا. أنا لا أدوس على الآخرين، وأنت لم تحاول التحكم في حياة أيّ منّا ولذلك فنحن ممتنّون لك.

- أخشى أنّي كنت أتمنى فعل ذلك، ولكن أمكِ هي التي كانت تصر على السماح لكم بارتكاب الأخطاء الخاصة بكم.

ضغطت جوديث على ذراعي مرة أخرى وقالت: أعلم، لقد كنت ترعانا كما ترعى الدجاجة أبناءها، وأنا أكره هذا الاهتمام الشديد ولا أطيقه. ولكن ألا تتفق معي بشأن التضحية بحياة أولئك الأشخاص المفيدين في سبيل الأشخاص غير المفيدين؟

اعترفتُ قائلاً: يحدث هذا أحياناً، ولكن لا داعي للمغالاة، فكما تعلمين يستطيع أيّ شخص أن يهرب بعيداً.

- نعم، ولكن هل هذا هو ما يحدث حقاً؟

كانت نبرتها قوية لدرجة أنني نظرت إليها بدهشة، وكان الظلام شديداً بحيث لم أستطع رؤية وجهها بوضوح، فتابعَت بصوت منخفض ومضطرب: توجد أمور كثيرة صعبة مثل الاعتبارات المالية، والشعور بالمسؤولية، والتردد في إيذاء شخص تشعر نحوه بالعاطفة... كل هذه الأمور، وأيضاً يوجد بعض الناس معدومي الضمير الذين يعرفون كيف يتلاعبون بهذه المشاعر.

هتفتُ مأخوذاً بنبرة الغضب في صوتها: عزيزتي جوديث!

ويبدو أنها أدركت أن نبرتها كانت قوية جداً لأنها ضحكت وسحبت ذراعها من ذراعي وقالت: هل كانت لهجتي حادة؟ هذا موضوع أشعر نحوه بعمق. لقد عرفت حالة... آه، حالة كان الأب فيها عجوزاً متوحشاً، وعندما توفرت لدى إحداهنّ المشاعر الكافية لفك العقدة وتحرير الأشخاص الذين أحبّتهم لقّبوها بالمجنونة. مجنونة؟! لقد كان أعقل وأشجع شيء يمكن لأي شخص فعله.

وانتابني شعور فظيع بالغثيان. أين سمعت شيئاً مشابهاً ومن مدة غير بعيدة؟ سألتُها: جوديث، عن أي قضية تتحدثين؟

- ليسوا أشخاصاً تعرفهم، إنهم أصدقاء لعائلة فرانكلين، رجل عجوز يُدعى ليتسفيلد. كان غنياً جدّاً ولكن يمكن القول إنه كان يجوّع بناته البائسات، ولم يسمح لهن قط بالخروج أو رؤية أحد. لقد كان مجنوناً فعلاً، ولكن ليس بالدرجة الكافية من الناحية الطبية.

- وقد قتلته ابنته الكبرى، أليس كذلك؟

- أظن أنك قرأت عن القضية. افترضتُ أنك ترى الأمر كجريمة، ولكنها لم تُرتكَب لدوافع شخصية. لقد توجهَت مرغريت ليتسفيلد فوراً إلى الشرطة وسلّمَت نفسها. لقد كانت في منتهى الشجاعة، ولا أظن بأنني يمكن أن تتوفر لي مثل تلك الشجاعة.

- الشجاعة لتسليم نفسك أم الشجاعة لارتكاب الجريمة؟

- كلاهما.

فقلت بحدة: كم أنا مسرور لسماع ذلك! لا أحب أن أسمعك تتحدثين عن جريمة تبرّرها ظروف معيَّنة. وتوقفت هنيهة ثم تابعت: وماذا يظن الدكتور فرانكلين؟

قالت جوديث: يظن أنه يستحق ما حدث له. هل تعلم يا أبي؟ إن بعض الناس يطلبون أن يُقتَلوا؟

- لا أسمح لك بالتحدث هكذا يا جوديث. مَن الذي وضع مثل هذه الأفكار في رأسك؟

- لا أحد.

- حسناً، ولكن دعيني أخبرك بأن هذا هراء خبيث.

- حسناً، سوف ندع الأمور على ما هي عليه. لقد حضرت لأعطيك رسالة من السيدة فرانلكين، فهي تودّ رؤيتك في غرفتها إذا لم يكُن لديك مانع.

- هذا من دواعي سروري. أنا آسف لأنها لم تكُن بحالة جيدة تسمح لها بالنزول لتناول العشاء.

قالت جوديث بعدم حساسية: هي بخير، ولكنها تريد فقط أن تجذب الانتباه.

قلت: الشباب لا يراعون شعور الآخرين!

* * *

الفصل الخامس

لم ألتقِ بالسيدة فرانكلين إلا مرة واحدة من قبل. كانت في الثلاثينيات من عمرها، ويمكن وصفها بأنها سيدة بكل معنى الكلمة؛ فعيناها بنّيتان واسعتان وشعرها مفروق في المنتصف ووجهها طويل ورقيق، وكانت نحيلة جداً.

رأيتها مستلقية في سريرها مستندة إلى الوسائد مرتدية عباءة أنيقة ذات لون أبيض وأزرق فاتح، وكان فرانكلين وبويد كارنغتون هناك أيضاً يتناولان القهوة. رحّبَت بي السيدة فرانكلين بيد ممدودة وابتسامة صافية وهي تقول: كم أنا سعيدة لأنك أتيت يا كابتن هيستنغز! هذا سوف يسعد جوديث؛ فهي ترهق نفسها في العمل.

قلت وأنا أصافح يدها الرقيقة: تبدو جوديث سعيدة في عملها.

تنهدت باربرا فرانكلين وقالت: نعم، إنها محظوظة. كم أحسدها! لا أظن أنها تعرف معنى المرض حقيقةً. ما رأيك أيتها الممرّضة؟ آه، دعني أعرّفك، هذه هي الممرّضة كارفن التي تعتني بي جيداً. لا أعلم ماذا كنت سأفعل دونَها فهي تعاملني كأنني طفلة، أليس كذلك يا عزيزتي؟

كانت الممرّضة كارفن فتاة شابة طويلة حسنة المظهر تبدو بصحة جيدة وذات وجه حسن وشعر بني محمَرّ، ولقد لاحظت أن يديها الطويلتين البيضاوين تختلفان عن أيدي العديد من ممرضات المستشفيات، ويمكن وصفها بأنها فتاة قليلة الكلام، بل هي في بعض الأحيان لا تجيب على السؤال. ولم تجب في تلك اللحظة بل اكتفت بهز رأسها، فقالت السيدة فرانكلين: ولكن جون يرهق ابنتك الهزيلة في الحقيقة، فهو كمراقب العمال. أنت مراقب عمّال، أليس كذلك يا جون؟

كان زوجها يقف عند النافذة ينظر إلى الخارج، وكان يصفّر لنفسه ويعبث ببعض العملات المعدنية في جيبه، وقد جفل قليلاً عند سؤال زوجته وقال: ماذا يا باربرا؟

- كنت أقول إنك ترهق المسكينة جوديث هيستنغز بصورة مخجلة، أمّا الآن فالكابتن هيستنغز هنا وسوف نتفق معاً ونوقف ذلك.

لم تكُن السخرية والتهكم من نقاط القوة عند الدكتور فرانكلين، وقد بدا قلقاً وإن كان قلقه غير ظاهر، ثم التفتَ إلى جوديث مستفسراً وتمتم قائلاً: يجب عليك إخباري إن كنتُ أبالغ في الأمر.

قالت جوديث: يحاولون أن يكونوا مسلّين. وبمناسبة الحديث عن العمل فقد كنت أريد أن أسألك عن الصبغة المُعَدّة للشريحة الثانية، تعرف ما أقصد، تلك التي...

فالتفت نحوها وقاطعها قائلاً: نعم، نعم. أقترح أن نذهب إلى المختبَر إذا لم يكُن لديك مانع؛ أريد التأكد.

ثم غادرا الغرفة معاً وهما لا يزالان يتحدثان، في حين استلقت باربرا فرانكلين على وسادتها وتنهدت. وفجأة تكلمت الممرّضة كارفن بنبرة مستاءة وقالت: أظن أن الآنسة هيستنغز هي «مراقِب العمّال»!

تنهدت السيدة فرانكلين وغمغمت مرة أخرى: أشعر أنني غير مناسبة لجون. ينبغي أن أهتم بعمله أكثر، أعرف هذا، ولكنني لا أستطيع. يمكنني القول بأنني لست على ما يرام، ولكن...

قاطعها بويد الذي كان يقف بجانب المدفأة بصوت أجش: هراء يا بابْس، أنتِ على ما يرام، لا تُقلقي نفسك.

- ولكنني قلقة حقاً يا عزيزي بيل. أنا أصاب بالخيبة من نفسي ولا أستطيع منع نفسي من هذا الشعور، فهذا الأمر قبيح جداً؛ أرانب وفئران للتجارِب!

ثم أضافت وهي ترتجف: أعلم أن هذا غباء وأنني بلهاء، ولكن هذا يثير اشمئزازي. أريد التفكير فقط في الأشياء الجميلة والسعيدة مثل الطيور والأزهار والأطفال وهم يلعبون... أنت تعلم يا بيل.

اقترب منها وتغير وجهه وهو ينظر إليها فأصبح رقيقاً كوجه النساء، وكان ذلك مؤثراً على نحو ما لأن بويد كارنغتون كان رجلاً بكل معنى الكلمة. قال لها: أنتِ لم تتغيري كثيراً منذ كنتِ في السابعة عشرة يا بابْس. هل تذكرين منزلك الصيفي ومنازل الطيور وجوز الهند؟

ثم التفت نحوي قائلاً: أنا وباربرا أصدقاء منذ كنّا صغاراً.

واحتجّت باربرا قائلة: أصدقاء قدماء؟!

- آه، أنا لا أنكر أنك تصغرينني بخمسة عشر عاماً، ولكنني كنت ألعب معك وأنت لا تزالين طفلة صغيرة وكنت أنا شاباً يافعاً، وكنتُ أيامها أحملك على ظهري. وعندما عدت إلى الوطن وجدتك شابة جميلة توشك على أن تبدأ حياتها في هذا العالم، وقد ساهمت أنا في ذلك بأخذك إلى ملاعب الغولف وعلّمتك كيف تلعبينه، هل تذكرين؟

- آه يا بيل، هل تظن أنني أستطيع أن أنسى ذلك؟

وأوضحَت لي قائلة: كان أهلي يعيشون في هذه المنطقة من العالم، وكان بيل يأتي لزيارة عمه العجوز السير إيفرارد في قصر «ناتون».

قال بيل: وقد كان «ناتون» (ولا يزال) كالقبر! أنا أيأس أحياناً من جعل هذا المكان محتمَلاً وملائماً للعيش.

قالت السيدة فرانكلين: ولكنه يمكن أن يصبح رائعاً يا بيل، رائعاً حقاً.

- نعم يا بابْس، ولكن المشكلة أنني لا أملك أي أفكار؛ فقط بعض الحمّامات وبعض الكراسي المريحة... هذا كل ما أستطيع التفكير فيه. الأمر يحتاج إلى وجود امرأة.

- قلت لك إنني سوف أذهب للمساعدة، وأنا أعني ذلك فعلاً.

ونظر السير ويليام نحو الممرّضة كارفن بشك وهو يقول: إذا كنتِ قوية بدرجة كافية فيمكنني اصطحابك إلى هناك. ماذا تظنين أيتها الممرّضة؟

- نعم يا سير ويليام، أظن أن هذا سيفيد السيدة فرانكلين، ولكن بالطبع إذا كانت حذرة في عدم إرهاق نفسها.

- هذا موعدٌ بيننا إذن. والآن عليك أن تنامي جيداً لكي تكوني في حالة جيدة استعداداً للغد.

* * *

تمنينا ليلة سعيدة للسيدة فرانكلين وخرجنا معاً، وفي طريقنا إلى الطابق الأرضي قال لي بويد كارنغتون بصوت أجشّ: أنت لا تدري كم كانت فاتنة عندما كانت في السابعة عشرة. كنت عائداً من بورما حيث ماتت زوجتي هناك، وأرجو أن لا تمانع إذا أخبرتك بأنني قد أحببتها، ولكنها تزوجت الدكتور فرانكلين بعد ثلاث سنوات أو أربع. ولا تظنّ بأنه كان زواجاً سعيداً، وأظن أن ذلك هو سبب صحتها المعتلة فهو لا يفهمها ولا يقدّرها، وهي حساسة جداً، وأنا أعتقد أن ضَعفها هذا يرجع سببه إلى العصبية جزئياً، فعلى سبيل المثال خذها إلى الخارج للتسلية وحاول إثارة اهتمامها وستبدو امرأة مختلفة، ولكن هذا المغفل يهتم فقط بسكان أفريقيا الغربيين والحضارات البائدة وأنابيب الاختبار...

أظن أنه كان فيما قال بعض الحقائق. وقد فوجئت بانجذاب بويد كارنغتون نحو السيدة فرانكلين، فهي مخلوقة مريضة على

الرغم من أنها جميلة ورقيقة كعلبة الحلوى، أما بويد كارنغتون فكان ممتلئاً بالحيوية بحيث ظننت أنه لن يكون صبوراً مع امرأة مقعَدة عصبية. على أي حال فيبدو أن باربرا فرانكلين كانت فاتنة في شبابها، والانطباعات القديمة لا تزول بسهولة.

وفي الطابق الأرضي اقتربَت منّا السيدة لاتريل واقترحت لعب البريدج، لكنني اعتذرت بحجة رغبتي في الانضمام إلى بوارو.

* * *

وجدت صديقي في فراشه، وكان كيرتس يرتّب الغرفة متنقلاً بين أرجائها، ولكنه خرج حين دخلتُ وأغلق الباب خلفه فقلت: أفّ لك يا بوارو أنت وعادتك اللعينة بالاحتفاظ بالأمور لنفسك! لقد أمضيتُ الليلة كلها وأنا أحاول العثور على صاحبنا.

- لا بد أن ذلك قد جعلك مشتَّت الذهن قليلاً. هل علّق أحدهم على شرودك وسألك ما الأمر؟

واحمَرّ وجهي قليلاً وقد تذكّرت سؤال جوديث، ويبدو أن بوارو لاحظ ارتباكي لأنني رأيتُ ابتسامة خبيثة على شفتيه، لكنه قال: وماذا كانت استنتاجاتك بشأن هذه النقطة؟

- هل ستخبرني إن كنتُ على حق؟

- بالطبع لا.

وراقبت وجهه بتمعن وأنا أقول: لقد فكّرتُ في نورتون.

ولم يتغير وجه بوارو فأكملت: ولكن ليس لأنني أملك دليلاً، بل بدا لي أقل الموجودين إثارة لشكوكي، وأظن أن المجرم الذي نبحث عنه يجب أن يكون غيرَ مثير للشكوك.

- هذا صحيح، ولكن توجد طرقٌ أكثر مما تظن لعدم إثارة الشكوك.

- ماذا تعني؟

- فلنأخذ قضية فرضية؛ لنفترض أن رجلاً غريباً شريراً يصل إلى هنا قبل القاتل بأسابيع دون أي سبب محدَّد للقدوم، فذلك سيكون ملاحَظاً، ولكن كان من الأفضل لو أن هذا الغريب كان شخصية تافهة منشغلة برياضة غير مؤذية كصيد السمك.

فوافقته قائلاً: أو مراقبة الطيور... نعم، ولكن هذا هو ما كنت أقوله بالضبط.

تابع بوارو: ومن جهة أخرى من الأفضل لو كان القاتل شخصية بارزة، فلنقُل إنه ربما كان الجزّار، وهذا يعطيه ميزة حيث لن تلاحَظ بقع الدم على ثياب الجزّار.

- أنت تحاول أن تكون سخيفاً، فالجميع سيعرف إذا تعارك الجزّار مع الخبّاز.

- ليس إذا كان الجزّار قد أصبح جزاراً فقط لكي تُتاح له الفرصة لقتل الخبّاز. يجب على المرء أن ينظر خطوة إلى الأمام يا صديقي.

نظرتُ إليه بإمعان محاولاً الاستنتاج: هل كانت كلماته تنطوي

على معانٍ مهمة وتعني شيئاً محدَّداً؟ يبدو أنها تشير إلى الكولونيل لاتريل؛ ألم يفتح بيته متعمّداً للضيوف لتُتاح له الفرصة لقتل أحدهم؟

هزّ بوارو رأسه برفق قائلاً: لن تحصل على الجواب من تعبير وجهي.

قلت متنهداً: أنت صديق مثير للغضب يا بوارو! على كل حال فنورتون ليس المتهَم الوحيد من وجهة نظري. ماذا عن ذلك الشخص أليرتون؟

تساءل بوارو ووجهه لا يزال جامداً: إنه لا يعجبك، أليس كذلك؟

- بلى، لا يعجبني.

- آه، إنه ممّن تسمّيهم الجزء القذر مِن البضاعة، أليس هذا صحيحاً؟

- بالتأكيد، ألا تظن هذا؟

- بلى، بالطبع، وهو رجل تنجذب إليه النساء.

وهتفتُ بامتعاض: كم هنّ غبيات هؤلاء النساء! ماذا يرون في شخص مثل هذا؟

- من يستطيع التكهن؟ ولكن الوضع هكذا دائماً، فالرجل السيئ تنجذب إليه النساء دائماً!

- ولكن لماذا؟

هزّ بوارو كتفيه وهو يقول: لعلهن يرين ما لا نراه نحن.

- ولكن ما هو؟

- لعلها المخاطرة، فالجميع يرغبون بالقليل من المخاطرة في حياتهم. البعض يحصل عليها بمشاهدة الآخرين (كما يحصل في مصارعة الثيران)، وبعضهم يقرأ عنها، والبعض يجدها في دور العرض... ولكنني متأكد من أن طبيعة النفس البشرية تكره الأمان الكامل، فالرجال يعثرون على المخاطرة بطرق عديدة، أما النساء فعثورهن على المخاطرة محدَّد غالباً بالعلاقات العاطفية، ولهذا فهنّ يرحّبن برائحة الخطر... أما الشخص الجيد الذي يصلح لأن يكون زوجاً جيّداً وعطوفاً فيبتعدن عنه.

وفكرت في حديثه بحزن وأنا صامت لعدة دقائق، ثم عدت إلى الموضوع السابق فقلت: أتعلم يا بوارو؟ سيكون من السهل عليّ معرفة السيد «س»؛ فكل ما عليّ فعله هو البحث والعثور على الشخص الذي كان على معرفة بجميع الأفراد، أقصد الأشخاص الموجودين في القضايا الخمسة.

قلت ذلك بنبرة انتصار، ولكن بوارو اكتفى بأن رماني بنظرة احتقار وقال: أنا لم أطلب وجودك هنا يا هيستنغز لكي أراك تحذو حذوي بجد وحماقة، ودعني أخبرك بأن الأمر ليس سهلاً كما تعتقد. لقد وقعت أربعٌ من تلك الجرائم في هذا البلد، والناس المجتمعون هنا تحت سقف هذا المنزل ليسوا مجموعة من الغرباء الذين قدموا إلى هنا كلٌّ على حدة، فهذا ليس بالفندق بالمعنى الحرفي للكلمة. عائلة لاتريل من هذه المنطقة، لقد كانوا في وضع

سيّئ واشتروا المكان وبدؤوا العمل فيه كنوع من المغامرة، والناس الذين يأتون إلى هنا هم أصدقاؤهم أو أصدقاء أصدقائهم، فالسير ويليام هو الذي أقنع عائلة فرانكلين بالقدوم إلى هنا، وهم بدورهم طرحوا الأمر على نورتون وكذلك -على ما أظنّ- على الآنسة كول، وهكذا... لذلك فالفرصة متاحة لوجود شخص ما يعرفه أحد الأشخاص ويعرفه الباقون في الوقت نفسه، كما أن المجال مفتوح لصاحبنا المجهول ليكذب في حين تكون الحقائق معروفة للجميع.

ثم نظر نحوي وعقد حاجبَيه وقال: خذ قضية العامل ريغز مثلاً، فالقرية التي حدثت فيها المأساة ليست بعيدة عن منزل عم بويد كارنغتون، وأيضاً أهل السيدة فرانكلين كانوا يسكنون قريباً، أما النزل في القرية فيطرقه العديد من السيّاح باستمرار، كما أن بعض أصدقاء السيدة فرانكلين كانوا ينزلون هناك، فرانكلين نفسه أقام هناك وربما أقام فيه نورتون والآنسة كول. لا، لا يا صديقي؛ أرجوك أن لا تقوم بهذه المحاولات الخرقاء للكشف عن السر الذي أرفض البوح به لك.

قلت: هذا سخيف جداً، فكأنك تظن أنني سأبوح به. دعني أخبرك بأنني سئمت من سخريتك من وجهي المعبّر يا بوارو، هذا الأمر ليس مسلياً.

قال بوارو بهدوء: هل أنت متأكد من أن هذا هو السبب الوحيد؟ ألا ترى -يا صديقي- بأن معرفتك بالأمر قد تعرّضك للخطر؟ ألا ترى بأنني أهتم بسلامتك؟

حدقت إليه بفم مفتوح، فحتّى تلك اللحظة لم يخطر هذا

الأمر ببالي! ولكن كان ذلك صحيحاً بالطبع، فلو علم هذا المجرم الذي استطاع بذكائه ودهائه الإفلات بجرائمه الخمسة وهو يظن أنّ أحداً لا يشك به، لو استيقظ على حقيقة أن أحدهم في أعقابه فهذا سيعرض حياة أولئك الذين في أعقابه للخطر.

قلت بحدّة: ولكن هذا يعني أنك أنت نفسك في خطر يا بوارو؟!

صدرت عن بوارو إيماءة ازدراء قوية حسب ما تسمح له حالته الصحية وقال: أنا معتاد على ذلك وأستطيع حماية نفسي. وكما ترى فإن معي حارساً لحمايتي، صديقي الممتاز والمخلص هيستنغز.

* * *

الفصل السادس

من المفروض أن ينام بوارو مبكراً، ولذلك فقد تركته لينام ونزلت إلى الطابق السفلي. وتوقفت في طريقي لأتحدث مع الخادم كيرتس، وقد وجدته شخصاً بليداً بطيء الفهم ولكنه قدير وأمين. كان قد صحب بوارو منذ عودته من مصر، وقد أخبرني بأن صحة سيده جيدة نوعاً ما ولكنه يتعرض لنوبات قلبية تحذيرية بين الحين والآخر، فقد ضَعُفَ قلبه كثيراً في الأشهر الأخيرة وكانت حالته كحالة محرّك يضعف ببطء.

حسناً، لقد كانت حياته طيبة، ومع ذلك فإنني أحسّ بقلبي ينزف وأنا أرى صديقي القديم يحارب بشجاعة كل خطوة من خطوات الانحدار، وحتى الآن وعلى الرغم من ضعفه وعجزه فإن روحه التي لا تُقهَر لا تزال توجّهه لكي يقود المركب للعمل ببراعة وجِدّ في مجاله الذي برع فيه.

نزلت إلى الطابق السفليّ وأنا حزين جداً، فأنا لا أستطيع تصوّر الحياة دون بوارو! وفي غرفة الجلوس كانت جولة من اللعب قد انتهت فدعوني للمشاركة، وظننت أن هذا سوف ينجح في شَغل

ذهني فوافقت، وكان بويد كارنغتون هو الذي خرج فجلست مع نورتون والكولونيل والسيدة لاتريل.

قالت السيدة لاتريل: ماذا تقول الآن يا سيد نورتون؟ هل نغلب هذَين الاثنين أيضاً؟ لقد أثبتت شراكتنا نجاحها هذه الليلة.

فابتسم نورتون بلطف، لكنه همس قائلاً إن من الواجب إجراء قرعة لتحديد اللاعبين. ووافقت السيدة لاتريل، ولكن أعتقدُ أن طريقتها بالتعبير عن شعورها كانت غير لبقة عندما نتج عن القرعة أن ألعب أنا ونورتون ضد الزوجين لاتريل. وقد لاحظت أن السيدة لاتريل كانت غير راضية عن هذا الوضع وعضّت على شفتيها، وقد اختفت في تلك اللحظة كل فتنتها ولهجتها الأيرلندية. وسرعان ما اكتشفت السبب، فقد لعبت في الأدوار التي تلَت مع الكولونيل لاتريل، وفي الواقع لم يكُن لاعباً سيّئاً، بل يمكن وصفه بأنه لاعب متوسط ولكنه يميل إلى النسيان، ونتيجة لذلك يرتكب بين الحين والآخَر بعض الأخطاء الكبيرة. أما وهو يلعب مع زوجته فقد أخذ يرتكب الخطأ تلو الآخَر دون توقّف، وقد بدا واضحاً أنه يشعر بالتوتر معها و هذا التوتر جعله يلعب بطريقة أسوأ بثلاثة أضعاف من الوضع العادي.

أما السيدة لاتريل فقد كانت لاعبة جيدة في الحقيقة، على الرغم من أن اللعب معها ليس مسلّياً لأنها تقتنص كل فرصة متاحة وتتجاهل القوانين إذا كان الفريق الآخَر يجهلها وتطبقها على الفور إن كان ذلك في مصلحتها، وهي ماهرة جداً في استراق النظر إلى الأوراق الموجودة بين يدي خصمها؛ وبكلمات أخرى فهي تلعب بهدف الفوز.

وقد أدركت الآن ماذا كان يعني بوارو بالنكد، فهي في لعبة الأوراق تفقد سيطرتها على نفسها ويتربص لسانها بكل خطأ يرتكبه زوجها المسكين، وكان الوضع غير مريح بالنسبة لي وللسيد نورتون، ولذلك سررت عندما انتهت الجولة. واعتذر كلانا عن اللعب جولة أخرى لتأخّر الوقت، وما إن ابتعدنا حتى أطلق نورتون لمشاعره العنان دون حذر فقال: ألا ترى معي أن ذلك كان شنيعاً جداً؟ يحزنني أن أرى هذا الرجل العجوز المسكين يعامَل هكذا. انظر كيف يتقبل الأمر بخضوع... يا للفتى المسكين! أين لسان الكولونيل الهندي الحاد؟!

فقلت فجأة: اسكت.

كان صوت نورتون يرتفع بطيش وخشيت أن يسمعه الكولونيل لاتريل، فقال: ولكن هذا فظيع!

وقلت بانفعال: سوف أتفهّم الوضع إذا ما قتلها بالبلطة ذات يوم.

هزّ نورتون رأسه وقال: لن يفعلها. لقد تحجرت روحه، وسوف يتابع: "نعم يا عزيزتي، لا يا عزيزتي، آسف يا عزيزتي..." ويبرم شاربَيه ويتكلم بخنوع حتى يوضَع في الكفن. هذا الرجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، حتى وإن حاول.

هززت رأسي بحزن لأنني أخشى أن نورتون كان على حق. وتوقفت عند القاعة ولاحظت أن الباب الجانبي المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحاً والريح تهب منه إلى الداخل فتساءلت: هل يجب علينا أن نغلقه؟

تردد نورتون لحظة قبل أن يقول: حسناً، لا أظن أن الجميع قد دخلوا بعد.

وراودني شك مفاجئ فسألته: مَن بالخارج؟

- أظنها ابنتك مع أليرتون.

وقد بذل جهداً في جعل صوته غير مبالٍ، ولكنني شعرت بعدم الارتياح. جوديث وأليرتون؟ بالتأكيد لا؛ فجوديث الذكية الهادئة لن تؤخَذ برجل من تلك النوعية. بالطبع فهي تستطيع رؤية ما بداخله.

كررت هذا الكلام لنفسي وأنا أغيّر ملابسي، ولكن ذلك الشعور الغامض من عدم الارتياح لازمني ولم أستطع النوم، واستلقيت وأنا أتقلب من جنب لآخر. وكما هو الحال دائماً في قلق الليل فكل شيء يصبح مبالَغاً فيه، واجتاحني شعور باليأس والحسرة والقلق... ليت زوجتي لا تزال حية! لقد كنت أعتمد على تقديراتها لسنين عديدة، فقد كانت حكيمة دائماً في فهمها وتعاملها مع الأطفال، وقد لازمني شعور بالنقصان في غيابها؛ فمسؤولية سلامتهم وسعادتهم تقع على عاتقي الآن، فهل سأنجح في هذه المهمة؟ أنا (وليساعدني الله) لست بالرجل الذكي، فأنا أضطرب وأرتكب الأخطاء.

أشعلت الضوء وجلست. من غير المستحسن المتابعة هكذا، بل يجب أن أنام. نهضت من فراشي وتوجهت إلى المغسلة ونظرت بشك إلى علبة الأسبرين. لا، بل أنا بحاجة إلى شيء أقوى من الأسبرين. وتذكرت أن لدى بوارو بعض المواد المنوِّمة على الأغلب.

عبرت الممر إلى غرفته وتوقفت متردداً للحظة خارج الباب؛ من المخجل إيقاظ هذا الصديق العجوز! وبينما أنا واقف متردداً سمعت صوت خطوات فتلفّتُّ حولي، لكن إضاءة المكان كانت خافتة فلم أستطع رؤيةَ وجه القادم حتى اقترب منّي. وقد تعجبت من يكون، كان أليرتون يتقدم نحوي عبر الممر، وعندما رأيته تجمدت في مكاني فقد كان الرجل يبتسم لنفسه، وقد كرهت ابتسامته تلك.

نظر نحوي رافعاً حاجبَيه وقال: مرحباً يا هيستنغز، ألا تزال مستيقظاً؟

- لم أستطع النوم.

- أهذا كل ما في الأمر؟ سوف أساعدك، تعالَ معي.

تبعته إلى غرفته التي كانت تقع بجانب غرفتي، ودفعني شعور غريب لدراسة هذا الرجل عن قرب فقلت له: يبدو أنك لا تنام مبكراً أيضاً؟

- لم أكُن يوماً من الذين يذهبون إلى النوم مبكراً، ولا سيما عندما تتوفر أنواع الرياضة في الخارج. يجب عدم تضييع مثل هذه الأمسيات.

قالها وضحك، وكرهتُ ضحكته. تبعته إلى الحمام، وفتح خزانة صغيرة فأخرج منها علبة دواء وقال: إليك هذا، إنه منوّم حقيقي. ستنام نوماً عميقاً وستحلم أحلاماً سعيدة. هذه مادة سلمبريل، إنها مادة رائعة وهذا هو اسمها المرخَّص.

صدمتني نبرة الحماسة النابعة من صوته. هل هو مدمن

مخدرات؟ قلت بشك: ليست ضارة، أليس كذلك؟

- إنها تكون ضارة إذا تناولتَ الكثير منها. هذه المادة من مركّبات الباربتيوريت التي يمكن للجرعة الكبيرة منها أن تكون سامة.

وابتسم بحيث انفرجت زوايا فمه بصورة غير لطيفة، فقلت له: لم أعلم أن الحصول عليها ممكن دون وصفة طبية.

- إنه ليس ممكناً يا عزيزي، لكنني استخدمت بعض علاقاتي.

أظن أن ذلك كان غباءً منّي، ولكنني لا أزال أعاني من الاندفاع أحياناً. سألته: أظن أنك تعرف إثرنغتون، أليس كذلك؟

وأدركت فوراً أنني أصبت نقطة حساسة، فقد أصبحَت عيناه أكثر قسوة وقلقاً، وقال وقد تغيّر صوته الذي أضحى مصطنَعاً: آه، بلى، كنت أعرف إثرنغتون. يا للفتى المسكين!

وتابع قائلاً: لقد تعاطى إثرنغتون المخدّرات بالطبع، ولكنه بالغ في الأمر. على المرء أن يعرف متى يتوقف، ولو لم يعرف فستكون العاقبة وخيمة. لقد كانت زوجته محظوظة، فلو لم يتعاطف معها المحلفون لكانت قد شُنقت.

وناولني حبتَي دواء ثم قال ببرود: هل كنت تعرف إثرنغتون أنت أيضاً؟

أجبته بصدق: لا.

بدا للحظة أنه لا يدري كيف يتابع، ثم أنهى الموضوع

ضاحكاً. لم يكُن رجلاً مضحكاً، ليس بالشخصية المستقيمة، ولكن كانت رفقته حسنة في بعض الأحيان. شكرتُه على الحبوب وعدت إلى غرفتي.

استلقيت مرة أخرى بعد أن أطفأت النور وأنا أفكّر كم كنت غبياً، وأدركت بقوة أن أليرتون هو السيد «س» بالتأكيد، وأنا جعلته يدرك أنني قد شككت في الأمر.

* * *

الفصل السابع

-١-

يجب أن أتنقل بحكايتي عن الأيام التي قضيتها في ستايلز، وعندما أستذكرها فهي تمثّل لي مجموعة من المحادثات والكلمات المثيرة للذكريات والألفاظ الموحية التي طُبعت في ذهني. فأولاً وفي البداية يأتي فهمي لضَعف بوارو وعجزه، فقد آمنت -كما أخبرني- بأن عقله لا يزال يعمل بنفس قوته السابقة، ولكن مظهره الخارجي ضَعُفَ بحيث أدركتُ فوراً أنه من المقدَّر لي أن ألعب دوراً أكثر فاعلية من أيّ وقت مضى، يجب أن أكون عينَي بوارو وأذنَيه.

وكان كيرتس يحمل سيده في الأيام الجميلة وينزل به الدرَج إلى حيث ينتظره كرسيّه المعَدّ سابقاً، ثم يقوده إلى الحديقة حيث يختار له بقعة بعيدة عن مجرى الهواء، أما في الأيام الأخرى وعندما لا يكون الجوّ ملائماً فقد كان يحمله إلى غرفة الجلوس. وأينما يكُن فلا بدّ أن يأتي أحدهم إليه ويحدّثه، ولكن هذا ليس كما لو كان بوارو هو الذي يختار لنفسه رفيقَه، فلم يعد باستطاعته اختيار الشخص الذي يريد التحدث إليه.

في اليوم التالي لوصولي أخذني فرانكلين إلى معمل قديم في الحديقة، وهو معمل أعدّه بطريقة سريعة لأغراض علمية. ودعوني أوضح لكم بأنني لا أمتلك عقلاً علمياً، وفي حديثي لكم عن عمل الدكتور فرانكلين ربما استعملت مصطلحات غير صحيحة قد تثير امتعاض أولئك العالمين بمثل هذه الأمور.

بقدر ما فهمت (كشخص عادي) كان فرانكلين يُجري تجارِبه مستعملاً أشباه القلويات المختلفة المشتقّة من مادة اسمها العامي هو «لوبياء كالابار»، وقد أدركت الأمر بصورة أفضل عقب المحادثة التي جرت في أحد الأيام بين فرانكلين وبوارو. أما جوديث التي حاولَت تعليمي فقد كانت -كما هو الحال دائماً مع هؤلاء الشباب المتحمسين- تستعمل التعبيرات الفنية بصورة فظيعة، وقد أشارت إلى شبه قلويات الإيفنزوستغمين وإسرين الفيزوفين والجينيسرين، ثم أشارت إلى مادة أخرى صعبة اللفظ، بروستغمين أو ملح ديميثل كاربونيك إستر، وغيرها كثير من الأسماء التي بدت متشابهة ولكنها تختلف في طريقة اشتقاقها.

كان كل ذلك غريباً وغيرَ مفهوم بالنسبة لي، وقد أثرتُ ازدراء جوديث عندما سألتها: ما نفع هذا كله للبشرية؟

لا شيء يزعج العالِم الحقيقي أكثر من هذا السؤال، وقد رمقتني جوديث بنظرة ازدراء وعاجلَتني بشرح مفصَّل أوضحت فيه أن بعض القبائل النائية في غرب أفريقيا أظهروا مناعة ضدّ مرض ناءٍ مميت يُدعى -على ما أذكر- جوردانايتس، نسبةً إلى الطبيب المتحمّس الذي اكتشفه واسمه الدكتور جوردان. كان مرضاً استوائياً

شديد الندرة، وقد التقطه السكان البيض في مناسبة أو اثنتين فأدّى إلى وفاتهم.

وخاطرتُ باحتمال إثارة غضب جوديث عندما قلت إنه سيكون من الأفضل العثور على دواء يقضي على التأثيرات الجانبية لمرض الحصبة، فأوضحت لي جوديث بشفقة وازدراء أن الهدف الوحيد الجدير بالبلوغ هو ليس تحسين الجنس البشري ولكن توسيع معرفة البشر.

ونظرتُ إلى بعض الشرائح من خلال المجهر ودرستُ بعض الصور لسكان غرب أفريقيا الأصليين، وبالفعل كان الأمر مسلّياً. وشاهدتُ فأراً مخدَّراً في القفص، ومن ثَمّ أسرعت بالخروج طلباً للهواء.

وكما قلت قبل قليل فإن أيّ اهتمام كنت أشعر به قد ازداد بعد المحادثة التي جرت بين فرانكلين وبوارو، فقد قال فرانكلين: أتدري يا بوارو؟ هذه الأمور من اختصاصك أنت أكثر منّي، فهذه المادة (لوبياء كالابار) كانت هي التي تثبت البراءة أو الذنب، وكانت قبائل غرب أفريقيا تؤمن بها بشكل مطلَق (ولكنهم تغيروا الآن إذ أصبحوا أكثر علماً)، فكانوا يمضغونها وهم واثقون من أنها ستقتلهم إذا كانوا مذنبين ولن تؤذيهم إذا كانوا أبرياء.

- واحسرتاه! وهكذا يموتون؟

- لا يموتون جميعاً... هذا ما تمّ تجاهله دائماً حتى الآن. يوجد نوعان من هذه المادة وهما يبدوان متشابهَين بحيث لا يمكنك

ملاحظة الفرق، ولكنْ يوجد فرق؛ فكلاهما يحتوي على الفايزوستغمين والجينسرين وبقية المواد، ولكن في الصنف الثاني يمكنك (أو أظن أنه بإمكاني أنا) فصل مادة أخرى شبه قلوية يُبطِل مفعولُها مفعولَ المواد الباقية. أضف إلى ذلك أن الصنف الثاني يتناوله عادة المقرَّبون في طقوس دينية سرّية، والذين يتناولونها لا يُصابون بداء جوردنايتس أبداً.

ثم التقط أنفاسه وعاد يكمل: وللمادة الثانية تأثير فعّال على الجهاز العضلي دون أيّ تأثيرات تخديرية. هذا مهمّ ومثير جدّاً، ولكن لسوء الحظ فالمحلول شبه القلوي النقي غير ثابت، وعلى الرغم من ذلك فأنا أحصل على نتائج. ولكن المطلوب هو المزيد من البحث هناك في تلك البقعة، هذا عمل يجب إنهاؤه، أجل، أنا أضحّي بروحي...

وتوقف فجأة وقطب جبينه عابساً ثم قال: اعذرني؛ أنا أنفعلُ جداً بشأن تلك الأمور.

فقال بوارو بهدوء: كان سيسهّل عملي لو استطعت اختبار الذنب والبراءة بهذه السهولة. آه، لو أن هناك مادة بديلة يمكنها فعل ما يقال إن لوبياء كالابار تستطيع فعله!

قال فرانكلين: ولكن مشكلاتك لن تنتهي عند ذلك الحد، ففي الواقع ما الذنب وما البراءة؟

علّقتُ قائلاً: لا أظن أن الشك في هذا الأمر وارد.

التفت نحوي قائلاً: ما الشر؟ ما الخير؟ تختلف الآراء حولهما

من قرن لآخَر، وما تختبره قد يكون الحس بالذنب أو الحس بالبراءة. في الحقيقة هذا الاختبار لا قيمة له أبداً.

- لا أرى كيف وصلتَ إلى هذه النتيجة.

- صديقي العزيز، افترض أن رجلاً يظن أنه يمتلك حقاً إلهياً لكي يقتل طاغية أو مجرماً أو أيَّ شخص يثير حفيظته الأخلاقية، فهو يرتكب ما تعتبره أنت بعَمْله مذنباً، ولكنه هو يعتبره عملاً بريئاً. ماذا ستفعل حبوبك المسكينة عندها؟

- بالتأكيد لا بد أن شعوراً بالذنب يرافق المجرم دائماً.

قال الدكتور فرانكلين بمرح: يوجد العديد من الناس الذين أتمنى قتلهم، ولا تظن بأن ضميري سيبقيني مستيقظاً بعد قتلهم، فإحدى أفكاري -كما تعلم- أنه يجب التخلص من ثمانين في المئة من أفراد الجنس البشري! سوف نتدبر الحياة بشكل أفضل دونهم.

ثم نهض ومشى بعيداً وهو يصفر لنفسه بمرح، فنظرتُ إليه بشك، ثم أعادتني إلى الواقع ضحكةٌ خافتة صدرت عن بوارو الذي قال: تبدو كمن رأى جحراً للأفاعي يا صديقي. دعنا نأمل بأن صديقنا العالِم لن يمارس ما يدعو إليه.

فقلت: نعم، ولكن ماذا لو أنه فعل؟

-٢-

بعد تردد قصير قررت أنه يجب عليّ أن أُطلع جوديث على أمر أليرتون، فقد شعرت بأنه يجب عليّ أن أعرف كيف سيكون

ردّ فعلها. لقد كانت -كما أعلم- فتاة عاقلة قادرة على الاعتناء بنفسها، ولم أظن بأنها ستقع ضحية انجذاب رخيص نحو شخص مثل أليرتون.

وفي الحقيقة أظن أنني حدثتها بالأمر لأنني كنت بحاجة لأن تؤكّد هي لي هذه النقطة، ولكنني لم أحصل على ما تمنّيت لسوء الحظ. ويمكنني القول إنني قد بدأت بداية خرقاء، إذ لا يكره هؤلاء الشبّان شيئاً أكثر من النصيحة التي يقدّمها لهم الكبار. حاولتُ أن تبدو كلماتي لامبالية ولطيفة ولكن يبدو أنني فشلت، فقد انتصبت جوديث بخشونة وقالت: ما هذا؟ أهو تحذير أبويّ من ذئب شرس كبير؟

- لا، لا يا جوديث، بالطبع لا.

- هل أفهم من هذا أنك لا تستلطف الميجور أليرتون؟

- في الحقيقة نعم، وأظن أنك لا تحبينه في الحقيقة.

- ولِمَ لا؟

- هو ليس من النوعية التي تحبينها.

- وما هي النوعية التي أحبها في رأيك؟

بإمكان جوديث إثارة غضبي دائماً. لقد فشلتُ فشلاً ذريعاً، فقد أخذَت تنظر إليّ وقد تقوّس فمها في شكل ابتسامة استهزائية، ثم قالت: أنت لا تستلطفه بالطبع، ولكنني أستلطفه. إنه شخص مسلٍّ في نظري.

- مسلٍّ؟ لعله كذلك.

حاولت الموافقة على ذلك، ولكن جوديث قالت متعمّدة: كما أنه جذّاب جداً، أي امرأة أخرى تظن ذلك لكن الرجال لا يرونه بالطبع.

وتابعتُ بغباء: بالطبع هم لا يرون ذلك. لقد خرجتِ معه الليلة الماضية حتى ساعة متأخرة.

ولم تسمح لي بالمتابعة، بل انفجرت كالعاصفة وقالت: حقاً أنت تتصرف بحماقة يا أبي! ألا تدرك أنني أستطيع تدبر شؤوني بنفسي وقد بلغت هذه السن؟ ليس لك الحق بالتحكم فيما أفعل... إن أكثر ما يغيظ في الآباء والأمهات هو تدخلهم غير المنطقيّ في حياة أبنائهم. أنا أحبك كثيراً ولكنني امرأة بالغة الآن وحياتي ملكي أنا فقط، فلا تحاول أن تجعل نفسك السيد باريت.

تألمت كثيراً من هذه الملاحظة القاسية جداً والتي لم أكُن قادراً على الردّ عليها، وانصرفَت جوديث بسرعة وتركَتني يراودني شعور مريع بأن ما فعلته قد سبّب الضرر أكثر من النفع. وكنت واقفاً مستغرقاً في تأملاتي عندما أيقظني صوت ممرّضة السيدة فرانكلين وهي تهتف بخبث: أوافقك على أفكارك يا كابتن هيستنغز.

التفتّ بسرور مرحّباً بهذه المقاطعة. كانت الممرّضة كارفن فتاة جميلة، وربما كانت تصرفاتها تميل إلى المكر والخبث لكنها كانت لطيفة وذكية. وكانت قد انتهت من وضع مريضتها في بقعة مشمسة لا تبعد كثيراً عن المختبَر، فتساءلتُ: هل السيدة فرانكلين مهتمة بعمل زوجها؟

رفعت الممرّضة كارفن رأسها بازدراء وقالت: هذه الأمور فنية

بالنسبة لها، وهي ليست بالمرأة الذكية كما تعلم يا كابتن هيستنغز.

- نعم، لا أظن ذلك.

- لا يُقدّر عملَ الدكتور فرانكلين إلا شخص يعلم بعض الشيء عن الطب والأدوية، فهو رجل ذكي جداً في الحقيقة، بل هو عبقري. يا للرجل المسكين! إني لأشعر نحوه بالأسف.

- تشعرين نحوه بالأسف؟

- نعم؛ لقد رأيت هذا يحدث أكثر من مرة، أعني الزواج بالمرأة الخطأ.

- هل تظنين أنها لا تناسبه؟

- حسناً، ألا تظن أنت ذلك؟ ليس بينهما أيّ شيء مشترَك.

- يبدو أنه يحبها، فهو يلبّي جميع طلباتها مثلاً.

ضحكت الممرّضة كارفن بطريقة كريهة وقالت: تأكّد من أنها تدرك ذلك جيداً.

تساءلتُ بشك: هل تظنين أنها تستغل ذلك أو تستغل مرضها؟

ضحكت كارفن وقالت: لن تجد ما تستطيع تعليمها إياه في طرق الحصول على ما تريد، فما تريده فخامتها هو الذي يحصل. بعض النساء من هذا الصنف؛ ذكيات كالقرود، إذا عارضهن أحد فكل ما يفعلنه هو الاستلقاء وإغلاق أعينهن والتظاهر بالمرض، وبعضهن يتعرضن لنوبة عصبية. أما السيدة فرانكلين فهي من النوعية

التي تحاول استثارة الشفقة، فهي لا تنام طول الليل فتبدو شاحبة متعَبة في النهار.

تساءلتُ بدهشة: ولكنها مريضة حقاً، أليس كذلك؟

رمتني الممرّضة كارفن بنظرة غريبة ثم قالت بجفاء: بالطبع.

ثم غيرَت الموضوع بسرعة وسألَتني إن كان صحيحاً أنني جئت في الماضي إلى هذا البيت إبان الحرب الأولى، فأجبت: نعم، هذا صحيح.

ثم خفضَت صوتها وهي تقول: لقد وقعَت جريمة هنا، أليس كذلك؟ هذا ما أخبرَتني به إحدى الخادمات. هل كانت سيدة عجوزاً؟

- نعم.

- وهل كنتَ موجوداً في ذلك الوقت؟

- نعم، كنت موجوداً.

ارتعشَت قليلاً وقالت: هذا يوضح الأمر، أليس كذلك؟

- يوضح ماذا؟

رمتني بنظرة جانبية وأجابت: الجو المحيط بالمكان، ألا تشعر به؟ أنا أشعر بوجود شيء غير صحيح... إذا كنت تدرك ما أعني.

صمتُّ مفكّراً لحظة. هل ما قالَته صحيح؟ هل حقيقةً أن الموت بهذه الطريقة القاسية المتعمَّدة إذا وقع في بقعة معيَّنة يترك فيها أثراً يمكن إدراكه بعد سنوات عديدة؟ هكذا يقول الوسطاء الروحيّون. هل

يحمل «ستايلز» آثار ذلك الحادث الذي حدث منذ وقت بعيد؟ هنا بين هذه الجدران وفي تلك الحدائق انبعثت فكرة جريمة ونمت إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير، فهل لا تزال تلوّث الهواء؟

قطعت كارفن حبلَ أفكاري فجأة بقولها: لقد كنت أعيش في منزل حدثت فيه جريمة قتل، ولم أنسَها قط... أمرٌ كهذا لا يُنسى أبداً كما تعلم. كان أحدَ مرضاي وكان يجب عليّ أن أشهد في المحكمة. كانت تجرِبة سيّئة بالنسبة لفتاة.

- لا بد أنها كانت كذلك، أعرف ذلك الشعور شخصياً.

وقطعتُ حديثي وأنا أرى بويد كارنغتون يمشي مسرعاً حول زاوية المنزل، وكالمعتاد فشخصيته القوية المرحة نجحت في إبعاد القلق والكآبة غير المحسوسَين. كان ضخماً جداً متزناً يحب الهواء الطلق، واحداً من تلك الشخصيات المحبَّبة التي تفرض نفسها والتي تجمع ما بين المرح والتعقّل.

قال بمرح: صباح الخير يا هيستنغز، صباح الخير أيتها الممرّضة. أين السيدة فرانكلين؟

- صباح الخير يا سير ويليام. السيدة فرانكلين في نهاية الحديقة تحت شجرة الدرّاق قرب المختبَر.

- أظن أن فرانكلين في المختبَر؟

- نعم يا سير ويليام، مع الآنسة هيستنغز.

- يا للفتاة المسكينة! تصور نفسك وأنت مقيَّد مضطر لممارسة

عمل بغيض في مثل هذا الصباح. يجب عليك الاحتجاج يا هيستنغز.

قالت الممرّضة كارفن بسرعة: ولكن الآنسة هيستنغز سعيدة، فهي تستمتع بذلك كما تعلم، وأنا واثقة من أن الدكتور لا يستطيع التصرف دونها.

- يا للفتى التعِس! لو كانت لديّ سكرتيرة جميلة مثل ابنتك جوديث لكنت نظرت إليها بدل النظر إلى حيوانات التجارِب، ما قولك؟

كانت تلك من نوعية النكات التي كانت جوديث ستكرهها، ولكن الممرّضة كارفن تقبّلتها جيداً فضحكت منها ثم قالت: آه يا سير ويليام! يجب عليك عدم التفوّه بمثل هذا الحديث. أنا واثقة من أن الجميع يعلم ما كنت ستفعله، ولكن الدكتور فرانكلين المسكين رجل جادّ ومنهمك جداً في عمله.

قال بويد كارنغتون بمرح: حسناً، يبدو أن زوجته قد اتخذَت موقعاً يمكّنها من مراقبة زوجها. أظن بأنها غيورة.

- أنت تعلم الكثير يا سير ويليام.

ويبدو أن الممرّضة كارفن كانت مسرورة بهذا المزاح، فقالت بتردد: حسناً، أظن أنه يجب عليّ أن أتفقد حليب السيدة فرانكلين.

وانصرفت ببطء، ووقف بويد كارنغتون وهو يتبعها بنظراته ويقول: فتاة حسنة المظهر، لكن لا بد أن حياتها بالمجمَل مملة من حيث الاعتناء بالمرضى دائماً. فتاة مثلها تستحق حياة أفضل.

- آه، حسناً، أظنها ستتزوج يوماً ما.

- أظن ذلك.

وتنهد وقد بدا لي أنه يفكر في زوجته المتوفّاة، ثم قال: هل تريد أن تأتي معي إلى «ناتون» لترى المكان؟

- نعم، أودّ ذلك. سوف أرى أولاً إذا كان بوارو بحاجة لي.

عثرت على بوارو جالساً على الشرفة وقد أحكم الغطاء حول نفسه، وقد شجّعني على الذهاب إلى ناتون قائلاً: نعم، بالتأكيد. اذهب يا هيستنغز، فهو قصر جميل ويجب عليك مشاهدته.

- أودّ ذلك، ولكن لا أريد أن أتركك وحيداً.

- لا يا صديقي المخلص، اذهب مع السير ويليام فهو رجل لطيف، أليس كذلك؟

فقلت بحرارة: من الدرجة الأولى.

ابتسم بوارو وقال: أجل، كنت أظن أنكما من النوعية ذاتها.

-٣-

استمتعت برحلتنا القصيرة تماماً، ليس فقط لأن الجو كان جميلاً، يوماً صيفياً جميلاً حقاً، ولكنني استمتعت أيضاً برفقة الرجل. يمتلك بويد كارنغتون جاذبية شخصية بحيث جعلَته تجارِبه الواسعة في الحياة والأماكن التي زارها الرفيق الأمثل. وقد أخبرني بقصص من أيام خدمته الحكومية في الهند وروى بعض الحقائق

المسلية عن بعض المعتقدات القبلية في شرق أفريقيا، وقد كان ذلك كلّه مسلّياً بحيث انطلقت ونسيت قلقي على جوديث والهموم العميقة التي سبّبَتها لي أحاديث بوارو.

وأُعجبتُ أيضاً بالطريقة التي تحدّث بها بويد كارنغتون عن صديقي؛ كان يُكنّ له الاحترام لعمله وشخصيته معاً، وعلى الرغم من تدهور صحة بوارو لم يتفوّه بويد كارنغتون بأي كلمات سطحية، فيبدو أنه يظن بأن الحياة التي قضاها بوارو هي في حد ذاتها مكافأة سخية وأن صديقي سيجد الرضا والاحترام عبْر ذكرياته. وقال: أراهن أن عقله لا يزال قوياً كما كان في السابق.

فأكّدتُ بلهفة قائلاً: نعم، هو كذلك بالفعل.

- خطأ كبير أن يظن أحدنا أن مجرّد كون المرء مقيَّداً بسبب أرجله يؤثر على سلامة عقله. ليس هذا صحيحاً أبداً؛ الشيخوخة لا تؤثّر على العقل بقدر ما نتصور. لا أظن أن بإمكاني الشروع في ارتكاب جريمة قتل تحت أنف بوارو وعلى مرأى منه، حتى في مثل هذا الوقت من النهار.

وابتسمتُ وقلت: سوف يقبض عليك إن أنت فعلتها.

قال: "أراهن على أنه يستطيع ذلك". ثم أضاف بحزن: لا يعني ذلك أنني أستطيع ارتكاب جريمة بأي حال؛ فأنا لا أستطيع تخطيط الأمور كما تعلم. إنني نافد الصبر، وإذا ما ارتكبتُ جريمة فسيكون ذلك بتأثير تلك اللحظة.

- هذا النوع من الجرائم من أصعب أنواع الجرائم اكتشافاً.

- لا أظن ذلك؛ فعلى الأرجح سأترك خلفي العديد من الأدلّة في جميع الاتجاهات، ومن حسن حظي أنني لا أملك عقلية إجرامية. أتخيل أن الشخص الوحيد الذي يمكنني قتله هو الشخص المبتَزّ. يمكنك اعتبار قولي هذا فظيعاً إن شئت، ولكنني اعتقدت دائماً أن المبتزّ يستحق القتل. ما رأيك؟

اعترفت بتعاطفي مع وجه نظره، ثم انتقلنا إلى تفحّص العمل الذي تم في المنزل، وتقدّم لملاقاتنا مهندس معماري شاب.

كان قصر «ناتون» كما كان أيام العهد التيودوري؛ فباستثناء جناحٍ أُضيف حديثاً لم يتم تحديث القصر أو تغييره منذ تمّ تركيب حمّامَين بدائيَّين في نحو أربعينيات القرن السابع عشر. وقد أوضح لي بويد كارنغتون أن عمه كان ناسكاً إلى حد ما، يكره الناس ويعيش في جزء من المنزل الواسع. وقد كان بويد كارنغتون وأخوه يُمضون إجازاتهم هنا عندما كانوا تلاميذ قبل أن ينعزل السير إيفرارد عن العالَم. ولم يتزوج الرجل العجوز وكان ينفق عُشر دخله الكبير، لذلك فحتى بعد دفع نفقات الدفن والوفاة وجد البارون الحاليّ نفسه وقد أصبح رجلاً غنياً.

تنهد الرجل وقال: لكنني رجل وحيد.

قالها وصمت، وكان تعاطفي شديداً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. لقد كنت رجلاً وحيداً أيضاً، فمنذ وفاة زوجتي وأنا أشعر بأنني نصف إنسان. وفي تلك اللحظة عبّرت قليلاً وبتردد عمّا أشعر به فقال: آه يا هيستنغز، لكنك تملك شيئاً لا أملكه.

وتوقف للحظة، وفجأة بدأ يروي ملخَّص مأساته، قصة عن

زوجة شابة جميلة خَلوقة محبَّبة، ولكنها ذات تراث ملوَّث حيث مات معظم أفراد عائلتها بسبب الإفراط في الشراب. وقد سقطت هي نفسها فريسة لهذه اللعنة، وبعد مرور سنة على زواجهما ماتت بسبب الكحول. ولم يلُمها، فقد أدرك أن الوراثة كانت قوية جداً بالنسبة لها. وبعد وفاتها استقرّ وبدأ حياة وحيدة وقرر -بناءً على تجربته السابقة- أن لا يتزوج مرة أخرى. قال ببساطة: المرء يشعر بالأمان وهو وحيد.

- نعم، أفهم شعورك هذا.

- كان الأمر مأساة، لقد جعلَتني أهرم مبكراً وأشعر بالمرارة.

ثم توقف قليلاً وعاد يقول: صحيح أنني كنت على وشك الزواج في إحدى المرات، ولكنها كانت صغيرة جداً وشعرت بأنه ليس من العدل أن أقيّدها إلى رجل واقعي. لقد كنتُ كبيراً جداً بالنسبة لها، كانت طفلة جميلة بريئة.

وتوقف وهو يهز رأسه فقلت له: كان أحرى بك أن تترك الأمر لها لتقرر.

- لا أعلم يا هيستنغز. لقد ظننت العكس، بدا وكأنها تستلطفني ولكنها كانت صغيرة جداً كما قلت. سوف أتذكّرها دائماً كما رأيتها في اليوم الأخير من تلك الإجازة، كان رأسها مائلاً قليلاً، ثم تلك النظرة الساحرة واليدين الصغيرتين...

شكّلت كلماته في ذهني صورة بدت مألوفة بالرغم من أنني لم أستطع معرفة السبب، ثم قطع حبلَ أفكاري صوتُ بويد

كارنغتون الخشن المفاجئ وهو يقول: لقد كنت غبياً! أيّ رجل يدع مثل هذه الفرصة تفلت من يده سيكون رجلاً غبياً. على كل حال ها أنذا؛ لديّ مزرعة كبيرة ومنزل كبير جداً بالنسبة لي بلا زوجة تؤنس وحشتي.

فُتنتُ بطريقته القديمة في تصوير الأشياء. لقد استحضرت إلى ذهني صورة حُسن العالم القديم وسهولته فقلت: أين تلك السيدة الآن؟

- آه، لقد تزوجت وأُغلق الموضوع. الحقيقة أنني قد أعددت نفسي لعزوبية دائمة يا هيستنغز. لديّ طرقي الصغيرة. تعال وانظر إلى الحدائق، لقد أُهملَت بشكل فظيع ولكنها لا تزال جيدة نوعاً ما.

وتجولنا حول المنزل فتأثّرت بما رأيت؛ فقد كان «ناتون» قصراً ممتازاً بلا شك، ولا بد أن بويد كارنغتون كان فخوراً به. كان يعرف أهل الجوار والجيران جيداً وبعضَ الناس القريبين من المكان، بالرغم من بعض القادمين الجدد منذ قدومه.

عرف الكولونيل لاتريل منذ زمن، وقد عبّر عن أمله في أن تنجح مغامرة «ستايلز». قال: المسكين توبي لاتريل ليس بالشخص الغني كما تعلم. إنه شخص لطيف وجندي جيّد، كما أنه رامٍ ماهر. لقد ذهبت معه في إحدى المرات في رحلة قنص في أفريقيا... تلك هي الأيام! كان آنذاك متزوجاً بالطبع، لكن زوجته لم تأتِ معنا لحسن الحظ. كانت امرأة جميلة ولكنها كانت سريعة الغضب. من المضحك تصور القَدْر الذي يتحمله الرجل من المرأة! توبي لاتريل الذي كان مرؤوسوه يرتعشون منه من رؤوسهم حتى أسفل أقدامهم

وكان ضابطاً صارماً وقاسياً تسيطر عليه زوجته فيخضع لها كما كان يخضع له مرؤوسوه! لا شك أن تلك المرأة تمتلك لساناً حاداً، ولكنها تمتلك العقل أيضاً، وإذا كان بإمكان أيّ شخص إنجاح هذا المكان فهو هي. لم يمتلك لاتريل العقل التجاري أما السيدة لاتريل فتستطيع سلخ جدّتها وهي حية.

قلت: إنها مندمجة في هذا الأمر.

قال بويد كارنغتون بشيء من الحيرة: هذا صحيح، وهي تبدو في غاية اللطف، ولكن هل لعبت الورق معهم؟

- نعم.

- في الواقع أنا أتجنب السيدات اللائي يلعبن البريدج، وإذا أردتَ نصيحتي فافعل ذلك أيضاً.

أخبرته عن شعوري أنا ونورتون بعدم الارتياح في الليلة الأولى لوصولي فقال: بالضبط، لا يعرف المرء أين يذهب بنظراته.

ثم أضاف: نورتون فتى لطيف على الرغم من أنه هادئ، وهو دائم البحث عن الطيور لكنه أخبرني بأنه لا يهتم باصطيادها. غريب أنه لا يهتم بالرياضة. لقد أخبرته أنه يفتقد الكثير، فلست أرى ما هي المتعة في التجول في الغابات الباردة ومراقبة الطيور بالمنظار!

ولم ندرك أن هواية نورتون تلك سوف تلعب دوراً مهماً في الأحداث القادمة.

* * *

الفصل الثامن

-١-

مرّت الأيام، وكان وقتاً عصيباً يسوده شعور قلق بترقب حدوث أمر ما. ولم يحدث حقيقة أيّ شيء (إذا صحّ لي أن أضع الأمور بهذا الشكل)، لكن وقعت بعض الحوادث: بعض المحادثات القريبة، معلومات عرَضية عن نزلاء ستايلز المختلفين، ملاحظات وشروح تراكمت جميعها، وهي إن جُمعت بصورة صحيحة فسوف تفيد كثيراً في إنارة طريقي.

كان بوارو (وقد استعمل بعض الكلمات القوية) هو الذي أراني شيئاً كنت قد غفلت عنه بشكل لا يُغتفَر. تذمّرت مراراً من رفضه المتعمَّد منحي ثقتَه وأخبرته أن ذلك ليس عدلاً. لقد كانت معلوماتنا دائماً متساوية، بالرغم من أنني كنت أحمق وكان هو ذكياً في التوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة من تلك المعلومات.

لوّح بيده وقد نفد صبره وقال: نعم يا صديقي، هذا ليس عدلاً، ولكن هذه ليست رياضة ولا لعبة. أعترف بذلك، ليست

لعبة ولا رياضة. إنك تشغل نفسك بحماسة محاولاً معرفة هوية رجلنا الغامض، وأنا لم أطلب منك الحضور لهذا السبب. ليس من الضروري أن تشغل أنت نفسك بهذا فأنا أعرف جواب هذا السؤال، لكن الذي لا أعرفه والذي يجب أن أعرفه هو الضحية الجديدة. المسألة ليست اشتراكك في لعبة التخمين أيها العجوز، بل محاولة منع موت إنسان.

دُهشت وقلت ببطء: بالطبع، أنا... حسناً، أنا أعلم أنك قد قلت ذلك من قبل، ولكنني لم أكُن قد أدركته.

- إذن هل أدركته الآن؟

- نعم، نعم. سأفعل... أعني: لقد أدركت الأمر.

- حسناً، أخبرني إذن يا هيستنغز: مَن الذي سوف يموت؟

حدقت إليه بدهشة وقلت: ليست لدي أدنى فكرة.

- يجب أن تكون لديك فكرة، فلماذا أنت هنا إذن؟

قلت وأنا أرجّح تأملاتي في هذا الموضوع: بالتأكيد يجب أن توجد علاقة بين الضحية والسيد «س»، فإذا أخبرتني مَن هو السيد «س» هذا...

هزّ بوارو رأسه بشدة بحيث كان من المؤلم مشاهدته ثم قال: ألم أخبرك بأن هذا هو أساس أسلوبه؟ لن تجد ما يربط «س» بالقتل، هذا مؤكد.

- هل تعني أن العلاقة ستكون خافية؟

- ستكون مخفيّة بحيث لن نعثر عليها.

- ولكن بالتأكيد بعد دراسة ماضي «س» يمكن أن...

- قلت لك لا ، بالتأكيد، ليس هذه المرة. ألا تدرك أن جريمة ستحدث في أية لحظة؟ هل تفهم؟

- لشخص في هذا المنزل؟

- نعم، لشخص في هذا المنزل.

- وأنت فعلاً لا تدري مَن أو كيف؟

- آه، لو كنت أعلم لما كنت أحثّك الآن على أن تكشف ذلك لي.

- أتعني أنك تبني افتراضك هذا على وجود «س» فقط؟

بدوت متشككاً قليلاً فصرخ بوارو في وجهي. لقد خفّت قدرته على ضبط نفسه مع عدم قدرته على تحريك أعضائه بحكم الظروف، فصرخ في وجهي قائلاً: آه، يا إلهي! كم مرة يجب أن أكرر هذا؟ إذا وصل عدد من المراسلين الحربيين فجأة إلى بقعة معيَّنة في أوروبا فماذا يعني هذا؟ إنه يعني الحرب. وإذا قَدِمَ الأطباء من كل أنحاء العالم إلى مدينة ما فماذا يظهر من ذلك؟ يظهر منه أنه سيعقد فيها مؤتمر طبي. وعندما ترى نسراً يحوم سوف تكون هناك جيفة، وإذا رأيت صيادين يسيرون في المستنقَع فهذا يعني أن هناك عملية صيد، وإذا رأيت رجلاً يتوقف فجأة ويخلع معطفه ويقفز إلى البحر فهذا يعني أن هناك عملية إنقاذ من الغرق، وأخيراً إذا شممت رائحة شهية وشاهدت عدداً من الأشخاص يمشون في

الممر وفي الاتجاه نفسه فبإمكانك الافتراض بأن وجبة طعام على وشك أن تُقدَّم.

فكرتُ في هذا التشبيه لأكثر من دقيقة، ثم قلت بشأن النقطة الأولى: مراسل حربي واحد لا يصنع حرباً.

- بالطبع، وظهور طائر سنونو واحد لا يصنع صيفاً، ولكن مجرماً واحداً يؤدّي إلى جريمة يا هيستنغز.

هذا أمر لا يمكن إنكاره بالطبع، ولكن خطر ببالي (ويبدو أنه لم يخطر ببال بوارو) أن للقاتل أوقاتاً يرتاح فيها؛ فربما كان السيد «س» موجوداً في ستايلز للاستجمام فقط دون أي نوايا مميتة. لكن بوارو كان غاضباً جداً بحيث لم أجرؤ على تقديم هذا الاقتراح، وقلت فقط إن الوضع كله يبدو لي ميؤوساً منه وإنه يجب علينا الانتظار.

أكمل بوارو: أترى؟ مثل السيد إسكيت في الحرب الأخيرة. هذا هو ما يجب علينا تجنّبه يا عزيزي، وأرجو أن تنتبه: أنا لا أقول إننا سننجح حتماً، وقد أخبرتك سابقاً أنه عندما يصمم القاتل على القتل فليس من السهل إيقافه، ولكن يمكننا المحاولة على الأقل. فكّر لنفسك يا هيستنغز: أمامك مشكلة في لعبة البريدج ويمكنك رؤية جميع الأوراق، والمطلوب منك أن تتنبأ بنتيجة اللعبة.

هزت رأسي بقوة وقلت: لن ينفع هذا يا بوارو، ليست لديّ أية فكرة. فقط لو عرفت مَن هو السيد «س»!

فصرخ بوارو مرة أخرى بصوت مرتفع جعل كيرتس يأتي

مسرعاً من الغرفة المجاورة وهو يبدو فَزِعاً، فأشار إليه بوارو بالانصراف، وعندما انصرف خارجاً تحدّث صديقي بطريقة أكثر انضباطاً فقال: هيا يا هيستنغز، أنت لست غبياً كما تحاول أن تتظاهر. لقد درستَ تلك القضايا التي أعطيتُك إياها لتقرأها، ربما لم تعرف الرجل لكنك تعرف أساليبه في ارتكاب الجرائم.

قلت: نعم، لقد فهمت.

- تعلم طبعاً أن مشكلتك تكمن في أنك كسول عقلياً؛ أنت تحب لعب الألعاب والتخمين ولا تحب استعمال عقلك. ما هو العنصر الأساسي في تخطيط الرجل؟ العنصر الأساسي هو أن الجريمة تكون جريمة كاملة عند ارتكابها، أي أن الدافع للجريمة والفرصة والوسيلة تتوفر كلها، وأخيراً (وهو الأهم) الشخص المذنب الذي يجب سحقه!

وعلى الفور أدركت النقطة الأساسية وأدركت كم كنت غبياً لأنني لم أرَها سابقاً، فقلت: آه، يجب البحث عن شخص تتوفر فيه جميع هذه المتطلبات، الضحية المحتمَلة.

اتكأ بوارو إلى الخلف متنهداً وقال: أخيراً! أنا متعَب؛ أرسل لي كيرتس. أنت تفهم عملك الآن، وأنت نَشِط ويمكنك التنقل وملاحقة الناس والتحدث إليهم والتجسس عليهم دون أن يلاحظوا.

كدتُ أن أحتجّ بسخط ولكنني هدأتُ، فقد كانت مناقشة عقيمة، وقال بوارو: يمكنك الاستماع إلى المحادثات بأن تنحني وتركع وتنظر من خلال ثقب الباب.

فقاطعته بحدة: لن أنظر من خلال ثقب الباب.

فأغمض بوارو عينيه وقال: حسناً، أنت لن تنظر من ثقب الباب. سوف تظل ذلك الرجل الإنكليزي المهذَّب، وسيُقتل أحدهم... هذا لا يهم فالشرف يأتي أولاً بالنسبة للرجل الإنكليزي. شرفك أهم من حياة أحدهم. حسناً، لقد فهمت.

- لا، ولكن... تباً يا بوارو!

قال بوارو ببرود: انصرف وابعث لي كيرتس. أنت عنيد وغبي جداً، وكم أتمنى لو أجد شخصاً آخَر يمكنني أن أثق به، ولكن يبدو أنني مضطر لاحتمالك أنت وأفكارك السخيفة في اللعب النظيف. وبما أنك لا تستطيع استعمال خلاياك الرمادية، ملَكات عقلك، ومن الواضح أنك لا تمتلكها، فعلى الأقل استعمل عينيك وأذنيك (وأنفك عند الضرورة) بما يمليه عليك شرفك.

-٢-

كان ذلك في اليوم التالي عندما تجرّأت على التطرق إلى فكرة خطرت ببالي أكثر من مرة، وقد قلتها بتردد، فلا أحد يعرف كيف يمكن لبوارو أن يتصرف. قلت: لقد كنت أفكر يا بوارو، أنا أعلم أنني لست بذلك الرجل، أنت قلت إنني غبي... حسناً، هذا صحيح نوعاً ما وأنا فعلاً نصف الرجل الذي كنتُه سابقاً، فمنذ موت سندريلا...

توقفت فأصدر بوارو صوتاً أحسبه تعبيراً عن تعاطفه، ثم

تابعت: ولكن يوجد رجل يمكنه مساعدتنا وهو الرجل الذي نحتاج إليه بالضبط؛ يمتلك العقل والخيال والحيلة والدهاء. إنه معتاد على اتخاذ القرارات وهو رجل ذو خبرة واسعة. أنا أتكلم عن بويد كارنغتون، هو الرجل الذي نريد يا بوارو، فلماذا لا تثق به وتضع الأمر كله أمامه؟

فتح بوارو عينيه وقال بصوت حازم شديد: بالطبع لا.

- لِمَ لا؟! لا يمكنك إنكار أنه ذكي، بل هو أذكى مني كثيراً.

قال بوارو بسخرية مؤلمة: هذا سهل، ولكن اصرف هذه الفكرة من ذهنك يا هيستنغز. نحن لا نثق بأحد، هل هذا مفهوم؟ أنا أمنعك من الحديث في هذا الموضوع.

- حسناً، إذا كان هذا رأيك، ولكن في الواقع فإن بويد كارنغتون...

- آه، بويد كارنغتون! لماذا أنت مهتمّ ببويد كارنغتون؟ ما هو على أية حال؟ رجل ضخم ومغرور ومسرور من نفسه لأن الناس ينادونه بلقب «صاحب السعادة»! صحيح أنه يتمتع ببعض الكياسة واللباقة وحسن التصرف، ولكنه ليس رائعاً. بويد كارنغتون يكرر نفسه، يروي القصة مرتين، والأكثر من ذلك أن ذاكرته ضعيفة جداً لدرجة أنه يروي لك نفس القصة التي أخبرتَه أنت بها. رجل ذو قدرات هائلة؟ بالطبع لا، بل هو عجوز مملّ متبجح ثرثار، وأخيراً فهو مغرور إلى أبعد الحدود.

- آه، هذا رأيك، وقد بدأتُ أرى الحقيقة.

صحيح أن ذاكرة بويد لم تكُن جيدة، كما أنه -حقيقةً- كان قد ارتكب الخطأ الذي أحسبه السبب في غضب بوارو الشديد. لقد أخبره بوارو بقصة من أيام خدمته في الشرطة البلجيكية، وبعد يومين فقط وعندما اجتمع عدد منّا في الحديقة روى بويد كارنغتون بإهمال بسيط نفس القصة مرة أخرى لبوارو. لقد أدركتُ الآن بأن الأمر أثار غضبه، وبلباقة انسحبت دون أن أقول شيئاً.

-٣-

نزلت إلى الطابق السفليّ ثم خرجت إلى الحديقة. لم يكُن فيها أحد، وتجولت في بستان من الأشجار حتى وصلت إلى هضبة عشبية يتوّجها منزل صيفي بلغ مرحلة متقدمة من التداعي، وقد جلستُ هناك وأشعلتُ غليوني وأخذت أفكر في الأمور: مَن مِن هؤلاء الموجودين في «ستايلز» يملك دافعاً معقولاً ومحدَّداً لقتل شخص آخَر؟ أو مَن هو الشخص المتوقَّع الذي يمكن إثبات أنه يملك دافعاً؟

استثنيث الكولونيل لاتريل؛ إذ بدا لي من غير المحتمل أن يستعمل البلطة ضد زوجته ولو في مبارزة، على الرغم من أن مثل هذا التصرف يمكن تبريره.

في البداية لم يخطر ببالي أحد، والمشكلة أنني لا أعرف القدر الكافي عن هؤلاء الأشخاص، فما الذي أعرفه عن نورتون أو الآنسة كول على سبيل المثال؟ وما هي دوافع الجريمة في العادة؟ المال؟ رأيت أن بويد كارنغتون هو الرجل الغنيّ الوحيد بين أفراد

المجموعة، فمَن الذي يرثه إذا مات؟ هل وارثه هو أحد الموجودين في المنزل؟ هذا الاحتمال بعيد ولكنها نقطة تستوجب البحث. وماذا لو أنه كان قد أوصى بأمواله للأبحاث واضعاً فرانكلين وصيّاً؟ لو صحّ هذا الافتراض وأضفنا إليه ملاحظات الطبيب الطائشة حول القضاء على ثمانين في المئة من الجنس البشري فيمكن أن تنشأ قضية جيدة ضدّ الدكتور ذي الشعر الأحمر. وربما كان أي من نورتون أو الآنسة كول قريبَين بعيدَين وسوف يرثانه تلقائياً في هذه الحالة. احتمال بعيد، لكنه جائز. هل يمكن أن يستفيد الكولونيل لاتريل (وهو صديق قديم) من وصية بويد كارنغتون؟ بدا أن هذه الاحتمالات قد غطّت جميع الجوانب المادية.

نظرت في الاحتمالات الرومَنسية. عائلة فرانكلين مثلاً: السيدة فرانكلين مريضة، فهل من المحتمل أنه قد تمّ تسميمها ببطء؟ وهل ستُلقى مسؤولية موتها على الزوج لأنه طبيب ويمتلك الفرصة والوسيلة؟ ولكن ماذا عن الدافع؟ وراودَتني فكرة مزعجة جعلتني أشعر بالخوف من أن تكون جوديث متورطة أيضاً. كان لديّ من الأسباب ما يجعلني أعلم أن علاقتهما مِهنية بحتة، ولكن هل يصدّق الرأي العام ذلك؟ هل يمكن لشرطي شاكّ أن يصدق؟ كانت جوديث شابة جميلة جداً، وسكرتيرةٌ أو مساعدة جذّابة قد تكون الدافع لارتكاب العديد من الجرائم. وأقلقني هذا الاحتمال كثيراً.

ثم فكرت في أليرتون. هل يوجد أيّ سبب لقتل أليرتون؟ إذا كان لا بدّ من وجود قاتل فأنا أفضّل أن أرى أليرتون الضحية. يستطيع المرء أن يجد الدوافع بسهولة لقتله. مثلاً الآنسة كول، على الرغم من أنها لم تعُد شابة إلاّ أنها لا تزال امرأة جميلة، ومن

الممكن أن تحركها الغيرة إذا كانت هي وأليرتون في علاقة حميمة، رغم أنني لم أجد من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه هي الحالة، هذا إذا كان أليرتون هو «س» المجهول.

هززتُ رأسي بنفاد صبر، فكل هذا لم يوصلني إلى أي شيء. واسترعى انتباهي صوتُ خطوات على ممر الحصى السفلي، كان ذلك فرانكلين يمشي بسرعة متوجهاً نحو المنزل الصيفي ويداه في جيبه ورأسه مرفوع إلى الأعلى. كان مظهره مظهر رجل مكتئب، وعند رؤيته بهذه الحالة صُعقتُ بحقيقة أنه بدا رجلاً غير سعيد أبداً. كنت مشغولاً في متابعته بحيث لم أسمع صوت الخطوات القريبة منّي.

استدرتُ فزعاً عندما تحدثَت إليّ الآنسة كول، وقلت معتذراً وأنا أنهض: لم أسمعك وأنت قادمة.

كانت تتفحص المنزل الصيفي فقالت: ما أجمل هذا التذكار الفكتوري!

- أليس كذلك؟ لكن من المؤسف أنه مهجور تملؤه خيوط العنكبوت. تفضلي بالجلوس، سأنفض لك المقعد.

وبدت لي فرصة جيدة للتعرف على واحدة من الضيوف بصورة أفضل. وتأملت الآنسة كول بصورة خفية وأنا أزيل خيوط العنكبوت؛ كان عمرها بين الثلاثين والأربعين، وكانت هزيلة نوعاً ما وذات عينين جميلتين جداً ويحيط بها جو من التحفظ والشك.

وأحسستُ بأنني بحاجة لمعرفة المزيد عن إليزابيث كول. قلت

بعد أن انتهيت من تنفيض الكرسي بمنديلي: هاكِ الكرسي، هذا أفضل ما أستطيعه.

جلست قائلة: شكراً لك.

جلستُ بجانبها فصرّ المقعد بصورة منذرة بالسوء، ولكن لم تحدث مصيبة. قالت: أخبرني، بماذا كنت تفكر عندما وصلتُ؟ لقد كنتَ تبدو مستغرقاً في التفكير.

قلت ببطء: كنت أراقب الدكتور فرانكلين.

- حقاً؟

ولم أرَ ضرورة لإعادة ما كنت أفكر به فقلت: لقد فوجئت بأنه بدا غير سعيد.

قالت بهدوء، بالطبع ليس سعيداً، لا بد أنك قد أدركت ذلك.

أظن أنني أظهرت دهشتي وقلت بتلعثم بسيط: لا، لا، لم أدرك ذلك، لقد كنت أظنه مشغولاً جداً في عمله على الدوام.

- هو كذلك بالفعل.

- أتسمّين ذلك تعاسة؟ يجب أن أقول إن هذه من أسعد الحالات التي يمكن تصورها.

- نعم، أنا لا أنكر هذا، ولكن ليس إذا مُنع الإنسان من القيام بالعمل الذي يحسنه، أي إذا لم يستطع تقديم أحسن ما عنده.

نظرت إليها دَهِشاً في حين تابعَت مفسِّرة: لقد عُرض على الدكتور فرانكلين في الخريف الماضي أن يذهب إلى أفريقيا لمتابعة أبحاثه هناك، وهو ذكي جداً كما تعلم وقد حقق إنجازاً من الدرجة الأولى في حقل الطب الاستوائي.

- ألم يذهب؟

- نعم، لم يفعل؛ فقد احتجّت زوجته. لم تكُن صحتها لتسمح لها باحتمال المُناخ، وقد رفضت فكرة بقائها هنا وحدها رفضاً قاطعاً، ولا سيما أن ذلك يعني أنّ عليها أن تحيا حياة متقشفة لأن الأجر الممنوح لم يكُن عالياً.

- آه، أظن أنه شعر بأنه لا يستطيع تركها وهي في مثل هذه الحالة الصحية.

- هل تعلم أيّ شيء عن حالتها الصحية يا كابتن هيستنغز؟

- أنا؟ لا، ولكنها مقعَدة، أليس كذلك؟

قالت الآنسة كول بجفاء: بل هي تستمتع بسوء صحتها.

نظرتُ إليها بشك، وكان من السهل ملاحظة أن تعاطفها كان كله مع الزوج. قلت ببطء: أظن أن النساء الرقيقات يملن إلى الأنانية، أليس كذلك؟

- أظن أن المعوَّقات منهن، المعوقات حقاً، يكُنّ أنانيات جداً، ولا أظن أن المرء يستطيع لومهن.

- ألا تعتقدين أن السيدة فرانكلين مريضة حقاً؟

- لا أريد أن أقول ذلك، هذا مجرّد شك، ولكنها تبدو قادرة على القيام بأيّ شيء تريده.

فكرت بصمت لمدة دقيقة أو اثنتين، وخطر ببالي أن الآنسة كول مطّلعة جيداً على مختلف شؤون عائلة فرانكلين، فسألتها بفضول: أظن أنك تعرفين الدكتور فرانكلين جيداً؟

هزت رأسها قائلة: لا، أنا لا أعرفه جيداً؛ فقد قابلته مرة أو اثنتين فقط قبل أن نتقابل هنا.

- إذن أظن أنه حدّثك عن نفسه؟

هزّت رأسها مرة أخرى نفياً وقالت: لا، ما أخبرتك به الآن أعلمَتني به ابنتك جوديث.

فكرت بمرارة في أن جوديث تتحدث مع الجميع إلا أنا، وتابعت الآنسة كول قائلة: جوديث مخلصة جداً لصاحب عملها وهي تدافع عنه دائماً، وشجبها لأنانية السيدة فرانكلين واضح تماماً.

- أتظنين أنت أيضاً بأنها أنانية؟

- نعم، ولكنني أرى وجهة نظرها. أنا أفهم المعوقين، كما أن باستطاعتي أيضاً أن أفهم استسلام الدكتور فرانكلين لها. أما جوديث فتعتقد طبعاً أن عليه أن يترك زوجته في أيّ مكان ويلتفت لعمله. إن ابنتك متحمسة للعلم كثيراً.

قلت بحزن: أعلم، وهذا يقلقني أحياناً. إنه لا يبدو طبيعياً...

إذا كنت تفهمين ما أعني. أشعر بأنها يجب أن تكون أكثر إنسانية وأن تهتم بأن تستمتع بوقتها، أن تسلّي نفسها قليلاً، ففي الحقيقة فترة الشباب هي فترة اندفاع المرء ولهوه لا جلوسه متأملاً أنابيب الاختبار! ليس هذا طبيعياً. في أيام شبابنا كنّا نستمتع ونلهو بوقتنا، أنت تعلمين هذا.

مضت لحظة صمت ثم قالت الآنسة كول بصوت غريب: لا، لا أعلم.

وفجأة أحسستُ بالخجل، فدون أن أشعر تحدثت معها وكأننا من جيل واحد، لكنني أدركت فجأة أنها تصغرني بعشر سنوات على الأقل وأنني ظهرت -دون قصد- مفتقراً إلى التهذيب. واعتذرت بأحسن ما أستطيع لكنها قاطعت جُمَلي المتلعثمة قائلة: لا، لم أقصد ذلك، أرجوك لا تعتذر. كنت أعني -ببساطة- ما قلته: أنا لا أعلم؛ إذ لم أكُن قط ما يمكن أن تسمّيه «شابة» ولم أتمتع يوماً بما سمّيتَه وقت التسلية واللهو.

شعرت بشيء ما في صوتها، ربما كان فيه ضياع أو مرارة أو استياء عميق... وقلت بضعف ولكن بصدق وإخلاص: أنا آسف.

فابتسمَت قائلة: حسناً، لا يهم. أرجوك أن لا تبدو منزعجاً هكذا، دعنا نتكلم في موضوع آخر.

تابعتُ قائلاً: أخبريني بعض الشيء عن الأشخاص الآخرين هنا، إلا إذا كانوا غريبين بالنسبة لك.

- لقد عرفتُ عائلة لاتريل طول حياتي، ومن المحزن أن

يُضطروا لفعل هذا، ولا سيما بالنسبة له فهو عزيز جداً. وهي ألطف مما تظن، إلا أن الحياة القاسية التي عاشتها جعلتها قاسية وجارحة نوعاً ما. الشيء الوحيد الذي لا أحبه فيها هو تصرّفها العنيف.

- حدثيني عن السيد نورتون.

- لا يوجد الكثير لأحدثك به. إنه لطيف جداً وخجول إلى حدّ ما، ولعله غنيّ قليلاً. كان دائماً لطيفاً ورقيقاً، وقد عاش مع أمه التي كانت امرأة نكدة وغبية وأظن أنها سيطرت عليه كثيراً، ثم ماتت قبل سنوات قليلة. يهتم بالطيور والأزهار وأمثال هذه الأشياء، وهو شخص عطوف من ذلك النوع من الأشخاص الذين يرون الكثير.

- أتعنين بمنظاره؟

ابتسمت الآنسة كول قائلة: حسناً، لم أعنِ ذلك حرفياً بل قصدت أنه شديد الملاحظة، هذا ما يفعله الأشخاص الهادئون. إنه ليس أنانياً بل هو شخص متفهم ويراعي الآخرين، ولكنه غير فعّال إذا أدركتَ ما أعني.

أومأت برأسي وقلت: نعم، أفهم هذا.

وفجأة قالت إليزابيث كول وقد عادت النبرة المريرة إلى صوتها: هذا هو الجزء المحزن في مثل هذه الأماكن. فندق يديره شخصان لطيفان ولكنهما مفلسان، وهو مليء بالفاشلين، أناس لم يصلوا إلى أي مركز ولن يصلوا أبداً، أناس هزمتهم الحياة وأقعدتهم، أناس كبار متعَبون ومنتهون.

خَفَت صوتُها، ونفد إلى أعماقي حزن عميق. كم كان هذا

صحيحاً! ها نحن أولاء جماعة من الناس وصلوا إلى مرحلة الانحطاط؛ شعور رمادية، وقلوب رمادية، وأحلام رمادية! أنا نفسي حزين ووحيد، وهذه المرأة بجانبي مخلوقة مصابة بالخيبة، والدكتور فرانكلين متحمّس طموح مقيَّد عنيد، وزوجته وقعت فريسة للمرض، ونورتون الهادئ المنهمك في مراقبة الطيور، حتى بوارو صار الآن عجوزاً مقعَداً!

كم كان الأمر مختلفاً في الماضي، في تلك الأيام عندما قدمت إلى «ستايلز» لأول مرة! كانت تلك الفكرة أكثر ممّا أستطيع احتماله فصدرت مني آهة ألم مكتومة، فقالت رفيقتي بسرعة: ما الأمر؟

قلت: لا شيء، لقد صعقني الفرْق. لقد كنت هنا -كما تعلمين- منذ عدة سنوات عندما كنت شاباً، وقد كنت أفكّر في الفرق بين الحالين!

- لقد كان منزلاً سعيداً إذن. هل كان الجميع سعداء هنا؟

غريب أن تتأرجح أفكار المرء هكذا. لقد حدث ذلك لي الآن، خلط غريب وإعادة خلط للذكريات والأحداث، ثم عادت القطع إلى تركيبتها الحقيقية. كانت حسرتي على الماضي من حيث هو ماضٍ فقط لا على الواقع الذي يمثله؛ فحتى في ذلك الوقت، في ذلك الوقت البعيد، لم يعرف «ستايلز» معنى السعادة. وتذكرت بهدوء بعض الحقيقة. كان صديقي جون وزوجته تعيسَين غاضبَين بسبب تلك الحياة التي أُجبرا على عيشها، وكان لورنس كافيندش غارقاً في الحزن، وسينثيا خبا صباها الفتيّ بسبب موقفها غير

المستقلّ، وإنغليثورب تزوّج امرأة ثرية لمالها... لا، لم يكُن أيّ من الناس سعيداً هنا. والآن، ومرة أخرى، لم يكُن أيّ منهم هنا سعيداً؛ لم يكُن «ستايلز» بالمنزل الذي يجلب الحظ!

قلت للآنسة كول: لقد أطلقتُ العنان لعواطف خاطئة؛ لم يكُن هذا قط بالمنزل السعيد. وهو ليس كذلك الآن، فالجميع هنا غير سعداء.

- لا، لا، ابنتك...

- جوديث؟ جوديث أيضاً ليست سعيدة.

قلت ذلك بقوةِ معرفة مفاجئة، ثم قلت بشك: بويد كارنغتون كان يخبرني قبل أيام بأنه وحيد، ولكن أظن أنه يستمتع بوقته جداً.

قالت الآنسة كول بحدّة: نعم، لكن السير ويليام مختلف؛ فهو لا ينتمي إلى هذا المكان مثل بقيتنا. إنه من العالم الخارجي، عالم النجاح والاستقلال. لقد نجح في حياته، وهو يعلم ذلك. إنه ليس من المعوَّقين.

كانت كلمة غريبة تلك التي اختارتها، والتفتُّ إليها محدقاً وقلتُ: هلاّ أخبرتِني لماذا استعملت هذا الاصطلاح بالتحديد؟

قالت فجأة وبقوة: لأن هذه هي الحقيقة، والحقيقة أنني أنا نفسي إنسانة معوَّقة.

- أنا أعلم أنك لم تكوني سعيدة.

قالت بهدوء: أنت لا تعرف من أنا، أليس كذلك؟

- آه، أعرف أن اسمك...

- كول ليس اسمي... أعني أنه اسم أمي، وقد اقتبسته فيما بعد.

- فيما بعد؟

- اسمي الحقيقي هو ليتسفيلد.

للوهلة الأولى لم أفهم جيداً، كان مجرَّد اسم يبدو مألوفاً، ثم تذكّرت فقلت: ماثيو ليتسفيلد؟!

أومأت برأسها قائلة: أرى أنك تعرف الموضوع. هذا ما كنت أعنيه، كان أبي مريضاً وطاغية ومنعنا من ممارسة حياة طبيعية. لم يكُن باستطاعتنا دعوة أصدقائنا إلى المنزل وأبقانا دائماً في حاجة إلى النقود... لقد كنّا نعيش في زنزانة!

توقفَت عن الحديث، وكانت عيناها الجميلتان غامضتين واسعتين، ثم أكملت: ثم أختي، أختي...

وتوقفت عن الحديث فقلت: أرجوك، لا تتابعي! هذا مؤلم بالنسبة لك. أعرف الموضوع فلا داعي لإخباري.

- ولكنك لا تعلم، ليس باستطاعتك أن تعلم. ماغي... ذلك لا يمكن تصديقه أو فهمه. أنا أعرف أنها توجهت إلى الشرطة وأنها سلّمت نفسها واعترفت، ولكنني لا أزال عاجزة عن تصديق الأمر أحياناً. أشعر بأن ذلك لم يكُن صحيحاً، لم يكُن من الممكن أن تحدث الأمور كما قالت إنها حدثت.

وترددتُ قبل أن أقول: أتعنين إن الحقائق كانت مختلفة؟

قاطعتني قائلة: لا، لا، ليس هذا ما أعنيه، بل ماغي نفسها؛ لم يكُن ذلك من طبعها، لم تكُن... لم تكُن ماغي!

اهتزّت الكلمات بين شفتيّ، ولكنني لم أقُلها. لم يحِن -بعد- الوقت الذي أستطيع فيه أن أقول لها: أنتِ على حق؛ لم تكُن ماغي.

* * *

الفصل التاسع

لا بد أن الساعة كانت نحو السادسة عندما جاء الكولونيل لاتريل عبر الممر. كانت معه بندقية صيد وكان يحمل معه زوجَين من الحمام، وقد جفل عندما حيّيتُه وبدا دَهِشاً لرؤيتنا فقال: مرحباً، ماذا تفعلان هنا؟ هذا المكان القديم المتداعي ليس آمناً كما تعلمان، فهو يتداعى وقد يتفكك من حولكما. سوف تتسخ ثيابكِ يا إليزابيث.

- لا بأس، لقد ضحّى الكابتن هيستنغز بمنديله لهدف نبيل هو المحافظة على ثوبي نظيفاً.

همس الكولونيل بغموض: آه، حقاً؟ حسناً، هذا جيد.

ووقف هناك وعلى وجهه ابتسامة غامضة فنهضنا وانضممنا إليه. بدا ذهنه مشتَّتاً في ذلك المساء، وقد ضغط على نفسه ليقول: كنت أحاول اصطياد ذلك الحمام اللعين؛ فهو يسبب الضرر الكثير كما تعلمان.

قلت: أنت صياد ماهر كما سمعت.

- آه، من أخبرك بذلك؟ بويد كارنغتون؟ كنتُ صياداً ماهراً، كنت، أما الآن فقد كبرتُ وضعفت.

- أهو نظرك؟

استبعد الاقتراح فوراً وقال: هراء، نظري لا يزال جيداً كما كان، أعني أنني أحتاج إلى وضع النظارة للقراءة طبعاً لكن نظري البعيد لا يزال جيداً.

وكرر بعد دقيقتين: نعم، حسناً، هذا ليس مهماً.

ثم انخفض صوته إلى غمغمة شاردة، ونظرت الآنسة كول حولها قائلة: ما أجمل هذه الأمسية!

كانت على حق؛ فقد مالت الشمس نحو الغروب، وكان ضوؤها كلون الذهب مبرزاً لون الشجر الأخضر بلون وضّاء. كانت ليلة هادئة إنكليزية جداً يتذكرها المرء عندما يكون في البلاد الاستوائية البعيدة... هكذا قلتُ. ووافقني الكولونيل لاتريل بحماسة قائلاً: نعم، نعم، لطالما ذكرت أمسيات مثل هذه عندما كنت في الهند. إن هذا يجعلك تتطلع إلى اليوم الذي تتقاعد وتستقر فيه. ما رأيك؟

أومأت موافقاً، فتابع وقد تغيّر صوته: أجل، الاستقرار والعودة إلى الوطن. لا شيء كما تتخيله، لا شيء.

فكرت أن هذا صحيح لمن هو في مثل وضعه. لا أظن أنه تصور نفسه يوماً يدير نُزلاً للضيافة ويحاول أن يجعله يدرّ ربحاً مع زوجة نكدة تعامله بازدراء وتذمّر طول الوقت.

مشينا نحو المنزل ببطء، وكان نورتون وبويد كارنغتون يجلسان على الشرفة فانضممت أنا والكولونيل إليهما في حين دخلت الآنسة كول إلى المنزل. تحدثنا عدة دقائق، ويبدو أن الكولونيل لاتريل قد عاد

إليه ابتهاجه فقد ألقى بعض النكات وبدا أكثر مرحاً وانتعاشاً من قبل.

قال نورتون: لقد كان يوماً حارّاً، كم أشعر بالعطش!

فقال لاتريل: تناولوا بعض المرطّبات على حساب صاحب المنزل أيها الرفاق، ما رأيكم؟

بدا الكولونيل متحمساً ومرحاً، وشكرناه بعدما وافقنا فنهض وذهب إلى الداخل.

كان ذلك الجزء من الشرفة الذي جلسنا فيه يطلّ على نافذة غرفة الطعام، وكانت النافذة مفتوحة فسمعنا صوت الكولونيل في الداخل وهو يُعِدّ العصير، ثم سمعنا صوت السيدة لاتريل حادّاً ومرتفعاً وهي تقول: ماذا تفعل يا جورج؟

وانخفض صوت الكولونيل إلى غمغمة، فلم نستطع سوى سماع بعض الكلمات المتلعثمة مثل: «الرفاق في الخارج»، «المرطبات»... ثم انفجر الصوت الحادّ المزعج: أنت لن تفعل مثل هذا الشيء يا جورج، هذه الفكرة في مثل هذا الوقت! كيف تظن أن بإمكاننا إنجاح هذا المكان وأنت تدعو الجميع إلى الشراب؟ المشروبات هنا يجب أن يُدفَع ثمنها. أنا أملك عقلاً تجارياً إذا كنتَ لا تملكه. كنتَ ستفلس من الغد لو لم أكُن هنا، يجب أن أعتني بك كما لو كنتَ طفلاً، أنت لا تملك عقلاً أبداً.

ومرة أخرى سُمعت غمغمة احتجاج خافتة ومتألمة، وأجابت السيدة لاتريل بحدة: لا أبالي إن فعلوا أو لم يفعلوا، هكذا يجب أن تكون الأمور!

وهذه المرة جاءنا صوت الكولونيل بوضوح يقول: لقد تجاوزتِ الحدود يا ديزي، وأنا لن أقبل بهذا.

- لن تقبل بهذا؟ أنا أريد أن أعرف من أنت، مَن يدير هذا المنزل؟ أنا، وإياك أن تنسى ذلك.

وسمعنا حفيف أقمشة فأدركنا أن السيدة لاتريل قد اندفعت خارج الغرفة. ومضت عدة دقائق قبل أن يظهر الكولونيل، وحين أقبل بدا أنه قد ضَعُفَ وهرم خلال هذه الدقائق القليلة، ولم يبقَ أحدٌ منا إلا وشعر نحوه بالأسف. ومن منّا لم يكُن ليتطوّع -عندئذ- بقتل السيدة لاتريل؟

قال الكولونيل بصوت جامد غير طبيعي: أنا آسف جداً أيها الأصدقاء؛ يبدو أن العصير البارد لا يتوفر لدينا الآن.

ولا بدّ أنه أدرك أننا لم نملك إلاّ أن نسمع ما جرى، وإذا لم يكُن قد أدرك ذلك فلا بدّ أن تصرفنا سرعان ما أخبره به. بدا التوتر والضيق علينا جميعاً، وقال نورتون بسرعة إنه لا يريد أن يشرب أي شيء لأن موعد العشاء قد اقترب، ثم غيّر الموضوع فجأة وأخذ يُبدي مجموعة من الملاحظات غير المترابطة. كانت لحظة سيّئة فعلاً وقد أحسستُ بأنني لا أستطيع فعل أيّ شيء، أما بويد كارنغتون الذي كان الوحيد القادر على تغيير الموضوع فلم تسنح له الفرصة بسبب ثرثرة نورتون.

ومن بعيد شاهدت السيدة لاتريل تمشي بسرعة عبر أحد الممرات مزوّدة بكفوف البستنة وأداة لإزالة الأعشاب الضارة. كانت

امرأة كفئاً بحق، ولكنني شعرت بالمرارة نحوها في تلك اللحظة؛ فلا يحق لأيّ إنسان أن يُهين إنساناً آخر.

كان نورتون لا يزال يتحدث بانفعال، وقد التقط إحدى الحمامات وبدأ يحدثنا كيف ضحك منه أصدقاؤه في المدرسة الإعدادية عندما شعر بالغثيان لدى رؤيته أرنباً مقتولاً، ثم انتقل إلى موضوع مستنقَعات الطيور راوياً قصة طويلة لا جدوى منها عن الذي حدث في اسكتلندا عندما أطلق أحدهم النار على مثير الطرائد، كما تحدثنا عن العديد من حوادث الصيد التي نعرف عنها.

ثم تنحنح بويد كارنغتون قائلاً: في الواقع لقد حدث أمر طريف مع أحد جنودي. كان فتى أيرلندياً وكانت لديه إجازة ذهب خلالها إلى أيرلندا، وعندما عاد سألته إن كان قد تمتع بإجازته فقال: "نعم يا سيدي، كانت أحسن عطلة قضيتها في حياتي". فقلت إنني سعيد لذلك، هذا ما قلته وأنا مدهوش من حماسته، فقال: "نعم، كانت إجازة رائعة؛ لقد أطلقت النار على أخي"! فهتفت: "أطلقتَ النار على أخيك؟!" فقال: "نعم، بالطبع، لقد أردت فعل ذلك لسنوات، وها أنذا وقد كنت على أحد السطوح في دبلين ورأيت أخي قادماً يسير في الشارع وبندقيتي في يدي. طلقة رائعة على الرغم من أنني أنا الذي أقول ذلك. لقد اصطدته كما أصطادُ الطائر، كانت لحظة رائعة ولن أنساها أبداً"!

روى بويد كارنغتون القصة بصورة حسنة مع بعض المبالغة وتضخيم الأمور فضحكنا جميعاً وشعرنا بالارتياح، وعندما نهض قائلاً إنه بحاجة إلى الاستحمام قبل العشاء عبّر نورتون عن مشاعرنا

بقوله بحماسة إنه رجل رائع، ووافقتُه في حين قال لاتريل: نعم، نعم، هو كذلك.

قال نورتون: كان ناجحاً دائماً، ينجح في أيّ أمر يفعله. إنه صافي الذهن ويعرف ماذا يريد، رجل فعّال، مثال الرجل الناجح.

قال لاتريل ببطء: بعض الرجال مثل هذا، أيّ شيء يفعلونه ينجح ولا يمكن أن يخطؤوا، بعض الناس لديهم كل الحظ.

هز نورتون رأسه قائلاً: "لا، لا يا سيدي، هذا ليس حظاً". ثم أضاف مقتبِساً أحد الأقوال المشهورة: "ليس في نجومنا حظنا يا عزيزي بروتس، ولكن في أنفسنا".

قال لاتريل: لعلك على حق.

قلت بسرعة: على كل حال هو محظوظ حقاً لأنه ورث قصر ناتون. يا لذلك المكان! ولكن عليه أن يتزوج، سوف يكون وحيداً هناك إذا بقي بلا زواج.

ضحك نورتون وقال: يتزوج ويستقر؟ افرض أن زوجته سيطرت عليه.

كان ذلك سيّئاً. إنها ملاحظة يمكن لأي شخص إبداؤها، ولكنها بدت غيرَ مناسِبة في مثل هذه الظروف، وقد أدرك نورتون ذلك لحظة صدور كلماته وحاول سحبها، فتردد وتلعثم ثم توقف بغرابة وقد زاد الوضع سوءاً.

بدأنا أنا وهو الكلام معاً، وأبديت ملاحظة غبية حول ضوء المساء، وقال نورتون شيئاً عن لعب البريدج بعد العشاء. ولم يهتم

الكولونيل لاتريل بأي منا، ثم قال بصوت غريب غير معبّر: لا، لن تسيطر زوجة بويد كارنغتون عليه لأنه ليس من تلك النوعية من الناس الذين يسمحون للآخرين بالسيطرة عليهم. إنه رجل حقيقي.

كان الوضع غريباً، وبدأ نورتون بالثرثرة حول البريدج مرة أخرى، وفي وسط كلامه رفرفت حمامة كبيرة فوق رؤوسنا واستقرّت على جذع شجرة غير ببعيد، فالتقط الكولونيل لاتريل بندقيته وقال: ها هي ذي إحدى المفسدات.

وقبل أن يصوب بندقيته طارت الحمامة عبر الأشجار بحيث أصبح من المستحيل إطلاق النار عليها، وفي اللحظة نفسها تحول اهتمام الكولونيل بسبب سماعه خطوات على المنحدر البعيد فقال: اللعنة، أحد الأرانب يقضم لحاء أشجار الفاكهة الصغيرة، وقد ظننت أنني طوّقت المكان بالأسلاك.

ورفع بندقيته وأطلق النار، وفيما كنت أراقبه ارتفعت صرخة بصوت نسائي، ثم ضعفت الصرخة إلى حشرجة مريعة. وسقطت البندقية من يد الكولونيل وارتخى جسده وعض على شفتيه وصرخ: يا إلهي، ديزي!

ركضتُ نحو المرج ولحقني نورتون وصولاً إلى المكان. كانت السيدة لاتريل منحنية تسند وتداً إلى إحدى شجيرات الفاكهة الصغيرة، وكان العشب هناك طويلاً فأدركت كيف لم يستطع الكولونيل رؤيتها بوضوح بل ميّز فقط حركة بين الأعشاب، وكان الضوء مضلّلاً. أصيبت في كتفها وكان الدم يتدفق منه، وانحنيت أفحص الجرح ونظرت نحو نورتون الذي كان متكئاً على الشجرة

شاحباً وكأنه على وشك الإغماء، وقال معتذراً: لا يمكنني احتمال منظر الدم.

قلت بحدة: استدعِ فرانكلين أو الممرّضة على الفور.

فأومأ برأسه وركض مسرعاً.

كانت الممرّضة كارفن أول من ظهر على المسرح، وقد وصلَت بعد فترة قصيرة جداً وبدأت العمل فوراً بطريقة محترفة لوقف النزيف. وصل الدكتور فرانكلين بسرعة بعد ذلك، وقام الاثنان بنقلها إلى المنزل ومن ثَم إلى السرير، وقام فرانكلين بتضميد الجرح وأرسل في طلب طبيبها الخاص، وبقيَت الممرّضة كارفن معها.

وركضتُ نحو فرانكلين بعد أن انتهى من الحديث بالهاتف وسألتُه: كيف حالها؟

- سوف تجتاز المحنة بسلام. لحسن الحظ لم تُصِب الرصاصة أيّ منطقة حيوية. كيف حدث ذلك؟

أخبرته بما حدث فقال: حسناً، أين الرجل العجوز؟ لا بد أنه مصاب بصدمة، أظن أنه بحاجة إلى العناية أكثر منها. لا أستطيع القول إن قلبه يعمل بصورة سليمة.

عثرنا على الكولونيل لاتريل في غرفة التدخين، وكان لونه أزرق حول الفم وبدا أنه في حالة انهيار تام. قال بضعف: ديزي، هل هي...؟ كيف هي؟

فقال فرانكلين بسرعة: ستكون على ما يرام يا سيدي، لا حاجة للقلق.

- لقد ظننتها أرنباً يقضم اللحاء! لا أعرف كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ... لعله بسبب انعكاس الضوء في عيني...

قال فرانكلين باقتضاب: مثل هذه الأمور تحدث، لقد رأيت واحداً أو اثنين مثلها من قبل. اسمع يا سيدي، ينبغي أن أعطيك دواء مهدّئاً؛ أنت لا تبدو على ما يرام.

- بل أنا على ما يرام. هل يمكنني أن أذهب إليها؟

- ليس الآن، الممرّضة كارفن معها. ولكن لا داعي للقلق فهي بخير، وسوف يحضر الدكتور أوليفر قريباً وسيخبرك بالرأي نفسه.

تركت الاثنين معاً وخرجت إلى ضوء المساء، وكانت جوديث وأليرتون يتقدمان نحوي عبر الممر. كان رأسه مائلاً نحو رأسها وكلاهما يضحكان، وأتى ذلك ليزيد عليّ المأساة التي حدثت. جعلني هذا المنظر أشعر بالغضب، وناديت جوديث بحدة فنظرت إليّ بدهشة، وبكلمات قليلة أخبرتها بما حدث فقالت: إنه أمر غير عادي.

ظننت أنها لم تَبدُ قلقة كما كان ينبغي، أما تصرّف أليرتون فقد كان فظيعاً؛ إذ اعتبر الأمر كله نكتة حيث قال: تلك العجوز النكدة تستحق ما حدث لها. هل تظن العجوز فعلها متعمداً؟

قلت محتدّاً: بالطبع لا، لقد كان الأمر مجرّد حادثة.

- نعم، ولكنني أعرف أن هذه الحوادث تكون مناسبة أحياناً، وإذا كان هذا العجوز قد أطلق النار عليها متعمداً فأنا أرفع قبعتي احتراماً له.

فقلت بغضب: لم يكُن الأمر كذلك.

- لا تكن واثقاً جداً. لقد عرفت رجلين أطلقا النار على زوجتيهما، كان أحدهما ينظف مسدسه، أما الآخر فقد أطلق النار عليها مباشرة وقال إنه كان يمزح ولم يكُن يعلم أن المسدس مشحون بالرصاص. وقد أفلت كلاهما، وأقول إن هذه حرية رائعة.

قلت ببرود: ليس الكولونيل لاتريل من تلك النوعية من الناس.

فقال أليرتون بعدم احترام: لا يمكنك القول إن ذلك لن يكون خلاصاً محموداً، أليس كذلك؟

ابتعدت غاضباً، وفي الوقت نفسه كنت أحاول أن أخفي قلقاً ما. لقد اقترب أليرتون قليلاً من نقطة مهمة، ولأول مرة تسرّبَ الشك إلى عقلي.

لم يتحسّن ذلك بلقائي ببويد كارنغتون الذي أوضح لي إنه كان يتمشى باتجاه البحيرة، وعندما أخبرته بالأمر قال فوراً: أنت لا تظن أنه كان ينوي قتلها، أليس كذلك يا هيستنغز؟

- يا عزيزي، المفروض أن...

- أنا آسف، آسف؛ لم يكُن من المفروض أن أقول ذلك. يا للعجب! لقد كانت تستفزه قليلاً كما تعلم.

صمتنا قليلاً ونحن نتذكر الحوار الذي سمعناه دون قصد منا، وصعدت إلى الطابق العلوي وأنا أشعر بالتعاسة والقلق وطرقت باب بوارو. كان قد سمع بما حدث من كيرتس ولكنه كان متشوقاً

لسماع التفصيلات كاملة، فمنذ وصولي إلى ستايلز تعوّدتُ سرد معظم الأحداث اليومية والمحادثات له بالتفصيل. بهذه الطريقة كنت أحسّ أن صديقي العزيز يشعر بأنه أصبح أقل انعزالاً وأنه يشارك حقاً في كل أمر يحدث. كنت أتمتع بذاكرة جيدة ودقيقة، ووجدت من الضروري أن أكرر له المحادثات حرفياً.

استمع بوارو بانتباه، وكنت آمل أن يستسخف بشكل قاطع ذلك الاقتراح المخيف الذي سيطر على عقلي بسهولة مع مرور الوقت، لكن وقبل أن تتاح له الفرصة ليخبرني عن ظنونه سمعنا نقراً خفيفاً على الباب. كانت تلك هي الممرّضة كارفن التي اعتذرت عن إزعاجها لنا قائلة: أنا آسفة، ولكنني ظننت أن الطبيب هنا. لقد استيقظَت السيدة العجوز وهي قلقة على زوجها وتريد رؤيته. هل تعلم أين هو يا كابتن هيستنغز؟ لا أريد أن أترك مريضتي.

تطوعتُ بالذهاب للبحث عنه، وأومأ بوارو موافقاً وشكرتني الممرّضة كارفن بحرارة.

عثرت على الكولونيل لاتريل في الغرفة الصباحية التي لا تُستعمل إلا نادراً، وكان واقفاً بجوار النافذة ينظر إلى الخارج. التفت بحدّة عندما دخلتُ وسألَتني عيناه سؤالاً، وأظنه بدا خائفاً، فقلت له: لقد استيقظَت زوجتك يا كولونيل لاتريل، وهي تسأل عنك.

- حقاً؟

اندفع الدم إلى وجنتيه فأدركتُ عندها كم كان شاحباً من قبل، وقال ببطء متلعثماً كرجل عجوز جداً: تسأل عني؟ سوف أذهب فوراً.

بدا مترنحاً عندما بدأ يجرّ قدميه إلى الباب، فتوجهت إليه وساعدته، واتكأ عليّ بثقل جسده حتى صعدنا الدرَج. كان يتنفس بصعوبة؛ فالصدمة كانت قوية كما تنبأ فرانكلين.

اتجهنا إلى باب غرفة المريضة، ونقرتُ على الباب فسمعنا صوت الممرّضة كارفن الجادّ والقوي وهي تقول: ادخل.

دخلنا الغرفة وما زلت أسند الرجل العجوز. ورأينا حول السرير ستارة رقيقة فوقفنا عند زاويتها، وقد بدت السيدة لاتريل مريضة جداً وشاحبة وضعيفة، وكانت عيناها مغمضتَين ففتحتهما عندما وصلنا إلى زاوية السرير وقالت بصوت ضعيف لاهث: جورج، جورج!

فأجابها جورج بلهفة: ديزي، عزيزتي.

كانت إحدى ذراعيها مضمَّدة ومسنَدة، أما الأخرى الطليقة فقد تحركت نحوه مرتعشة، فتقدم خطوة إلى الأمام وأمسك يدها الضعيفة بيده وقال مرة أخرى: ديزي!

ثم قال بصوت أجش: الحمد لله أنك بخير.

وعندما رأيت عينيه مغرورقتين بالدموع تنطقان بالحب والقلق العميقين شعرت بالخجل العميق من كل تخيّلاتنا الشريرة، وتسللتُ خارج الغرفة بهدوء. لم يَخْفَ شعوره العميق بحبها، وقد أشعرني الموقف براحة لا حدود لها.

أفزعني قرع جرس الطعام وأنا أسير عبر الممر. كنت قد نسيت مرور الوقت، فقد أفسدَت الحادثة كل شيء. الطباخ فقط

تصرّف كالمعتاد وجهّز العشاء في الوقت المحدَّد. ولم يغير معظمنا ثيابه، ولم يظهر الكولونيل لاتريل لكن السيدة فرانكلين التي بدت جذّابة جداً في ثوب زهري فاتح اللون كانت في الطابق السفلي، ولأول مرة بدت بصحة ونفسية جيدتَين، ولاحظتُ أن فرانكلين كان مستغرقاً في التفكير. الأمر الذي أزعجني هو اختفاء أليرتون وجوديث في الحديقة معاً بعد العشاء.

جلست فترة أستمع إلى فرانكلين ونورتون يناقشان الأمراض الاستوائية، وكان نورتون مصغياً جيداً وإن كان لا يعرف إلاّ القليل عن الموضوع الذي تجري مناقشته. وكانت السيدة فرانكلين وبويد كارنغتون يتحدثان في الجانب الآخر من الغرفة حيث كان يريها بعض نماذج الستائر والأقمشة القطنية، وكانت إليزابيث كول مستغرقة في قراءة كتاب في يدها، وقد بدا لي أنها كانت محرَجة منّي. ربما كان ذلك طبيعياً بعد محادثتنا في ذلك المساء، وقد شعرتُ بالأسف لهذا الأمر وتمنيت أن لا تندم على ما أخبرَتني به، وكنت أود أن أوضّح لها بأنني أحترم ثقتها وأنني لن أتحدث بما أخبرَتني به، لكنها لم تمنحني أية فرصة.

بعد فترة صعدتُ إلى بوارو فوجدت الكولونيل لاتريل جالساً في دائرة من الضوء يرسلها مصباح كهربائي صغيرة مضاء، وكان يتحدث وبوارو يستمع. أظن أن الكولونيل كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى مستمعه، كان يقول: أتذكّر ذلك جيداً، كانت حفلة صيد وكانت ترتدي ثوباً حريرياً أبيض يلفّها جيداً، وكانت فتاة جميلة جداً. لقد صعقَتني وأنا في مكاني، وقلت لنفسي: "إنها هي الفتاة التي سأتزوجها، أقسم على هذا"، وقد فعلتُ. كانت طريقتها في

كلامها حلوة شيّقة، دائماً تعطي بقدر ما تستطيع. آه، بارك الله فيها.

تخيّلتُ المنظر في عقلي. كان بإمكاني تصوّر وجه ديزي لاتريل الأنيق الفتيّ ولسانها المهذّب، كانت فاتنة آنذاك ثم تحولت إلى امرأة سليطة بمرور السنين، لكن الكولونيل لاتريل كان يفكّر فيها -في ذلك المساء- بصورة تلك الفتاة الشابة، حبه الحقيقي الأول.

مرّة أخرى شعرت بالخجل مما قلناه في الساعات الماضية، وبالطبع أخبرت بوارو بالأمر كله عندما ذهب لاتريل إلى فراشه أخيراً. واستمع بهدوء، ولم أستطع فهم التعبيرات التي علَت وجهه. قال لي: أتقصد أنك ظننتَ أن الطلقة أُطلقَت عمداً؟

- نعم، وأنا الآن أشعر بالخجل لهذا الظن.

- وهل بدت لك تلك الفكرة من نفسك أم أن أحداً آخَر اقترحها عليك؟

قلت باستياء: لقد قال أليرتون شيئاً مشابهاً، بالطبع سوف يفعل ذلك.

- وهل من أحد آخر؟

- بويد كارنغتون اقترح ذلك.

- آه، بويد كارنغتون!

- نعم، فهو في الحقيقة رجل مجرّب ولديه خبرة في مثل تلك الأمور.

- نعم، بالطبع، بالطبع. لكن هل رأى الحادثة عند وقوعها؟

- لا؛ كان قد خرج ليتمشى، بعض التمرين قبل أن يستعد للعشاء.

- نعم، فهمت.

قلت بتوتر: لا أظن أنني صدّقت هذه النظرية حقاً، كان ذلك مجرَّد...

قاطعني بوارو قائلاً: لا داعي لأن تأسف على شكوكك يا هيستنغز، فمثل هذه الفكرة يمكن أن تخطر ببال أيّ شخص في مثل تلك الظروف. نعم، كان ذلك طبيعياً جداً.

كان في سلوك بوارو شيء لم أستطع فهمه، لعله تحفّظ. كانت عيناه تراقبانني بتعبير فضولي، وقلت ببطء: قد تكون محقاً، ولكن بعد أن رأيت تفانيه وإخلاصه...

أومأ بوارو قائلاً: بالضبط، هذه هي الحالة عادة، فوراء هذه المشاجرات والخلافات والعداوات الواضحة يومياً تكمن العاطفة الحقيقية.

أيدته في رأيه، وتذكرت تلك النظرة الرقيقة الحنونة في عينَي السيدة لاتريل عندما نظرَت إلى زوجها وهو ينحني فوق فراشها، لا مزيد من النكد والقلق والعصبية.

أخذتُ أفكر -وأنا في طريقي إلى الفراش- بأن الحياة الزوجية أمر غريب، ولكن ذلك الأمر في سلوك بوارو لا يزال يقلقني! نظرته

المراقِبة الغريبة تلك كأنه يتوقع منّي أن أرى شيئاً ما، ولكن ماذا؟ وكنت في طريقي إلى الفراش عندما أدركت ذلك الشيء... أدركتُه وكأنه أصابني بشدة فيما بين عينَيّ! لو أن السيدة لاتريل قُتلت لكانت تلك قضية مثل باقي القضايا السابقة، ولبدا وكأن الكولونيل لاتريل قد قتل زوجته. كانت ستسجَّل حادثة، ولكن وفي الوقت نفسه لن يكون الجميع متأكدين إن كانت حادثة أم جريمة ارتُكبت عمداً. إن الأدلة غير كافية لكي تبرهن على أنها جريمة قتل، لكنها تكفي لإثارة الشك في ذلك.

ولكن هذا يعني... هذا يعني... ماذا يعني؟ إذا كان الأمر معقولاً فإنه يعني أن الكولونيل لاتريل لم يطلق النار على السيدة لاتريل، بل إن «س» هو الذي فعل! ولكن هذا يبدو مستحيلاً. لقد رأيت الأمر كله؛ كان الكولونيل لاتريل هو الذي أطلق النار ولم تُطلَق أية طلقة أخرى، إلا إذا... ولكن هذا مستحيل بالطبع.

لا، لعله ليس مستحيلاً بل هو أمر بعيد الاحتمال فقط، ولكنه جائز. فلنفترض أن شخصاً آخر كان ينتظر هذه اللحظة، وفي الوقت المناسب وعندما أطلق الكولونيل النار على الأرنب أطلق هذا الشخص الآخر النار على السيدة لاتريل، عندها سنسمع صوت طلقة واحدة. حتى مع اختلاف بسيط كانت الطلقة الثانية ستُعتبَر صدى صوت الطلقة الأولى. والآن وأنا أعيد التفكير أعتقد أنه كان هناك صدى بالفعل.

لا، هذه فكرة سخيفة. توجد عدة طرق لتحديد السلاح الذي انطلقت منه الرصاصة بالضبط، فالعلامة على الرصاصة يجب أن

تطابق علامات أنبوبة البندقية. لكنني تذكرت أن ذلك يحدث فقط عندما يكون الشرطة بحاجة إلى تحديد السلاح الذي أُطلقت منه الرصاصة، ولن يجري تحقيق في الأمر لأن الكولونيل لاتريل كان متأكداً (مثلما كان الجميع) من أنه هو الذي أطلق تلك الطلقة المميتة، وسيعترف بهذه الحقيقة ويقبل بها دون أيّ شك أو سؤال. الشك الوحيد سيكون حول إطلاق النار إن كان عرَضياً أم بنوايا إجرامية... سؤال لا يمكن حله أبداً.

لهذا فهذه القضية تشبه القضايا الأخرى تماماً، تشبه قضية العامل ريغز الذي لا يتذكر ولكن يفترض بأنه فعلها، وماغي ليتسفيلد التي جُنّت وسلمت نفسها معترفة بجريمة لم ترتكبها. نعم، هذه القضية تشبه القضايا الأخرى، ولقد عرفت الآن معنى سلوك بوارو... كان ينتظر منّي أن أدرك تلك الحقيقة.

* * *

الفصل العاشر

-١-

فاتحت بوارو في الموضوع صباح اليوم التالي فأشرق وجهه وهزّ رأسه بتقدير قائلاً: أحسنت يا هيستنغز، لقد تساءلت متى سترى هذا التشابه ولم أكُن أريد توجيه نظرك.

- إذن فأنا على حق، هذه قضية أخرى من قضايا السيد «س»؟

- بالتأكيد.

- ولكن لماذا يا بوارو؟ ما الدافع؟

هز بوارو رأسه فسألتُه: ألا تعلم؟ أليست لديك أية فكرة؟

فقال بوارو ببطء: بلى، لديّ فكرة.

- هل أدركت الصلة بين جميع تلك القضايا المختلفة؟

- أظن ذلك.

- حسناً، ماذا...؟

ولم أستطع ضبط نفسي فقال: لا يا هيستنغز.

- ولكن يجب أن أعرف.

- من الأفضل أن لا تعرف.

- ولماذا؟

- يجب أن تصدقني عندما أقول ذلك.

- كم أنت عنيد! يُقعدك التهاب المفاصل وتجلس هنا لا حول لك ولا قوة، ولا تزال تحاول اللعب وحدك.

- لا تُقنع نفسك بأنني أحاول اللعب وحدي. بالعكس، أنت في الصورة يا هيستنغز، أنت عيناي وأذناي، وأنا فقط أرفض إعطاءك معلومات قد تكون خطيرة.

- خطيرة بالنسبة لي؟

- بل بالنسبة للقاتل.

قلت ببطء: لا تريده أن يشك أنك في أعقابه؟ أظن أن هذا هو الوضع، وإلا فأنت تظن أنني عاجز عن الاعتناء بنفسي.

- يجب أن تعلم شيئاً واحداً على الأقل يا هيستنغز: الرجل الذي يقتل مرة سوف يقتل مرة أخرى وأخرى وأخرى...

قلت بتجهّم: على أية حال لم تقع جريمة أخرى هذه المرة، فهذه الطلقة لم تُصِب الهدف.

- نعم، كان هذا من حسن الحظ حتماً، من حسن الحظ بالتأكيد. وكما أخبرتك فهذه الأمور يصعب التنبؤ بها.

ثم تنهد وغطى وجهَه تعبيرٌ قلق، فانصرفت بهدوء وقد أدركت بحزن عدم استطاعة بوارو تحمّل أيّ جهد. كان عقله لا يزال قوياً ولكنه أصبح رجلاً مريضاً متعَباً.

لقد حذرني بوارو من محاولة اختراق شخصية الرجل المجهول، ولكنني داخل عقلي كنت لا أزال أتعلق باعتقادي بأنني اخترقت هذه الشخصية. لقد كان هناك شخص واحد خطر ببالي ويقيم في «ستايلز»، هو الشر بحد ذاته، وبسؤال بسيط أستطيع التأكد من أمر واحد. ستكون النتيجة سلباً، لكن على الرغم من ذلك فسوف تكون للمحاولة فائدة محدودة.

* * *

أمسكت بجوديث بعد الفطور وقلت لها: أين كنتِ مساء أمس عندما التقيتك أنت والميجور أليرتون؟

المشكلة أنك عندما تكون مستغرقاً في نقطة معينة فأنت تميل إلى تجاهل النقاط الأخرى، وقد فوجئت عندما صاحت جوديث بي قائلة: حقاً يا أبي لا أدري ما دخلك في هذا!

حدقت إليها وقد أُخذتُ بردها، وقلت: أنا أسأل فقط.

- ولكن لماذا؟ لماذا يجب أن تسأل الأسئلة باستمرار؟ ماذا كنتُ أفعل، أين ذهبتُ، مع مَن كنتُ... هذا لا يُحتمَل!

المضحك في الأمر أنني في هذه المرة لم يكُن يهمني أين كانت جوديث بقدر ما كان يهمّني أن أعرف أين كان أليرتون. حاولت تهدئتها فقلت: حقاً يا جوديث أنا لا أدري لماذا لا أستطيع أن أسألك سؤالاً بسيطاً.

- وأنا لا أدري لماذا تريد أن تعرف.

- لا أريد بالتحديد، أعني أنني أتعجب فقط. لماذا لم يعرف أيّ منكما ماذا حدث؟

- أتعني بالنسبة للحادث؟ لقد ذهبتُ إلى القرية -إذا كان لا بد أن تعرف- للحصول على بعض الطوابع.

وركزَت على الضمير الشخصي فسألتُها: هل كان أليرتون معك آنذاك؟

زفرت جوديث بغضب وقالت: لا، لم يكن.

ثم أضافت بنبرة غضب بارد: في الحقيقة التقينا قرب المنزل قبل أن نلقاك بدقيقتين فقط. أرجو أن تكون قد ارتحت الآن، ولكنني أريد أن أقول لك إنني إذا أمضيت اليوم كله مع الميجور أليرتون فهذا من شأني. أنا أبلغ الحادية والعشرين وأعمل وأكسب عيشي، وكيفية قضاء وقتي هو شأني أنا وحدي بالتأكيد.

قلت محاولاً صَدّ الهجوم: بالتأكيد.

فبدت جوديث هادئة وهي تقول: يسعدني أن وافقتَ.

ومنحتني شبه ابتسامة حزينة وأكملت: أبي العزيز، لا تحاول

أن تبالغ في دور الأب الرزين. أنت لا تعلم كم هذا مثير للغضب، لو أنك فقط لا تقلق هكذا!

فوعدتها قائلاً: لن أفعل هذا في المستقبل.

وفي تلك اللحظة أتى فرانكلين يمشي بسرعة وقال: مرحباً يا جوديث. هيا بنا، لقد تأخرنا أكثر من اللازم.

كان سلوكه جافاً ولم يكُن لطيفاً أبداً، وشعرت بالانزعاج رغماً عني. أعلم أن فرانكلين هو ربّ عمل جوديث وأنه يتحكم في وقتها، وبما أنه يدفع ثمنه فله الحق في إعطاء الأوامر، لكني لم أرَ ما يمنعه من التصرف بلباقة على الرغم من ذلك. لن يستطيع أحدٌ أن يصف تصرفه بأنه معقول ومهذَّب، فهو يتصرف مع معظم الناس بقدر من الأدب الاعتيادي، أما مع جوديث، ولا سيما مؤخراً، فقد كان سلوكه دائماً جافاً واستبدادياً بشكل كبير، فهو بالكاد ينظر إليها عندما يتحدث ويكتفي بإعطاء الأوامر فقط.

لم يبدُ على جوديث أنها مستاءة من ذلك، ولكنني كنت أشعر بالاستياء بالنيابة عنها. وقد خطر ببالي أن هذا كان من سوء الحظ، خصوصاً وأنه يتعارض بصورة واضحة مع اهتمام أليرتون المبالَغ به بها. بلا شك كان فرانكلين أحسن من أليرتون بعشر مرات، أما بالنسبة للوسامة فلا يمكن مقارنته به.

راقبت فرانكلين وهو يمشي عبر الممر إلى المعمل مشيته الخرقاء ببنيته النحيلة وعظامه البارزة وشعره الأحمر. كان رجل بشعاً صعب المراس ليست له ميزات واضحة. إنه يتمتع بعقل جيد حقاً، ولكن نادراً ما تُعجب المرأة بالعقل وحده. وفكّرت بأسى

بأن جوديث لم تعرف أنواع الرجال من قبل بسبب ظروف عملها، ولذلك أسرَها سحر أليرتون الكاذب ولم تسنح الفرصة لابنتي المسكينة لتقييمه ومعرفته على حقيقته.

كان الاستياء الذي أبدته علامة مزعجة؛ فأليرتون شخص سيّئ حقاً كما أعلم، وربما كان الأمر أسوأ إذا كان أليرتون هو قاتلنا المجهول. ربما كان كذلك، فهو لم يكُن مع جوديث وقت إطلاق النار. ولكن ما هو دافعه لارتكاب هذه الجرائم بلا معنى؟ كنت واثقاً من أن أليرتون ليس بالرجل المجنون. إنه عاقل ولكنه مجرَّد من المبادئ كلياً، وجوديث ابنتي تقابله كثيراً.

-٢-

حتى ذلك الوقت وبالرغم من أنني كنت قلقاً على ابنتي قليلاً فإن اهتمامي كان موجَّهاً نحو السيد «س» واحتمال حدوث جريمة في أي لحظة، ونجحت في إبعاد مشكلاتي الشخصية قليلاً.

والآن وقد وقعت الضربة وحاول أحدهم ارتكاب جريمة، وقد فشلَت والحمد لله، فقد أصبحتُ حراً للتفكير في هذه الأمور، وكلما فكرت بالأمر ازددت قلقاً. لقد كشفَت لي كلمة سقطت سهواً في أحد الأيام أن أليرتون كان متزوجاً، وقد أخبرني بويد كارنغتون (الذي كان يعرف الكثير عن الجميع) بالمزيد. كانت زوجة أليرتون كاثوليكية ملتزمة، وقد تركته بعد فترة قصيرة من زواجها، لكن الطلاق لم يمكن ممكناً بسبب مذهبها. وقال بويد كارنغتون بصراحة: وإذا سألتَني فهذا يناسب ذلك الفاسد جيداً. لقد كانت

نواياه سيّئة دائماً ويناسبه وجود زوجة في خلفيته الاجتماعية.

مرّت الأيام التي تلَت حادثة إطلاق النار دون ظهور أي أحداث على السطح، ولكنْ صاحَبَها شعورٌ متزايد بعدم الارتياح من جانبي. وأمضى الكولونيل لاتريل الكثير من وقته في غرفة زوجته، ووصلت ممرّضة للعناية بالمريضة وعادت الممرّضة كارفن تستأنف تقديم خدماتها للسيدة فرانكلين.

لا أريد أن أكون مشاكساً، ولكن يجب أن أعترف بأنني لاحظت بعض إشارات انزعاج من جانب السيدة فرانكلين لعدم كونها المريض الوحيد، وبدا واضحاً أن الاهتمام والقلق اللذين تركّزا على السيدة لاتريل لم يحقّقا الرضا للسيدة الصغيرة التي اعتادت أن تكون صحتها محور الحديث يومياً.

استلقت في كرسيها الهزّاز ويداها على جانبها، تتذمر من سرعة نبضات قلبها ولا يناسبها أيّ نوع من الأغذية التي تُقدَّم لها، وكل معاناتها محاطة بمظهر مخادع من الصبر الكاذب. همسَت لبوارو بحزن: كم أكره إحداث الجلبة، كم أشعر بالخجل من صحتي البائسة! إنه لأمر مُخزٍ أن أُضطرّ دائماً إلى طلب المساعدة من الناس. أحياناً أظن أن المرضَ جريمةٌ في الحقيقة... إذا لم يكُن المرء سليماً فهو لا يناسب هذا العالَم ويجب أن يُدفَن بهدوء.

قال بوارو بودٍ وشهامة كعادته: لا يا سيدتي، تحتاج الزهرة الرقيقة إلى بيت زجاجي لحمايتها لأنها لا تستطيع تحمّل الرياح الباردة. إنها تلك الأعشاب العادية التي تعيش في الجو البارد، ولكن لا يُنظَر إليها بتقدير لهذا السبب. انظري إلى حالتي: أنا مُقعَد وعاجز

عن الحركة، ولكنني لا أفكر بترك هذه الحياة بل أستمتع بما أقدر، الطعام والشراب ومباهج العقل.

تنهدت السيدة فرانكلين وهمسَت: لكن الأمر مختلف بالنسبة لك؛ فليس لديك مَن ترعاه سوى نفسك، أما في حالتي فيوجد المسكين جون. أنا أشعر بشدة بأنني عبء على عاتقه، مجرَّد زوجة مريضة لا فائدة منها، صخرة معلَّقة بعنقه.

- أنا متأكد من أنه لم يقُل ذلك عنك قط.

- نعم، هو لم يقُل ذلك، لكن الرجال شفّافون جداً يا عزيزي بوارو، وجون ليس ماهراً في إخفاء مشاعره. إنه لا يقصد أن يكون قاسياً بالطبع ولكنه رجل بليد الأحاسيس والمشاعر، وبما أنه لا يمتلك المشاعر فإنه يفترض أنّ غيره لا يمتلكها. إنه لمحظوظ لأنه وُلد عديم الإحساس.

- لا يمكنني وصف الدكتور فرانكلين بأنه عديم الإحساس.

- لا يمكنك ذلك، ولكنك لا تعرفه كما أعرفه أنا. بالطبع أعلمُ أنه سيكون طليقاً دوني. أحياناً أشعر بالاكتئاب الشديد بحيث أفكّر كم سيكون مريحاً أن ينتهي كل هذا.

قال بوارو: على رسلك يا سيدتي!

لكنها تابعت قائلة: ما نفعي لأيّ إنسان؟ الخروج من ذلك كله إلى المجهول.

وهزّت رأسها وأضافت: وعندها سيكون جون حراً.

* * *

عندما أعدتُ ما حدث على مسامع الممرّضة كارفن قالت: هراء، إنها لن تفعل شيئاً من هذا القبيل. لا تقلق يا كابتن هيستنغز؛ أولئك الذين يتحدثون عن الانتحار بصوت مسموع لا ينوون فعل أيّ شيء أبداً.

ويجب أن أقول إنه وما إن زالت الإثارة التي سبّبَتها إصابة السيدة لاتريل وعادت الممرّضة كارفن لتكون في الخدمة حتى تحسّنَت معنويات السيدة فرانكلين كثيراً.

وفي صباح أحد الأيام المشرقة ساق كيرتس بوارو إلى زاوية تحت أشجار الدرّاق قرب المختبَر. كانت تلك بقعته المفضّلة حيث كانت محميّة من الرياح الشرقية، وفي الواقع فأنت بالكاد تشعر بأي نسمة هناك، وكان هذا يناسب بوارو الذي يكره مجرى الهواء ويشكو دائماً من الهواء النقي. وفي الواقع أظن أنه يفضّل البقاء داخلاً، ولكنه تعود احتمال الهواء الخارجي إذا تم لفه بالأغطية جيداً.

مشيت لكي أنضمّ إليه، وما إن وصلت إليه حتى كانت السيدة فرانكلين قد خرجت من المختبَر. كانت مرتدية ثيابها بشكل جذّاب وبدت مرحة جداً، وأوضحت أنها ستذهب مع بويد كارنغتون لرؤية منزله ولتعطيه نصائحها الخبيرة في اختيار الأقمشة، وشرحَت لنا قائلة: لقد نسيتُ حقيبتي في المختبَر بالأمس عندما كنت أتحدث مع جون. يا للمسكين جون! لقد ذهب هو وجوديث إلى تادكاستر لإحضار بعض الكواشف الكيميائية أو أشياء من هذا القبيل.

غرقت في مقعدها بالقرب من بوارو وهزّت رأسها بتعبير مضحك قائلة: يا لعزيزي المسكين! كم أنا سعيدة لأنني لا أملك

عقلاً علمياً، ففي يوم لطيف مثل هذا يبدو ذلك كله صبيانياً.

قال بوارو: لا تدعي العلماء يسمعونك وأنت تقولين ذلك يا سيدتي.

- بالطبع لن أفعل.

ثم تغيّر وجهها فأصبح جاداً وقالت بهدوء: لا تظن أنني غير معجَبة بزوجي يا سيد بوارو، بل أنا معجَبة به وأظن أن طريقته في تكريس حياته لعمله أمرٌ رائع في الحقيقة.

بدا في صوتها ارتعاش بسيط، وشككتُ في أن السيدة فرانكلين تحب أن تلعب أدواراً عدة؛ فهي تلعب في هذه اللحظة دور الزوجة المخلصة التي تمجد زوجها البطل. واتكأت إلى الأمام واضعة كفّها على ركبة بوارو وهي تقول: جون يبالغ في إنكار ذاته في الحقيقة، وهذا الأمر يخيفني أحياناً.

أحسست أن في قولها مبالَغة، لكنها تابعت وعيناها تشعّان: فرانكلين مستعد لفعل أيّ شيء، إنه يصنع أيّ شيء ليزيد من قدر المعرفة البشرية! وهذا أمر جميل، ألا تظن ذلك؟

قال بوارو بسرعة: بالتأكيد، بالتأكيد يا سيدتي.

وتابعت السيدة فرانكلين: ولكنني أحس بالغضب تجاهه أحياناً، أعني بسبب المدى الذي يذهب إليه. هذه المادة المريعة التي يُجري تجارِبه عليها... أخشى أن يبدأ التجرِبة بها على نفسه ذات يوم.

فقلتُ: سوف يأخذ كافة الاحتياطات بالتأكيد.

هزّت رأسها بابتسامة حزينة وقالت: أنت لا تعرف جون، هل سمعت قط عمّا فعل بهذا الغاز الجديد؟

هززت رأسي نفياً فقالت موضّحة: كان ذلك نوعاً جديداً من الغاز أرادوا التعرف إلى خواصه فتطوع جون لاختباره، فأغلق عليه في خزان لمدة ست وثلاثين ساعة تقريباً حيث تم قياس نبضه وحرارته وتنفسه. كانت مخاطرة مخيفة كما أخبرني أحد الأساتذة لاحقاً؛ فقد كان من المحتمَل أن يموت! ولكن جون من ذلك النوع من الرجال الذي يتناسى سلامته دائماً. أظن أنه من الرائع أن يكون المرء هكذا، ألا تظن ذلك؟ لا أظن أنني سأكون شجاعة بما فيه الكفاية.

قال بوارو: في الواقع إنها لشجاعة نادرة أن يصنع المرء مثل هذه الأمور بأعصاب باردة.

فقالت باربرا فرانكلين: نعم، هو كذلك، وأنا فخورة جداً به كما تعلم. ولكن هذا يجعلني أشعر بالغضب في الوقت نفسه، فحيوانات التجارب لا تصلح بعد مرحلة معيّنة حيث تصبح الحاجة ملحة إلى رد فعل إنساني، ولذلك أشعر بالخوف من أن يقوم جون بإعطاء نفسه جرعة من تلك الحبوب فيحدث له أمر سيّئ.

في تلك اللحظة قدم بويد كارنغتون نحونا قائلاً: مرحباً بابس، هل أنت مستعدة؟

- نعم يا بيل، وأنا في انتظارك.

- أرجو أن لا يتعبك الأمر كثيراً.

- بالطبع لا، أنا أشعر اليوم بتحسن لم أشعر به منذ وقت طويل.

ونهضت فابتسمت لنا ثم مشت عبر المرج مع مرافقها الطويل. قال بوارو: الدكتور فرانكلين، المضحّي العظيم!

- بل هو تغير في اللهجة فقط، أما التضحية فدور السيدة الآن.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنها اعتادت وضع نفسها في عدة أدوار؛ فهي الزوجة المنبوذة التي يُساء فهمها في بعض الأيام، وفي أيام أخرى هي المرأة التي تضحي بنفسها وتكره أن تكون عبئاً على الرجل الذي تحب، أما اليوم فهي الزوجة المحبة عابدة البطل. لكن المشكلة أنها تبالغ في أداء جميع الأدوار.

قال بوارو بعمق: أنت تظن أن السيدة فرانكلين غبية، أليس كذلك؟

- حسناً، لا أقول ذلك، لكنها قد لا تكون ذكية جداً.

- آه، إنها ليست من النوع المفضل لديك.

فصرختُ: ما هو النوع المفضل لديّ؟

أجاب بوارو فجأة: افتح فمك وأغلق عينيك وانظر ماذا ستبعث لك الجنّيات.

منعني من الإجابة حضورُ الممرّضة كارفن تمشي بسرعة على العشب، وابتسمت لنا ثم فتحت باب المختبَر ودخلت وعادت ومعها زوجَان من القفازات وهي تقول: أولاً حقيبة والآن قفازان! لا بدّ من نسيان شيء ما دائماً.

قالت ذلك وهي تسرع عائدة إلى حيث كانت باربرا فرانكلين وبويد كارنغتون ينتظران. كانت السيدة فرانكلين -كما أظن- من النوع اللامبالي وتترك الأشياء وراءها، تضيع ممتلكاتها وتتوقع من الجميع أن يعيدها، بل لقد كانت فخورة بنفسها لفعل ذلك، ولقد سمعتُها أكثر من مرة وهي تهمس برضا: أنا أملك عقلاً كالمنخل.

وجلستُ أنظر إلى الممرّضة كارفن وهي تركض عبر المرج وتختفي عن الأنظار. كانت تركض جيداً وبدت ذات جسم قويّ ومتوازن، وقلت باندفاع: أظن أن الفتاة قد تملّ من هذا النوع من الحياة، أعني عندما لا تكون هناك حاجة لكثير من التمريض، عندما تكون مهمتها فقط إحضار الأشياء وحملها، ولا أظن أن السيدة فرانكلين عطوفة أو مراعية للآخرين.

وكان رد بوارو مزعجاً إلى حد كبير، فقد أغلق عينيه وهمس: شعر أحمر!

بالتأكيد كان شعر الممرّضة كارفن من ذلك اللون، ولكن لم أرَ لماذا اختار بوارو تلك اللحظة بالذات للتعليق على ذلك! ولم أعطِه ردّاً.

* * *

الفصل الحادي عشر

أظن أن ذلك كان في صباح اليوم التالي قبل الغداء عندما جرت المحادثة التي تركتني قلقاً بشكل غامض. كنّا أربعة: جوديث وأنا وبويد كارنغتون ونورتون. لا أدري كيف بدأ الموضوع بالضبط، ولكنا كنا نتحدث في موضوع «القتل رأفة بالمريض» ونذكر ما له وما عليه، وكالعادة قام بويد كارنغتون بمعظم الحديث في حين قال نورتون كلمة هنا وكلمة هناك وجوديث تجلس بصمت ولكن بانتباه.

اعترفت بأنه رغم وجود كافة الأسباب لتأييد هذا العمل ظاهرياً إلاّ أنني أشعر بالنفور منه في الحقيقة، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أظنه يعطي المزيد من القوة لأقارب المريض. وأيّدني نورتون وأضاف أنه يظن أن من الواجب أخذ موافقة المريض نفسه قبل الإقدام على هذا العمل عندما يكون الموت مؤكّداً بعد معاناة طويلة الأمد. وقال بويد كارنغتون: ولكن هذا هو الأمر الغريب. هل يتمنى الشخص صاحب الشأن أن يقتل نفسه ليضع حداً لآلامه كما تقول؟!

وروى لنا قصة (قال إنها حقيقية) عن رجل يعاني من ألم فظيع جرّاء مرضه بالسرطان الذي لا يمكن استئصاله، وقد توسل ذلك الرجل إلى طبيبه أن يعطيه شيئاً يُنهِي ذلك كله، لكن الطبيب قال له:

"لا أستطيع عمل ذلك أيها العجوز". وعندما كان الطبيب مغادراً ترك بالقرب من المريض بعض حبوب المورفين وأخبره كم عدد الحبات التي يمكنه تناولها بأمان وكم هي الجرعة التي ستكون خطيرة. وعلى الرغم من أن تلك الحبوب تُركت بين يدَي المريض وأنه كان بإمكانه أخذ الكمية القاتلة بسهوله إلا أنه لم يفعل، وهذا يثبت أنه قد فضّل المعاناة على الموت السريع الرحيم بالرغم من كلماته.

وللمرة الأولى تكلمت جوديث فجأة وبقوة قائلة: بالطبع سوف يتصرف هكذا؛ لم يكُن من الواجب أن يُترك الأمر له ليقرر.

سألها بويد كارنغتون عمّا عنته بذلك فقالت: أعني أن أيّ شخص ضعيف بسبب المرض والألم لا يملك القوة لاتخاذ قرار. ليس بإمكانهم ذلك، بل يجب أن يتخذ شخصٌ ما القرارَ نيابة عنهم، هذا من واجب الشخص الذي يحبهم.

سألتُها بسرعة: واجب؟

فقالت وكأنها تهاجمني: نعم، واجب. تلك مسؤولية الشخص ذي العقل السليم الواضح.

هزّ بويد كارنغتون رأسه قائلاً: لينتهي به الأمر في السجن متهَماً بالقتل؟

- ليس بالضرورة. وعلى أي حال إن أنت أحببت شخصاً ما فسوف تجازف بالأمر.

قال نورتون: لحظة واحدة يا جوديث، إن ما تقترحينه مسؤولية كبيرة.

- لا أعتقد ذلك، فالناس يخشون تحمل المسؤولية. يمكنهم تحمل مسؤولية كلب فلماذا لا يتحملون مسؤولية إنسان؟

- هذا مختلف، أليس كذلك؟

- بلى، بل هو أكثر أهمية.

غمغم نورتون: أنتِ تخيفينني.

وسألها بويد كارنغتون بفضول: إذن فأنت على استعداد لتحمل المخاطر، أليس كذلك؟

- أظن ذلك، أنا لا أخشى المخاطرة.

هز بويد كارنغتون رأسه وقال: هذا لا يصلح كما تعلمين؛ لا يمكن السماح للناس هنا وهناك وفي كل مكان بأن يقرروا في أمور الحياة والموت.

قال نورتون: في الحقيقة فإن معظم الناس لا يملكون الجرأة لتحمل المسؤولية كما تعلم يا بويد كارنغتون.

وابتسم بلطف وهو ينظر إلى جوديث وأكمل: لا أظن أنه بإمكانك فعل ذلك إذا وُضعتِ على المحكّ.

قالت جوديث باتزان: بالطبع لا يمكن للمرء التأكّد من ذلك، لكن أظن أنني سأكون قادرة على فعل هذا الأمر.

فقال نورتون وقد اهتزت عيناه قليلاً: ربما استطعتِ لو كنتِ طرفاً في حالة مشابهة.

احمرّ وجه جوديث وقالت بحدة: هذا يثبت أنك لا تفهم الأمر أبداً. إذا كان لديّ دافع شخصي فلن أستطيع عمل شيء، ألا ترى؟

ثم توجهت إلينا جميعاً وأكملَت: يجب أن يكون الأمر غيرَ شخصي. يمكنك أن تتحمل مسؤولية إنهاء الحياة إذا كنت متأكداً من دوافعك، يجب أن يكون الأمر غير أناني.

قال نورتون: بغضّ النظر فلن تفعلي ذلك.

فقالت بإصرار: بل أستطيع، فأولاً أنا لا أعتبر الحياة بالأهمية التي ترونها جميعاً، فالحياة السقيمة وغير المفيدة يجب إزالتها من الطريق. فقط أولئك الذين يُسهِمون في خدمة المجتمع هم الذين يجب أن يُسمَح لهم بالحياة، أما الآخرون فيجب إزالتهم بطريقة غير مؤلمة.

ثم نظرت إلى بويد كارنغتون فجأة وقالت: أنت تتفق معي، أليس كذلك؟

فقال ببطء: من ناحية المبدأ أوافقك؛ فلا ينبغي أن يعيش سوى الأشخاص النافعين.

- ألن تأخذ القانون بيديك وتطبقه إذا اقتضى الأمر؟

قال بويد كارنغتون ببطء: ربما صنعت ذلك، لا أدري.

وقال نورتون ببطء: كثير من الناس يوافقون معك نظرياً لكن التطبيق أمر مختلف، فهذا غير منطقي.

ثم تابع وقد نفد صبره: بالطبع ليس منطقياً، تلك في الحقيقة مسألة شجاعة. دعيني أصفها لك بصراحة: لا يملك المرء الجرأة على هذا.

صمتت جوديث وتابع نورتون قائلاً: في الواقع يا جوديث وكما تعلمين: لن يكون الوضع مختلفاً بالنسبة لك، لا تملكين الشجاعة عندما توضعين في تجربة حقيقية.

- هل ترى ذلك؟

- أنا متأكد من ذلك.

قال بويد كارنغتون: أظن أنك مخطئ يا نورتون، أظن أن جوديث تمتلك شجاعة هائلة، ولحسن الحظ فالمسألة غير واردة الآن.

وسمعنا صوت جرس الطعام آتياً من المنزل، فنهضت جوديث وقالت بوضوح لنورتون: أنت مخطئ؛ فانا أملك من الجرأة أكثر مما تظن.

ومضت بسرعة نحو المنزل فلحق بها بويد كارنغتون قائلاً: انتظريني يا جوديث.

تبعتُهم وأنا أشعر بالقلق لسبب ما، ولأن نورتون شعر بمزاجي فقد حاول مواساتي فقال: جوديث لا تعني ذلك كما تعلم، هذه مجرّد أفكار غير مدروسة يمتلكها الفرد في شبابه، ولكنه لا ينفذها لحسن الحظ ويبقى الأمر مجرّد كلام.

أظن أن جوديث سمعتنا لأنها رمقتنا بنظرة غاضبة من فوق كتفيها، فخفض نورتون صوته وقال: النظريات لا تُقلِق أيّ شخص، ولكن...

- ماذا؟

بدا نورتون محرَجاً وقال: لا أريد التدخل، ولكن ماذا تعرف عن أليرتون؟

- أليرتون؟

- نعم، عذراً إذ كنت فضولياً لكن لو كنتُ مكانك لما سمحت لابنتي بأن تراه كثيراً. إنه... حسناً، ليست سمعته حسنة.

فقلت بمرارة: أنا أعرف نوعيته تماماً، ولكن الأمر ليس سهلاً هذه الأيام.

- آه، أعلم، تستطيع الفتيات الاعتناء بأنفسهن كما يقلن، ومعظمهن يمكنهن ذلك أيضاً، ولكن... حسناً، أليرتون يمتلك أسلوباً خاصاً في هذا المجال.

وتردد قليلاً ثم قال: أشعر بأنه يجب عليّ أن أخبرك. لا تسمح للأمر بالتطور بالطبع، ولكني أعرف شيئاً سيّئاً عنه.

وأخبرني فوراً، واستطعت التأكد لاحقاً من كل كلمة قالها. كانت رواية تثير الاشمئزاز؛ قصة فتاة عصرية واثقة من نفسها ومستقلة استعمل أليرتون كافة أساليبه للإيقاع بها، ولاحقاً أتى الجانب الآخر من الصورة، وانتهت القصة بأن قضت الفتاة البائسة

على حياتها بتناول جرعة مضاعفة من حبوب الفيرونال المنومة. كان الجزء المخيف أن الفتاة المقصودة كانت من نفس نوعية جوديث، النوع المستقلّ المثقف، ذلك النوع من الفتيات اللاتي يحببن -إذا أحببن- بحماسة لا تعرفها الفتيات من النوع السخيف الخليع.

وذهبتُ إلى الغداء يراودني إحساس فظيع بأن مصيبة ستحدث.

* * *

الفصل الثاني عشر

-١-

سألني بوارو ذلك المساء: أيوجد ما يقلقك يا صديقي؟

ولم أجِبه بل اكتفيت بهزّ رأسي، وشعرتُ بأنني لا أملك الحق في إرهاق بوارو بمشكلتي الشخصية المحضة، وعلى أية حال لم يكُن باستطاعته مساعدتي؛ كانت جوديث ستقابل أيّ اعتراض من جانبه بابتسامة تعكس تحيّز الشباب ضدّ نصائح الكبار المملة.

من الصعب الآن أن أصف ما مررت به ذلك اليوم، ولكنْ بعدما فكرت في الأمر لاحقاً وجدت نفسي مضطرّاً إلى إعادة السبب إلى جوّ «ستايلز» نفسه، حيث تسيطر الأفكار الشريرة على العقل بسهولة. لم يكُن ذلك بسبب الماضي فقط، بل والحاضر الفاسد أيضاً... ظلال المجرم والجريمة تلاحق هذا المنزل! وباعتقادي فإن القاتل هو أليرتون، وقد وقعت جوديث في شباكه. كان ذلك أمراً يصعب تصديقه، أمراً رهيباً، ولم أدرِ ماذا أفعل!

* * *

بعد الغداء أخذني بويد كارنغتون جانباً، وقد تردّد وتلعثم في كلامه قبل أن يدخل في الموضوع، وأخيراً قال بتشنج: لا تظن أنني أتدخل، ولكن أظن أنه يجب عليك التحدث. هل حذرتَ ابنتك؟ أنت تعرف هذا الشخص أليرتون، إن سمعته سيّئة جداً، وهي... حسناً، يبدو ذلك شبيهاً بقصة سمعتها...

من السهل بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين ليس لديهم أولاد التحدث هكذا. أحذّرها؟ هل سيفيد تحذيري أم أنه سوف يزيد الأمور سوءاً؟

لو أن زوجتي كانت هنا لعرفت كيف تتصرف! وأردت أن ألتزم الصمت وأن لا أتفوّه بشيء، لكنني فكرت بعد فترة بأن هذا نوع من الجبن والتهرب، ونفرت من فكرة بغيضة هي التحدث حديثاً صريحاً مع جوديث؛ لقد كنت خائفاً من ابنتي الجميلة!

أخذت أذرع الحديقة جيئة وذهاباً وفي كل مرة يزداد قلقي، وقادتني قدماي إلى حديقة الأزهار حيث خرج الأمر من يدي، فقد كانت جوديث تجلس وحدها على المقعد، ولم أرَ من قبل في حياتي كلها مثل هذا الحزن العميق على وجه أية امرأة!

سقط القناع وظهرت مكانه الحيرة والتعاسة بوضوح، فاستجمعت شجاعتي وذهبت إليها، ولم تسمعني إلا عندما صرت إلى جانبها. قلت لها: جوديث، بالله عليك لا تقلقي هكذا.

التفتت نحوي وقد فوجئت وقالت: أبي، لم أسمع صوت اقترابك!

تابعتُ وأنا أعلم مبلغ الخطر فيما أقول: آه يا طفلتي العزيزة! لا تظني أنني لا أعرف أو أنني لا أرى. إنه لا يستحق ذلك، صدقيني، لا يستحق ذلك.

التفت وجهها التعِس نحوي ثم قالت بهدوء: أتعتقد حقاً أنك تدرك عمَّ تتحدث؟

- أنا أعلم، أنت تهتمين بذلك الرجل، ولكن هذا لن يفيد يا عزيزتي.

ابتسمت ابتسامة حزينة تحطّم القلب ثم قالت: لعلي أعرف هذا كما تعرفه أنت.

- أنتِ لا تعلمين، آه يا جوديث! ماذا ستستفيدين من ذلك كله؟ إنه رجل متزوج ولا مستقبل أمامك معه، بل الحزن والخجل، وسينتهي الأمر كله بأن تكرهي نفسك وتحتقريها.

اتسعت ابتسامتها وازدادت أسى وهي تقول: أنت تتكلم بطلاقة، أليس كذلك؟

- فلتنسيه يا جوديث، تخلّي عن الأمر كله.

- لا.

- هذا الرجل لا يستحق ذلك يا عزيزتي.

قالت بهدوء وبطء: إنه يعني كل شيء في العالم بالنسبة لي.

- لا، لا يا جوديث، أرجوك!

فاختفت ابتسامتها والتفتت نحوي مثل امرأة حاقدة تريد الانتقام وقالت: كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على التدخل؟ لن أقبل بهذا. أنت لن تتحدث معي في هذه الموضوع مرة أخرى! هذا الأمر لا يخصك فهذه حياتي الخاصة، سرّي في هذه الحياة.

ثم نهضت ودفعتني جانباً بيد ثابتة قوية وتجاوزتني، وبقيت جامداً أحدق إليها بقلق.

-٢-

مضت ربع ساعة وأنا ما أزال جامداً في موضعي مدهوشاً عاجزاً عن التفكير في خطوتي التالية، وكنت كذلك حينما عثر عليّ نورتون وإليزابيث كول. ولا بد أنهما لاحظا ما بي من الاضطراب الذهني، ولكنهما كانا لبقَين فلم يشيرا ولو بإشارة بسيطة إلى حالتي الذهنية تلك، وبدلاً من ذلك فقد أخذاني معهما للتجوّل.

كان كلاهما من محبي الطبيعة، وأشارت إليزابيث إلى وردة برية وأراني نورتون بعض الطيور بواسطة منظاره، وكان حديثهما رقيقاً لطيفاً يدور حول الطيور والأزهار البرّية، وعدت شيئاً فشيئاً إلى حالتي الطبيعية ولكني كنت لا أزال في حالة من الاضطراب الشديد في داخلي. والأكثر من ذلك أنني (وكما يحدث لمعظم الناس) كنت مقتنعاً بأن أيّ أمر سيحدث سوف يكون مرتبطاً بحالة الارتباك التي أعاني منها.

هتف نورتون ومنظاره على عينيه: مرحى، يبدو أن هذا نقّار الخشب. في حياتي لم...

ثم توقف فجأة عن حديثه فشككتُ فوراً في الأمر، ومددت يدي طالباً المنظار وقلت: دعني أنظر.

فأخذ نورتون يعبث بمنظاره ثم قال بصوت غريب متردد: أنا... لقد أخطأت، لقد طار. كان طائراً عادياً في الحقيقة.

كان وجهه شاحباً مضطرباً وتجنب النظر إلينا وبدا متضايقاً، وحتى الآن فأنا لا أظن بأنني كنت غير منطقي في استنتاجي بأنه قد شاهد شيئاً بمنظاره وأنه كان مصرّاً على منعي من مشاهدته. ومهما كان ذلك الذي شاهده فقد أدهشه بشدة، وقد بدا ذلك واضحاً لكلينا.

كان منظاره موجَّهاً نحو شريط بعيد من الغابة، فماذا رأى هناك؟

قلت بحزم: "هات المنظار"، وخطفتُه منه. وأتذكر أنه قد حاول منعي من أخذه، ولكنه فعل ذلك بشكل أخرق فأخذتُه بجفاء، فقال نورتون بضعف: لم يكُن ذلك حقاً، أعني أن الطائر قد اختفى، أتمنى...

وبينما كانت يداي ترتجفان قليلاً عدّلت المنظار ليناسب عيني. كانت عدسته قوية، ووجّهتُه بقدر المستطاع إلى البقعة التي اعتقدت بأن نورتون كان ينظر إليها ولكنني لم أرَ شيئاً، مجرَّد ومضة من البياض تختفي بين الأشجار. وأنزلت المنظار، ودون أية كلمة أعدتُه إلى نورتون.

بدا نورتون قلقاً ومرتبكاً ولم ينظر إلى عينيّ، ثم عدنا إلى

المنزل جميعاً، وأذكر أن نورتون بقي صامتاً طول الطريق.

-٣-

عاد بويد كارنغتون والسيدة فرانكلين بعد وقت قصير من عودتنا إلى المنزل. كان قد أخذها بسيارته إلى تادكاستر لأنها أرادت التسوق، وقد تسوقَت جيداً -فيما يبدو- لأنها أخرجت العديد من المشتريات من السيارة، وبدت مفعمة بالحيوية والنشاط وتتحدث وتضحك وقد عادت النضارة إلى وجنتَيها. أرسلَت بويد كارنغتون إلى الأعلى وهو يحمل الحقائب التي تحتوي على البضائع سهلة الكسر، وقد حملت أنا البضائع الأخرى بشهامة.

كان حديثها أكثر سرعة وعصبية من المعتاد، قالت: الجو شديد الحرارة، أليس كذلك؟ أظن أن عاصفة ستهبّ، أرجو أن يعتدل هذا الطقس قريباً! يقولون -كما تعلم- إن في المياه نقصاً، هذا أسوأ جفاف يحدث منذ سنين.

ثم تابعَت وقد التفتَت نحو إليزابيث كول: ماذا كنتِ تفعلين بنفسك؟ أين جون؟ آه، لقد قال إنه يعاني من صداع وإنه سوف يذهب للمشي لكي يرتاح منه. ليس من عادته أن يعاني من الصداع، أظن أنه قلق على تجارِبه، يبدو وكأنها لا تسير كما ينبغي... كم أتمنى لو أنه يحدثني عن هذه المواضيع أكثر.

وتوقفت هنيهة ثم تحدثَت مخاطبة نورتون: أنت صامت يا سيد نورتون. ما الأمر؟ تبدو خائفاً، أرجو أنك لم ترَ شبح السيدة العجوز أياً كانت؟

جفل نورتون وقال: أنا لم أرَ أيّ شبح، فقط كنت أفكّر في أمر ما.

وفي تلك اللحظة دخل كيرتس عبر الباب وهو يدفع بوارو على كرسيه، وتوقف بالكرسي في القاعة تمهيداً لإخراج سيده منه وحمله إلى الأعلى. وتنقّل بوارو ببصره بيننا وبدت عيناه يقظتَين فجأة وقال بحدة: ما الأمر؟ هل من مشكلة؟

ولم يجِب أيّ منّا للحظة، ثم ضحكَت السيدة فرانكلين ضحكة مصطنَعة قائلة: بالطبع لا، ماذا يمكن أن يحدث؟ لعل عاصفة رعدية ستثور، هذا كل ما في الأمر. يا إلهي، أنا متعَبة جداً. لعلك تتفضل بجلب هذه الأغراض إلى الأعلى يا كابتن هيستنغز؟ شكراً جزيلاً.

وتبعتُها على الدرَج ثم عبْر الجناح الشرقيّ حيث كانت غرفتها الأخيرة في ذلك الجناح، وفتحَت السيدة فرانكلين الباب وكنت خلفها ويداي ممتلئتان بما اشترته، وتوقفتُ فجأة عند عتبة الباب. كانت الممرّضة كارفن تتفحص يد بويد كارنغتون عند النافذة، فنظر نحونا وضحك بارتباك قائلاً: مرحباً، أنا أحاول معرفة حظي؛ الممرّضة كارفن تقرأ الحظ.

- حقاً؟ لم أعرف ذلك.

كان صوت باربرا فرانكلين حادّاً، ولم تكُن لديّ أية فكرة بأنها كانت متضايقة من الممرّضة كارفن. قالت لها: أرجو أن تأخذي هذه الأشياء من فضلك أيتها الممرّضة، وإذا أمكن أعدّي لي شراب

البيض وزجاجة ماء حارّ. أنا أشعر بالتعب الشديد وسأذهب إلى الفراش بأسرع ما يمكن.

- بالتأكيد يا سيدة فرانكلين.

باشرَت الممرّضة كارفن عملها دون أن تُظهر أيّ شيء باستثناء الاهتمام المهنيّ. وقالت السيدة فرانكلين: أرجوك أن تذهب يا بيل، أنا تعِبة جداً.

وبدا بويد كارنغتون قلقاً جداً وهو يقول: يا إلهي يا بابس! هل أتعبتك كثيراً؟ أنا آسف. كم كنتُ غبياً وأنانياً! ما كان ينبغي أن أدعك ترهقين نفسك.

فوجهَت له السيدة فرانكلين ابتسامة ملائكية عذبة وهي تقول: لا أرغب أن أقول أي شيء، فأنا أكره أن أكون مملّة.

وخرجنا من الغرفة خجلَين وتركنا المرأتين معاً. قال بويد كارنغتون بندم: كم كنت غبياً! لقد بدت باربرا مشوقة ومرحة بحيث نسيت كل شيء عن وجوب عدم إرهاقها. أرجو أن لا تكون قد أرهقت نفسها كثيراً.

قلت تلقائياً: أعتقد أنها ستكون على ما يرام بعد أن ترتاح وتنام.

نزل هو إلى الطابق السفلي في حين ترددْتُ أنا ثم ذهبت إلى الجناح الآخر حيث توجد غرفتي وغرفة بوارو. كان صديقي الضئيل ينتظرني، وللمرة الأولى كنت متردداً في الذهاب إليه. كان لديّ الكثير مما يشغل بالي وكنت ما زلت أعاني من ذلك الشعور

بالمرض في أعماق معدتي. مشيت عبر الممر ببطء، ومن غرفة أليرتون سمعت بعض الأصوات. لم أكُن أنوي استراق السمع على الرغم من أنني توقفت تلقائياً للحظة خارج باب غرفته، ثم فجأة فُتح الباب وخرجَت ابنتي جوديث!

وتجمدَت عندما رأتني فأمسكتُها من ذراعها ودفعتها بقوة إلى غرفتي. لقد أُصبتُ فجأة بالغضب الشديد فقلت لها: ما معنى دخولك إلى غرفة هذا الشخص؟

نظرَت إليّ بثبات ولم يظهر عليها الغضب بل البرود التامّ فقط، ولثوانٍ عدة لم تجِب عن سؤالي، فهززتُها من ذراعها قائلاً: لن أسمح بذلك، لقد أخبرتك، أنتِ لا تدرين ماذا تفعلين.

وعندها قالت بصوت منخفض جارح: أظن أن لك عقلاً شكّاكاً.

- لا أظن ذلك، هذا هو ما يحبّ جيلكم اتهام جيلي به. على الأقل لدينا مبادئ. افهمي هذا جيداً يا جوديث، أنا أمنعك بشكل قاطع من أن يكون لك أية صلة بهذا الرجل بعد الآن.

نظرَت إليّ بهدوء وقالت: حسناً، إذن فهذا هو الأمر.

- هل تنكرين أنك تحبينه؟

- لا.

- ولكنك لا تعلمين أيّ نوع من الأشخاص هو، ليس باستطاعتك أن تعرفي ذلك.

وبتعمّد ودون أيّ تهذيب وتنميق لكلامي أعدتُ على مسامعها القصة التي سمعتها عن أليرتون، وعندما انتهيت قلت: أترين الآن أيّ إنسان سيّئ متوحش هو؟

- أؤكد لك أنني لم أظن يوماً أنه قدّيس.

- ألا يغيّر هذا شيئاً بالنسبة لك؟ لا يمكن أن تكوني فاسدة إلى هذا الحد يا جوديث!

- يمكنك تسميتي هكذا إن أردتَ.

- جوديث، أنتِ لم... أنتِ لا...

لم أستطع التعبير عن أفكاري بالكلمات، وانتزعَت يدها من يدي التي احتجزَتها وقالت: والآن اسمع يا أبي، أنا أفعل ما أريد ولا يمكنك التحكّم بي، ولن تفيد القسوة. سأتصرف في حياتي كما أشاء ولن تستطيع إيقافي.

وخلال لحظة كانت قد خرجَت من الغرفة، ولاحظتُ أن ركبتَيّ كانتا ترتجفان فجلست على أحد المقاعد. كان الأمر أسوأ مما تصورت بكثير؛ كانت مفتونة به كلياً، ولم أعرف أحداً أستطيع التوجه إليه سوى أمّها؛ المخلوق الوحيد الذي كانت ستستمع إليه.

لكن أمها ماتت والأمر كله يعتمد عليّ. آه، لا أظن أنني عانيتُ قط مثلما عانيتُ في تلك اللحظات القاسية.

-٤-

بعد ذلك نهضت فغسلت وجهي وحلقت ذقني وغيّرت

ملابسي ثم نزلت لتناول العشاء، وتصرفت -على ما أظن- بصورة طبيعية، ولا يبدو أن أحداً قد لاحظ أي شيء.

لاحظت مرة أو اثنتين أن جوديث رمتني بنظرة فضولية. أظن أنها كانت محتارة من كيفية استطاعتي التصرف بصورة طبيعية، ولكني صممت في قرارة نفسي على تنفيذ خطة ما، وكان كل ما أحتاج إليه هو الشجاعة والذكاء.

بعد العشاء خرجنا جميعاً نتأمل السماء، وتحدّثنا عن الطقس وتنبأنا بعاصفة رعدية ممطرة، ولاحظت بطرف عيني أن جوديث اختفت عن أنظاري عند زاوية المنزل ثم مشى أليرتون بسرعة في الاتجاه نفسه. أنهيت ما كنت أقوله لبويد كارنغتون ومشيت أنا نفسي في ذلك الاتجاه، وحاول نورتون إيقافي فأمسك بذراعي واقترح عليّ أن نتمشى إلى حديقة الأزهار، لكنني لم أُعِره انتباهاً، وكان لا يزال معي عندما انعطفت عند زاوية المنزل.

ولقد كانا هناك. رأيت جوديث ورأيت أليرتون ينحني نحوها ورأيت كيف أخذها بين ذراعيه... ثم تباعدا بسرعة، وتقدمتُ خطوة إلى الأمام فجذبني نورتون إلى الخلف عبر الزاوية مستخدماً قوته البدنية وقال: اسمعني، لا يمكنك...

فقاطعته قائلاً بعنف: بل أستطيع، وسأفعل.

- هذا لن يفيد يا صديقي العزيز. أعلمُ أن الأمر مؤلم ولكن -في النهاية- لا يمكنك فعل شيء.

لُذتُ بالصمت، وربما ظن نورتون أن الوضع كذلك ولكنني

أعرف أكثر منه، ثم تابع: أنا أعلم معنى أن يشعر المرء بالغضب وعدم الفائدة، ولكن كل ما يمكنك فعله هو الاعتراف بالهزيمة. تقبّلها يا صديقي.

ولم أعارضه بل تركت له فرصة الكلام، ثم توجهت نحو زاوية المنزل مرة أخرى. كانا قد اختفيا ولكن كانت لديّ فكرة واضحة عن مكانهما، فقد كان هناك منزل صيفي غير بعيد تخفيه مجموعة من أشجار الليلك. اتجهت في ذلك الاتجاه، وأظن أن نورتون كان لا يزال معي ولكنني لست واثقًا من ذلك.

ما إن اقتربت حتى سمعت أصواتاً فتوقفت، وكان ذلك الذي سمعته هو صوت أليرتون وهو يقول: حسناً يا فتاتي العزيزة، لقد تمّت تسوية الأمر فلا تعترضي. ستذهبين إلى المدينة غداً، أما أنا فسأقول إنني سأذهب إلى إبسويش لأقيم مع صديقي لمدة ليلة أو اثنتين، وستبرقين من لندن بأنك لا تستطيعين العودة. من سيعلم بالعشاء الساحر في شقتي؟ أعدك بأنك لن تندمي أبداً.

شعرت بنورتون يجذبني بعيداً، وفجأة التفتّ بخضوع وكدت أضحك من منظر وجهه القلِق، وسمحت له بجرّي إلى المنزل متظاهراً بالاستسلام لأنني أدركت في تلك اللحظة ما كان يجب عليّ عمله. قلت له بوضوح: لا تقلق يا صديقي، أنا أرى الآن بأنه لا فائدة. لا يستطيع المرء التحكم في حياة أبنائه، لقد انتهيت من ذلك.

وقد بدا مرتاحاً جداً، ثم أخبرته بعد وقت قصير بأنني سوف أتوجه إلى الفراش مبكراً وتعذّرت بأنني أعاني من صداع بسيط، ولم يشكّ قط فيما كنت أنوي فعله.

-٥-

وقفت لبرهة في الممر الذي بدا هادئاً جداً وليس فيه أحد؛ فنورتون (الذي تقع غرفته في هذا الجانب) بقي في الطابق السفلي، وكانت إليزابيث كول هناك أيضاً تلعب البريدج، أما كيرتس فلا بد أنه كان يتناول العشاء. كان المكان كله تحت تصرفي.

أطريت نفسي مفكّراً أن سنوات عملي مع بوارو لم تَضِع هباءً، فقد عرفت ما هي الاحتياطات الواجب اتخاذها تماماً. لن يقابل أليرتون جوديث في لندن غداً، لن يذهب أليرتون إلى أي مكان غداً.

كان الأمر في غاية السهولة؛ ذهبت إلى غرفتي والتقطت علبة الأسبرين، ثم ذهبت إلى غرفة أليرتون ثم إلى حمّامه. كانت الحبوب المنوّمة في الخزانة... ثمان حبّات منها يمكن أن تفي بالغرض. واحدة أو اثنتان هي الجرعة الآمنة، لذلك لا بد أنّ ثمانياً كمية كبيرة، وأليرتون نفسه قال إن الجرعة السامّة ليست عالية. وقرأت النشرة التي كان مكتوباً فيها: «من الخطورة تجاوز الجرعة الموصوفة من قِبَل الطبيب»، ثم ابتسمت لنفسي.

لففت يدي بمنديل حريري وفتحت الزجاجة بحذر؛ يجب أن لا يُعثَر على بصماتي. أفرغت الحبات التي كانت في نفس حجم حبوب الأسبرين تقريباً، ووضعت ثماني حبات أسبرين في الزجاجة ثم ملأتُها بالحبوب المنوّمة مرة أخرى بعدما احتفظت بثمانٍ منها. لقد بدت الزجاجة الآن كما كانت قبل أن آخذ منها الحبوب ولن يلحظ أليرتون الفرق.

عدت إلى غرفتي حيث كنت أحتفظ بزجاجة من عصير البرتقال وأخرجت كأسَين. لن يرفض أليرتون كأساً من العصير في هذا الجو الحار!

أذبْتُ بعض الحبوب في قليل من العصير فوجدت أنها تذوب بسرعة، وتذوقتُ المزيج بحذر شديد. ربما كان فيه بعض المرارة لكن بالكاد يمكن ملاحظتها. أعددت خطتي؛ سأكون كمَن يهم بالشرب عندما يصعد أليرتون، وسوف أعطيه الكأس وأصبّ لنفسي كأساً غيرها. سيبدو الأمر طبيعياً وفي غاية السهولة؛ فهو لا يعرف شعوري نحوه بالطبع... ما لم تكن جوديث قد أخبرَته بذلك. فكّرت في هذا الاحتمال لحظة، ثم قررت أنني في مأمن من هذه الناحية لأن جوديث لا تخبر أحداً بأيّ شيء، كما أنه يظن بأنني لا أعلم عن خطتهما شيئاً.

لم يكُن لديّ ما أعمله سوى الانتظار. قد ينقضي وقت طويل، ساعة أو اثنتان، قبل أن يصعد أليرتون إلى فراشه؛ فقد كان دائماً من أولئك الذين ينامون متأخّرين. وجلست أنتظر بهدوء.

أفزعني نقرٌ مفاجئ على الباب، ولكنه كان كيرتس الذي أخبرني أن بوارو يسأل عني. عدتُ إلى الواقع مصعوقاً. بوارو؟ لم أفكر به ولو مرة واحدة طوال المساء! لا بد أنه يتساءل عمّا حلّ بي. أقلقني ذلك قليلاً لسببين: الأول أنني كنت خَجِلاً لأنني لم أذهب إليه، والثاني لأنني لم أُرِد أن يشك بأن أمراً خاطئاً قد حدث.

تبعت كيرتس عبر الممر، وهتف بوارو عندما رآني: حسناً، لقد تخلّيتَ عنّي، لماذا؟

تظاهرت بالتثاؤب وابتسمت ابتسامة اعتذار وقلت: أنا في غاية الأسف يا صديقي، ولكنني في الحقيقة أعاني من صداع شديد بحيث لا أكاد أرى أمامي. أظن أن ذلك سببه الرعد، لقد كنتُ مشوَّش الذهن فنسيت أنني لم آتِ لأتمنى لك ليلة سعيدة.

وكما كنت آمل فقد قَلِقَ بوارو على الفور وعرض عليّ العلاج، ثم بدأ يعاتبني ويؤنّبني. اتهمني بأنني جلست في الهواء الطلق في مجرى الهواء في ذلك اليوم الذي يُعَدّ من أكثر أيام الصيف حراً، ورفضت حبوب الأسبرين بحجة أنني قد أخذت بعضها بالفعل، ولكنني لم أستطع رفض كوب من الشكلاتة التي كانت شديدة الحلاوة إلى حد يثير الغثيان، وقد عرضه عليّ بوارو قائلاً: هذا ينعش العقل كما تعلم.

شربته تجنباً للمناقشة، ثم تمنّيت له ليلة سعيدة وهو لا يزال ينصحني بكلمات عطوفة قلقة. وعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب وأنا فخور بنفسي، وبعد قليل فتحته قليلاً بحذر شديد حتى أستطيع سماع صوت أليرتون عندما يأتي، ولكن ذلك لن يكون عمّا قريب.

جلست أنتظر، وأخذت أفكّر في زوجتي المتوفّاة وقلت أحدّث نفسي: أنتِ تفهمين يا عزيزتي، سوف أنقذها.

لقد تركَت جوديث في عنايتي ولن أخذلها. وفي هذا الهدوء والسكون شعرت فجأة بأن زوجتي سندريلا بجانبي، وأحسست كأنها معي في الغرفة، وجلست أنتظر بتجهم.

* * *

الفصل الثالث عشر

-١-

ثمة شيء ما بخصوص الكتابة عن خيبة الأمل، وهو أنها تحطّم احترام المرء لنفسه. فحقيقة الأمر أنني جلست أنتظر أليرتون، ولكنني غفوت! أظن أن ذلك ليس مفاجئاً في الحقيقة؛ فأنا لم أستطع النوم جيداً في الليلة السابقة وأمضيت النهار كله في الخارج. كنت متعَباً وقلقاً نتيجة للجهد الذي بذلته لإنجاح ما كنت قد قررت عمله، وفوق ذلك كان ذلك الجوّ المرعِد والقاسي، وربما ساعد في ذلك الجهدُ الذي بذلته في التركيز على ما كنت أفعل.

على أي حال فما حدث قد حدث. لقد غفوت في مقعدي، وعندما استيقظت كانت العصافير تزقزق في الخارج وقد أشرقت الشمس، وها أنذا وقد تشنجَت مفاصلي ولا أشعر بالارتياح، فقد نمت في المقعد بملابس المساء، وكنت أحس بطعم شنيع في فمي ورأسي يكاد ينشطر! شعرت بالسخافة وأنا مذهول ومشمئز، وأخيراً شعرت بارتياح عميق.

مَن قال إن الأيام السوداء سوف تزول إذا عشت إلى الغد؟ كم كان قوله صحيحاً! أنا أرى الآن بوضوح وتعقّل. كم كنتُ مجهَداً ومخطئاً! لقد فقدت الإحساس الصحيح حين قررت فعلاً أن أقتل إنساناً آخر. وفي تلك اللحظة وقعت عيناي على كأس الشراب أمامي، وبرجفة خفيفة وقفت وفتحت الستائر ثم قذفت بمحتويات الكأس خارج النافذة. لا بد أنني كنت مجنوناً في الليلة الماضية!

حلقت لحيتي واستحممت وارتديت ملابسي، ثم ذهبت إلى بوارو وأنا أشعر بأنني أحسن حالاً. وأنا أعلم أنه يستيقظ مبكراً، فجلست واعترفت بالأمر كله، ويمكنني القول إن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري.

هزّ بوارو رأسه برفق وقال: يا إلهي، أي فكرة حمقاء تلك التي فكرت بها! أنا سعيد لأنك أتيت واعترفت لي بخطئك، ولكن لماذا لم تأتِ إليّ مساء أمس لتخبرني بما كنت تفكر به يا صديقي العزيز؟

قلت بخجل: أظن أنني كنت أخشى أن تحاول منعي.

- بالطبع كنت سأمنعك، هذا مؤكّد؛ هل تظن أنني أريد رؤيتك مشنوقاً بسبب وغد سيّئ اسمه أليرتون؟

- لم يكُن من الممكن اكتشافي والقبض عليّ، فقد اتخذت كافة الاحتياطات.

- هذا ما يظنه المجرمون كلهم. أنت تمتلك العقلية المناسبة، ولكن دعني أخبرك بأنك لم تكُن ذكياً كما تظن نفسك يا صديقي.

- لقد اتخذتُ كل الاحتياطات، وقد مسحت بصماتي من فوق الزجاجة.

- بالضبط، ومسحتَ بصمات أليرتون أيضاً! وعندما يتم العثور عليه ميتاً فماذا سيحدث؟ سوف يُجرون تشريحاً ليقرروا أنه مات نتيجة جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة، فهل أخذها عامداً أم مصادفة؟ حسناً، بصماته ليست على الزجاجة، ولكن لماذا؟ فسواء كان حادثاً أو انتحاراً فلا يوجد ما يدعوه إلى مسح بصماته. ثم عندما يحلّلون حبات الدواء الباقية سيجدون أن نصفها تقريباً قد تم استبداله بالأسبرين.

همست بضعف: حسناً، كل شخص تقريباً لديه حبوب أسبرين.

- نعم، ولكن ليس للجميع ابنة يلاحقها أليرتون بنوايا غير شريفة! كما أنك قد تشاجرت مع ابنتك بسبب هذا الموضوع في اليوم السابق، وسيقسم شخصان هما بويد كارنغتون ونورتون على مشاعرك العدوانية نحو هذا الشخص. لا يا هيستنغز، لم يكُن الأمر ليبدو حسناً، كانت الشكوك ستحوم حولك، ومع مرور الوقت ستكون في حالة من الخوف أو الندم بحيث يمكن لأحد محقّقي الشرطة الأذكياء أن يقرّر أنك أنت المذنب، كما أن من المحتمَل أيضاً أن يكون أحدهم قد رآك وأنت تعبث بالحبوب.

- لا، لا يمكن؛ لم يكُن في المكان أحد.

- توجد شرفة خارج النافذة، وربما كان أحدهم يسترق النظر، أو مَن يعلم؟ ربما كان أحدهم ينظر من ثقب الباب.

- أنت تمتلك ثقباً في عقلك يا بوارو! لا يُمضي الناس وقتهم ينظرون من ثقب الباب كما تحب أن تظن.

أغلق بوارو عينيه نصف إغلاقة وقال: لقد كنتَ شديد الثقة بالناس دائماً، ولكن دعني أخبرك أن كثيراً من الأمور الغريبة تحدث بسبب المفاتيح في هذا المنزل. أحب أن أشعر بأن بابي مغلق من الداخل حتى لو كان كيرتس الطيب في الغرفة الملاصقة، فبعد وصولي بفترة قصيرة اختفى مفتاحي فاضطررت إلى صنع مفتاح آخر.

قلت بارتياح ولا يزال عقلي مثقَلاً بالمتاعب: على أية حال لم ينجح الأمر والحمد لله. من الفظيع أن يغضب المرء هكذا.

وخفضت صوتي وأكملت: بوارو، أنت لا تظن أن في الجو نوعاً من العدوى بسبب تلك الجريمة التي وقعت في الماضي، أليس كذلك؟

- أتعني فيروس قتل؟ إنه اقتراح مثير.

قلت بتفكير عميق: لكل منزل جوّه، ولهذا المنزل تاريخ سيّئ.

أومأ بوارو قائلاً: أجل، عاش هنا أناس تمنّى معظمهم أن يموت أحدٌ ما، هذا صحيح.

- أظن أن ذلك يؤثر عليك بطريقة ما، ولكن أخبرني الآن يا بوارو: ماذا سأفعل بكل هذا؟ أعني جوديث وأليرتون... يجب إيقافهما بطريقة ما، فماذا تظن أنه يجب عليّ عمله؟

- لا تفعل شيئاً.

- ماذا؟! ولكن...

- صدقني، لن يزيد الأمر سوءاً إذا لم تتدخل.

- إذن يجب عليّ أن أتحدث مع أليرتون بصراحة.

- ما الذي يمكنك قوله أو عمله؟ جوديث تبلغ الحادية والعشرين من العمر وهي سيدة نفسها.

- ولكن أشعر بأنه يجب عليّ أن أفعل شيئاً.

لكن بوارو قاطعني قائلاً: لا يا هيستنغز، لا تتخيل أنك ذكي جداً أو عنيف جداً أو حتّى مخادع جداً لكي تتمكن من فرض شخصيتك على أيّ من هذين الشخصين. أليرتون معتاد على التعامل مع الآباء الغاضبين والضعفاء، بل لعله يستمتع بالأمر على أنه نكتة جيدة، وجوديث ليست بالمخلوق الذي يمكن إرهابه بالصراخ. أنصحك -إذا كان لي أن أنصحك- بأن تفعل أمراً مختلفاً. لو كنت مكانك لوثقتُ بها.

حدقتُ إليه مدهوشاً فأكمل: جوديث رقيقة جداً وقد رُبِّيت تربية حسنة، أنا معجب بها جداً.

قلت بصوت متهدج: أنا معجَب بها أيضاً، ولكنني أخاف عليها.

هزّ بوارو رأسه بقوة مفاجئة وقال: أنا أيضاً خائف عليها، ولكن ليس مثلك. أنا شديد الخوف وأنا بلا قوة أو تقريباً بلا قوة، والأيام تمر! الخطر قريب يا هيستنغز، قريب جداً.

-٢-

كنت أعلم مثلما يعلم بوارو بأن الخطر قريب، وكان لديّ سبب أكبر لأعرف ذلك أكثر منه، وذلك بسبب ما سمعته في الليلة السابقة. وعلى الرغم من ذلك فقد أخذتُ أفكر وأنا في طريقي لتناول الفطور بعبارة بوارو: «لو كنتُ مكانك لوثقتُ بها». ترى ماذا سيحدث الآن؟

وجاء الجواب بطريقة غير متوقَّعة، لكنه زوّدني بشعور غريب بالارتياح. فقد بدا أن جوديث قد غيّرَت رأيها بشأن الذهاب إلى لندن هذا اليوم، وبدلاً من ذلك فقد خرجت مع فرانكلين إلى المختبَر كالمعتاد بعد الفطور مباشرة، وبدا من الواضح أنهما سيواجهان هناك يوماً شاقاً مليئاً بالعمل.

غمرني شعور بالراحة العميقة. كم كنت غبياً ويائساً ليلة أمس! لقد افترضت أن جوديث قد استجابت بالتأكيد لمقترَحات أليرتون المخادعة، ولكني لم أسمعها توافق في الحقيقة، وقد فكّرتُ في ذلك الآن. نعم، لقد كانت أحسن وأصدق بكثير من أن تستسلم، لقد رفضت اللقاء.

وعلمت أن أليرتون تناول فطوره مبكراً ثم ذهبت إلى إبسويش. لقد حافظ على خطته إذن، ولا بد أنه يظن أن جوديث ستذهب إلى لندن حسب الاتفاق. قلت بتجهم: حسناً، سوف يخيب أمله!

ثم جاء بويد كارنغتون وعلّق بتذمّر بأنني أبدو مرحاً هذا الصباح، فقلت له: نعم، لقد سمعت بعض الأخبار الجيدة.

فقال إن ذلك أفضل مما حصل عليه هو، حيث تلقّى مكالمة مملّة من المهندس المعماري بشأن بعض المشكلات في البناء، والمسّاح المحلّي غاضب جداً، كما أنه كان خائفاً من أنه قد أرهق السيدة فرانكلين في اليوم السابق.

أما السيدة فرانكلين فقد كانت تعوّض عن نوبة الصحة الجيدة والمعنويات المرتفعة التي أصابتها حديثاً. لقد كانت -كما أخبرتني الممرّضة كارفن- تتصرف بطريقة غير معقولة، وقد اضطُرت الممرّضة أن تتخلّى عن يوم إجازتها الذي كانت قد وُعدَت به للذهاب وملاقاة بعض الأصدقاء. كانت غاضبة بسبب ذلك بلا شك، فمنذ الصباح الباكر كانت السيدة فرانكلين تطلب كربونات النشادر وزجاجات الماء الساخن وعدة أنواع من الخضار والفواكه، وكانت غير راغبة في أن تغادر الممرّضة الغرفة، كما أنها كانت تعاني من آلام عصبية: ألم في القلب وتشنّج في قدمَيها وارتجاف في جسدها... ولا أعلم ماذا أيضاً!

أستطيع القول إنه لا أنا ولا أيّ واحد آخر منّا كان ميّالاً إلى الحذر في تلك اللحظة، وقد اعتبرنا جميعاً أن ذلك جزء من توهم السيدة فرانكلين للمرض، والأمر نفسه ينطبق على الممرّضة كارفن والدكتور فرانكلين الذي جيء به من المختبَر واستمع إلى شكاوى زوجته، وسألها إن كانت تريد أن يستدعي الطبيب المحلي الذي رفضته السيدة فرانكلين بعنف. وعندها أعطاها بعض المسكّنات وطمأنها بقدر استطاعته، ثم عاد إلى عمله مرة أخرى.

قالت لي الممرّضة كارفن: بالطبع هو يعلم أنها تتظاهر.

- أتظنين أنها تعاني من أمر ما؟

- حرارتها طبيعية ونبضها ممتاز. إنها مجرَّد رغبة في إحداث ضجة إذا سألتني عن رأيي.

كانت كارفن غاضبة وتتحدث بصورة حمقاء أكثر من المعتاد، وأكملَت: هذه المرأة تتدخل في حياة أي شخص آخر يستمتع بحياته، وتريد أن تُغضب زوجها وأن ألبّي أنا جميع حاجاتها، وحتى السير ويليام يجب أن يشعر أنه إنسان متوحش لأنه أتعبها بالأمس! إنها من هذه النوعية من الناس.

بدا من الواضح أن الممرّضة كارفن اعتبرت مريضتها غيرَ محتمَلة في ذلك اليوم، وفهمتُ أن السيدة فرانكلين كانت وقحة في تصرفها معها. لقد كانت من ذلك النوع من النساء الذي لا تحبه الممرضات والخدم، ليس فقط بسبب المتاعب التي تسببها بل بسبب سلوكها أيضاً. وكما قلت لم يأخذ أيّ منّا توعكها على محمل الجدّ باستثناء بويد كارنغتون الذي بدا بصورة مثيرة للشفقة كالطفل الصغير الذي لقي توبيخاً.

لقد حاولت أكثر من مرة منذ ذلك الوقت أن أعيد فحص أحداث ذلك اليوم محاولاً أن أتذكّر أمراً لم أنتبه إليه أو حادثة صغيرة نسيتها، لكي أتذكّر بالضبط سلوك كل الأشخاص إن كانوا طبيعيين أم لا. دعوني أسجّل بدقّة ما أذكره عن كل شخص مرة أخرى: بويد كارنغتون بدا قلقاً، بل لعله كان يشعر بالذنب. كان يظن أنه كان ممتلئاً بالحيوية والنشاط في اليوم السابق وأنه كان أنانياً عندما لم يفكّر في صحة رفيقته الضعيفة، وقد صعد مرة أو مرتين للاطمئنان

على صحة باربرا فرانكلين، واستقبلته الممرّضة كارفن التي لم تكُن هي نفسها في مزاج حسن فلم تحسن استقباله، ثم ذهب إلى القرية فاشترى للسيدة فرانكلين علبة من الشكلاتة، لكن الممرضة أعادتها إليه لأن السيدة فرانكلين لا تستطيع احتمال الحلوى. وبحزن فتح الصندوق في غرفة التدخين وأخذنا أنا ونورتون وهو كذلك نأكل بلا تردّد.

أظن أن أمراً ما كان يشغل بال نورتون في ذلك الصباح، فقد بدا شارد الذهن وقطب حاجبَيه أكثر من مرة كما لو كان متحيراً بشأن أمر ما. وكان مغرَماً بتلك الحلوى فتناول كمية كبيرة منها دون أن يشعر.

تغيّر الجو في الخارج وبدأ المطر يهطل منذ الساعة العاشرة، لكن الجو لم يصبح كئيباً كما هو شأنه في الأيام الممطرة، وقد كان ذلك مدعاة لارتياحنا جميعاً في الواقع. وعند منتصف النهار أحضر كيرتس بوارو وأجلسه في غرفة الجلوس، وهنا انضمّت إليه إليزابيث كول وقامت بالعزف له على البيانو. كانت لمساتها لطيفة وعزفت معزوفات لباخ وموزارت اللذين كانا مفضّلين لدى صديقي.

وفي نحو الواحدة إلا الربع عاد فرانكلين وجوديث من الحديقة، وبدت جوديث شاحبة وقلقة. كانت صامتة ونظرت حولها بغموض كأنها كانت مستغرقة في حلم ثم استيقظت منه فجأة. وجلس فرانكلين معنا وبدا هو الآخر منهمكاً متعَباً، وبدا من مظهره أنه كان على حافة الانهيار أيضاً. وقلت -كما أتذكر- إن المطر يثير الارتياح، فقال بسرعة: نعم، توجد أوقات تنكسر فيها الأشياء.

وبطريقة ما بدا لي أنه لم يكُن يتحدث عن الجوّ، وكعادته في حركاته الغريبة ارتطم بالطاولة فوقع نصف الحلوى؛ فجفل واعتذر، ومن الواضح أنه اعتذر للعلبة حين قال: آه، أنا آسف.

كان يجب أن يكون ذلك مضحكاً لكنه لم يكُن كذلك، فانحنى مسرعاً والتقط قطع الحلوى المتناثرة. وسأله نورتون إن كان قد مر بيوم شاقّ، فابتسم عندها بحماسة وطفولية وحيوية وقال: لا، لقد أدركت فجأة بأنني كنت أسير في الاتجاه الخاطئ، فما نحتاج إليه هو عملية أكثر سهولة. يمكنني سلوك طريق مختصَر.

ثم وقف يتأرجح على قدميه قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف، وكانت عيناه حالمتين ولكنّ فيهما تصميماً وهو يقول: نعم، الطريق المختصَر هو أفضل الطرق.

-٣-

إذا كنّا جميعاً عصبيّين نسير بلا هدف في ذلك الصباح فقد جاء وقت العصر لطيفاً على غير توقّع؛ سطعت الشمس وكانت الحرارة منخفضة ومنعشة، ونزلت السيدة لاتريل وجلست في الشرفة وهي في حالة ممتازة تمارس سحرها، وكان تصرفها أقل شراسة من المعتاد بلا نكد أو تسلّط لسان، وقد مازحت زوجها برفق ومحبّة فابتسم في وجهها، وكان من الممتع مشاهدتهما وهما في علاقة حسنة.

سمح بوارو لكيرتس بأن يأخذه إلى الخارج، وقد كان في

حالة نفسية جيدة. أظن أنه كان يحبّ أن يرى الزوجين لاتريل وقد تحسنَت علاقتهما. وقد بدا الكولونيل أصغر عمراً وكان تصرفه أقل تردداً كما قلّ عبثه بشاربه، بل أشار إلى أنه ستكون هناك لعبة ورق في ذلك المساء قائلاً: إن ديزي مشتاقة إلى البريدج.

فقالت السيدة لاتريل: بالتأكيد، أنا كذلك فعلاً.

وأشار نورتون إلى أن ذلك يمكن أن يكون متعباً بالنسبة لها فقالت: "سألعب جولة واحدة". ثم أضافت وهي تغمز بعينها: سأتصرف جيداً ولن أزعج جورج المسكين.

فاحتجّ زوجها قائلاً: عزيزتي، أنا أعلم أنني لاعب سيّئ.

قالت السيدة لاتريل: وماذا في ذلك؟ ألا يعطيني هذا فرصة لمضايقتك؟

وضحكنا جميعاً فتابعت السيدة لاتريل: آه، أنا أعرف أخطائي ولكنني كبرت فلم يعد سهلاً عليّ إصلاح نفسي، يجب على جورج أن يتحملني.

نظر إليها الكولونيل ببلاهة، وأظن أن رؤيتهما وهما في هذه الحالة الحسنة هو الذي أدّى إلى حدوث مناقشة بشأن الزواج والطلاق في وقت متأخر من ذلك اليوم: هل الرجال والنساء أكثر سعادة بسبب توفر تسهيلات أكبر للطلاق، أم أن فترة الخصام والبعد المؤقّتة تعود بعد فترة لتتحول إلى العاطفة والصداقة؟

من الغريب أن ترى في بعض الأحيان كيف تخالف آراء

الأشخاص تجارِبهم الشخصية. كان زواجي سعيداً ناجحاً فوق التصور، وأنا في جوهري إنسان تقليدي، ولكن على الرغم من ذلك فقد كنت مع الطلاق لتخفيف الخسائر والبدء من جديد إذا ما تأكّد فشل الزواج. أما بويد كارنغتون وعلى الرغم من أن زواجه لم يكُن سعيداً فقد كان يؤكّد بشكل مطلَق على روابط الزواج، وكما قال فقد كان يكنّ كل الاحترام لمؤسسة الزواج لأنها أساس تعمير الأرض.

نورتون غير المرتبط والذي لا يملك أيّ اهتمام شخصي بهذا الموضوع وافقني في تفكيري، أما فرانكلين المفكر العلمي العصري فقد عارض الطلاق بشدة، وبدا هذا منه غريباً. قال إن على المرء تحمّل مسؤولياته وأكّد أن العقد هو العقد، فالمرء يوقّع العقد باختياره ويجب عليه الالتزام به، وأيّ مخالفة لذلك تتسبب في حالة من الفوضى. ثم اتكأ على كرسيه وقدماه الطويلتان تضربان بغموض على الطاولة قائلاً وهو يقول: الرجل يختار زوجته، وهي مسؤوليته حتى تموت أو يموت.

عندها قال نورتون بسخرية: وأحياناً يكون الموت رحمة.

ضحكنا من تعليقه ثم قال بويد كارنغتون: لا يمكنك التحدث أيها الفتى؛ أنت لم تتزوج من قبل.

هزّ نورتون رأسه قائلاً: والآن فات الأوان.

فقال بويد متسائلاً:حقاً؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

في تلك اللحظة انضمّت إلينا إليزابيث كول التي كانت تجلس مع السيدة فرانكلين. وأتساءل هل تخيلتُ ذلك أم أن بويد

كارنغتون تنقّل بنظرة ماكرة بينها وبين نورتون، وهل كان صحيحاً أن نورتون قد احمرّ وجهه خجلاً؟ وفكرتُ في فكرة جديدة فنظرت إلى إليزابيث كول باحثاً. صحيح أنها لا تزال شابة كما أنها لا تزال امرأة جميلة، بل هي في الحقيقة فاتنة جداً وباستطاعتها إسعاد أيّ رجل، وكانت مؤخَّراً تقضي مع نورتون وقتاً طويلاً في بحثهما عن الأزهار البرّية والطيور وقد أصبحا صديقين. لا أزال أذكر طريقتها في الحديث عن نورتون وقولها إنه شخص عطوف.

إذا كان ذلك صحيحاً فأنا سعيد من أجلها؛ فمعاناتها وحرمانها في صباها لن يقفا عقبة في طريق سعادتها، والمأساة التي بعثرت حياتها لم تكُن لتحدث من فراغ. وفكرتُ وأنا أنظر إليها بأنها تبدو أكثر سعادة بالتأكيد. نعم، وأكثر مرحاً مما كانت عليه عندما قدمت إلى «ستايلز». إليزابيث كول ونورتون... نعم، يبدو هذا محتمَلاً.

وفجأة ودون إنذار راودني شعور مبهَم بعدم الارتياح وشعرت بالقلق، لم يكُن آمناً أو مناسباً أن يخطّط المرء للسعادة هنا. كان في هواء «ستايلز» شيء ضار خبيث، وقد شعرت به الآن في تلك اللحظة، شعرت فجأة بالعجز والتعب... نعم، والخوف أيضاً!

بعد دقيقة اختفى ذلك الشعور ولم يلحظه أحد على ما أظن، باستثناء بويد كارنغتون الذي قال لي بعد مرور بضع دقائق: هل أصابك شيء يا هيستنغز؟

- لا، لماذا؟

- حسناً، لقد بدا كأنك... لا أستطيع تفسير ذلك.

- إنه مجرّد شعور بالخوف.

- هل هو إحساس بالشر؟

- نعم... إن أردتَ صياغته بهذه الطريقة، شعور بأن أمراً ما سوف يحدث.

قال وهو يراقبني: غريب! لقد شعرت بذلك مرة أو مرتين، هل لديك فكرة عن ماهيته؟

هززت رأسي نفياً لأني بالفعل لم يكُن لدي خوف من شيء محدد، كانت مجرّد موجة من الاكتئاب العميق والخوف.

ثم خرجَت جوديث من المنزل وتقدمت نحونا ببطء وقد ضمّت شفتيها ورفعت رأسها. كان وجهها جميلاً ومظهرها وقوراً، وفكّرتُ كم بدت مختلفة عني وعن أمها.

قال نورتون: إن مظهرك يذكرني بسميّتك (تلك التي كان اسمها جوديث في الأسطورة اليونانية) قبل أن تقطع رأس هولوفيرنس!

ابتسمت جوديث وقد رفعت حاجبيها قليلاً وهي تقول: لا أستطيع أن أتذكر الآن، لماذا أرادت فعل ذلك؟

قال نورتون: آه، لقد كان دافعها أخلاقياً محضاً؛ من أجل تحقيق الخير للمجتمع.

كان في لهجته شيء من السخرية أو الاستخفاف أزعج جوديث حتى لقد احمرّ وجهها من الانفعال، وتجاوزَته مسرعة لتجلس بجانب فرانكلين وهي تقول: السيدة فرانكلين تشعر بتحسن، وهي تريدنا أن نذهب كلنا ونتناول القهوة معها هذا المساء.

-٤-

حينما كنت أصعد الدرج بعد العشاء في طريقي لزيارة السيدة فرانكلين فكّرتُ كم هي إنسانة متقلبة المزاج؛ فقد جعلت حياة كل واحد منّا غير محتمَلة طول اليوم، ثم ها هي ذي في قمة اللباقة الآن!

كانت ترتدي ثوباً مسائياً أزرق فاتح اللون وقد جلست على كرسيها الطويل وبجانبها خزانة كتب دوّارة صغيرة الحجم وُضعت فوقها أدوات صنع القهوة، وكانت أصابعها الرشيقة البيضاء تقوم بإعداد القهوة بمساعدة بسيطة من الممرّضة كارفن. كنا جميعاً هناك باستثناء بوارو الذي اعتاد أن يأوي إلى فراشه قبل العشاء وأليرتون الذي لم يعد بعد من إبسويش والكولونيل والسيدة لاتريل اللذين بقيا في الطابق السفلي.

وعبقت أنوفنا برائحة القهوة، رائحة لذيذة زكية! القهوة في «ستايلز» مجرّد سائل داكن اللون يفتقر إلى الطعم، لذلك فقد تطلعنا إلى قهوة السيدة فرانكلين بتشوّق. وجلس الدكتور فرانكلين على الجهة الأخرى من المائدة يناول الأكواب التي تملؤها السيدة فرانكلين، ووقف بويد كارنغتون عند زاوية المقعد في حين كانت إليزابيث كول ونورتون قرب النافذة، وتراجعت الممرّضة كارفن إلى الخلف عند رأس السرير.

أما أنا فقد جلست على المقعد أتعارك مع الكلمات المتقاطعة في جريدة «التايمز»، ومضيت أقرأ وصف اللغز بصوت مرتفع والباقون يحاولون مساعدتي باقتراح الكلمات المناسبة، ثم سمعت

صوت شهيق حاد خلفي فنظرت، كانت تلك هي جوديث، وقد تجاوزَتنا إلى النافذة ومنها إلى الشرفة.

بعد ذلك سمعت صوت حركة الملعقة في فنجان باربرا فرانكلين، وانتقلت إلى كلمة جديدة من الكلمات المتقاطعة فقلت: من القائل: «الغيرة وحش أخضر العينين»؟

قال بويد كارنغتون: إنها جملة من إحدى مسرحيات شكسبير.

قالت السيدة فرانكلين: لعلها من أقوال عطيل أو إميليا.

قلت: لا، اللغز مكوَّن من خمسة حروف وينتهي بالواو.

وتتالت الاقتراحات:

- إياغو.

- أنا واثق من أنه عطيل.

- لم يكُن في مسرحية عطيل أصلاً، لا بد أنها عبارة قالها روميو لجولييت.

الكل كانوا يقترحون، وفجأة صرخت جوديث من الشرفة قائلة: انظروا، هذا شهاب! آه، وهناك آخر!

قال بويد كارنغتون: أين؟ يجب أن نتمنّى شيئاً.

وخرج إلى الشرفة وانضمّ إلى إليزابيث كول ونورتون وجوديث، وخرجت الممرّضة كارفن أيضاً ونهض فرانكلين وانضمّ إليهم. وقفوا هناك يهتفون ويحدقون إلى السماء، وبقيت أنا ورأسي

منحنٍ أحاول حلّ الكلمات المتقاطعة. لماذا أسعى لرؤية شهاب؟ ليس لديّ أمر أتمناه.

وفجأة رجع بويد كارنغتون إلى الغرفة وقال: باربرا، يجب أن تخرجي!

قالت السيدة فرانكلين بحدة: لا أستطيع، أنا متعَبة جداً.

قال: "هراء يا بابس، يجب أن تخرجي وتتمنّي". ثم أكمل ضاحكاً: لا أريد أيّ اعتراض، سوف أسحبك.

وفجأة قفز وسحبها بكلتا ذراعيه، فضحكت واحتجّت قائلة: اتركني يا بيل، لا تكن سخيفاً.

- يجب أن تخرج الفتيات الصغيرات للتمني.

خرجا كلاهما إلى الشرفة، وانحنيت على الجريدة أكثر؛ فقد تذكرت ليلة استوائية صافية فيها نقيقُ ضفادعٍ وشهبٌ في السماء، وكنت أقف هناك بجانب النافذة ثم استدرت وحملت سندريلا بين ذراعيّ لترى النجم وتتمنى!

وتراقصت أمام عيني خطوط الكلمات المتقاطعة فلم أعد أستطيع رؤيتها بوضوح. ثم انتزع شخصٌ نفسه من الشرفة وقدم إلى الغرفة، كانت جوديث. يجب أن لا تراني جوديث والدموع في عيني، لا أحب ذلك! وبسرعة أدرت خزانة الكتب وتظاهرت بأنني أبحث عن كتاب، وتذكرت بأنني رأيت نسخة قديمة من أعمال شكسبير هناك. نعم، ها هي ذي، ثم أخذت أنظر إلى صفحات مسرحية عطيل دون أن أدرك منها أي كلمة.

سألتني جوديث: ماذا تفعل يا أبي؟

تمتمت بشيء حول اللغز، ومضت أصابعي تقلّب الصفحات ثم قلت بصوت مسموع: نعم، كان إياغو: "احذر يا سيدي من الغيرة، فهي وحش أخضر العينين".

ثم عاد الآخرون وهم يضحكون ويثرثرون، وعادت السيدة فرانكلين إلى مكانها القديم على الكرسي الطويل، وجلس الدكتور فرانكلين على مقعده مقابلها وأخذ يقلب قهوته، وانتهى نورتون وإليزابيث من شرب قهوتهما واستأذنا بالمغادرة لأنهما وعدا بلعب البريدج مع الزوجين لاتريل. وشربت السيدة فرانكلين قهوتها ثم طلبت دواءها، فأحضرته جوديث لها من الحمّام لأن الممرّضة كارفن كانت قد خرجت لتوها.

كان الدكتور فرانكلين يتجول حول الغرفة بلا هدف، وتعثّر بطاولة صغيرة فقالت زوجته بحدة: لا تكن أخرق يا جون!

- آسف يا باربرا، كنت أفكّر في أمر ما.

قالت السيدة فرانكلين بتكلف: أنت دبّ كبير، أليس كذلك يا عزيزي؟

نظر إليها بشرود ثم قال: هذه ليلة جميلة، وأظن أنني سأخرج لأتمشى قليلاً.

ثم خرج من الغرفة فقالت السيدة فرانكلين: إنه عبقري كما تعلمون، ويمكن الحكم عليه من خلال تصرفاته. أنا معجَبة به جداً فهو مغرَم بعمله تماماً.

وقال بويد كارنغتون ببرود: نعم، إنه شخص ذكي.

ثم غادرت جوديث الغرفة فجأة، وقد كادت تصطدم بالممرّضة كارفن عند عتبة الباب. وقال بويد كارنغتون: ما رأيكِ أن نلعب بوكيه يا بابس؟

- هذا رائع. هل تستطيعين إحضار بعض أوراق اللعب أيتها الممرّضة؟

ذهبت الممرّضة كارفن لإحضار أوراق اللعب، وتمنّيت أنا للسيدة فرانكلين ليلة سعيدة وشكرتها على القهوة. وفي الخارج تجاوزت فرانكلين وجوديث اللذين كانا واقفَين ينظران عبر النافذة. لم يكونا يتحدثان بل كانا فقط واقفَين متجاورَين، وحين اقتربتُ نظر فرانكلين إلى الوراء فتقدّمتُ خطوتين وترددت ثم قلت: هل تأتين للتنزه يا جوديث؟

هزّت ابنتي رأسها نفياً وقالت: ليس الليلة، سأذهب إلى الفراش. تصبح على خير.

ونزلتُ الدرَج مع فرانكلين الذي كان يصفر لنفسه ويبتسم بلطف، وكنت أشعر بالاكتئاب فقلت معلّقاً بعصبية: تبدو مسروراً من نفسك الليلة؟

فقال: نعم، لقد فعلت شيئاً أردت فعله منذ وقت طويل، وقد فعلته بشكل مرضٍ جداً.

افترقت عنه عند نهاية الدرَج، وتفقدتُ لبعض الوقت أولئك الذين يلعبون الورق فغمز لي نورتون عندما كانت السيدة لاتريل

تنظر بعيداً. كانت تلك الجولة تسير بانسجام غير معتاد.

لم يعد أليرتون حتى ذلك الوقت، وبدا لي أن المنزل أكثر سعادة وأقل انقباضاً في غيابه. وصعدتُ إلى غرفة بوارو فوجدتُ جوديث جالسة عنده، فابتسمَت لي عندما دخلتُ ولم تتحدث. قال لي بوارو: لقد سامحَتك يا صديقي!

فقلت: حقاً؟ لا أظن ذلك.

نهضت جوديث ولفّت ذراعها حول عنقي وقبلتني، ثم قالت: أبي المسكين! لن يجرح العم بوارو كرامتك. أنا التي يجب أن تسامحني، لذلك سامحني وتمنَّ لي ليلة سعيدة.

ولا أدري لماذا قلت ما قلت، ولكنني قلت: أنا آسف يا جوديث، أنا في غاية الأسف؛ لم أقصد أن...

ولكنها قاطعتني قائلة: لا بأس، لننسَ الأمر. الأمور على ما يرام الآن.

وابتسمت ابتسامة حالمة ثم قالت مرة أخرى: كل شيء على ما يرام الآن.

ثم غادرت الغرفة بهدوء فنظر إليّ بوارو وقال لي: حسناً، ما الذي جرى هذا المساء؟

قلت: لم يحدث شيء، وليس من المحتمَل أن يحدث شيء.

في الواقع كنتُ بهذه الملاحظة قد تجاوزت الحقيقة لأن أمراً ما وقع في تلك الليلة؛ لقد عانت السيدة فرانكلين بشدة من الألم،

وأُرسل في طلب طبيبَين آخرَين ولكن بلا فائدة، فقد ماتت في صباح اليوم التالي.

ولم نعلم إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة أن الوفاة كان سببها التسمم بمادة الفايزوستغمين!

* * *

الفصل الرابع عشر

-١-

بعد يومين من وفاة السيدة فرانكلين جرى التحقيق لتحديد سبب الوفاة، وقد كانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها تحقيقاً في هذا الجزء من العالم!

كان المحقّق رجلاً متوسط العمر قديراً ذا نظرة ذكية وكلام جافّ. نظر إلى الدليل الطبي أولاً، وقد تقرّر أن سبب الوفاة هو التسمم بمادة الفايزوستغمين، كما لوحظ وجود شبه قلويات أخرى. ولا بدّ أنها تناولت السم في الليلة السابقة بين السابعة مساء ومنتصف الليل، وقد رفض رقيب الشرطة وزملاؤه إعطاء وقت أكثر دقة.

كان الدكتور فرانكلين هو الشاهد التالي، وقد أعطى تأثيراً حسناً. كانت أدلته واضحة وبسيطة، فبعد وفاة زوجته قام بفحص محاليله في المختبَر، وقد وجد أن إحدى الزجاجات التي كانت تحتوي على محلول مركَّز من شبه القلويات المستخلَصة من لوبياء كالابار (التي كان يُجري عليها تجارِبه) قد مُلئت بالماء العادي الذي

احتوى على بعض الآثار من المحتويات الأصلية فقط. ولم يستطع تحديد الوقت الذي حدث فيه هذا لأنه لم يستخدم تلك الزجاجة منذ بضعة أيام.

ثم نوقشت مسألة الدخول إلى المختبَر، ووافق الدكتور فرانكلين على أنه يجري إغلاق المختبَر في العادة وأن المفتاح يبقى في حوزته، وأن لدى مساعِدته الآنسة هيستنغز مفتاحاً أيضاً، وأي شخص يريد الدخول إلى المختبَر لا بد أن يطلب المفتاح منها أو منه. وقد استعارت زوجته المفتاح عدة مرات عندما نسيَت بعض أشيائها في المختبَر، ولم يجلب هو نفسه أيّ شيء من محلول الفايزوستغمين إلى المنزل أو إلى غرفة زوجته، كما أنه يعتقد أن من المستحيل أن تكون قد شربَته بطريق الخطأ. وعندما استجوبه المحقق قال إن زوجته كانت عصبية لفترة من الزمن وإن صحتها كانت سيّئة، وقال إنها لم تكُن مصابة بمرض عضوي لكنها كانت تعاني من الكآبة وتقلب المزاج. وقد بدت مؤخَّراً مرحة كما قال، واعتبر ذلك تحسناً في صحتها ونفسيتها. لم يتشاجرا وكانا طيّبَين معاً، وفي الأمسية الأخيرة بدت زوجته بنفسية جيدة وغير مكتئبة. وقال إن زوجته تكلمت عدة مرات عن إنهاء حياتها ولكنه لم يحمل كلامها على محمل الجدّ. وعندما سئل بالتحديد أجاب بأنه وحسب اعتقاده فإن زوجته لم تكُن من النوع الذي يمكن أن ينتحر. كان ذلك رأيه الطبي والشخصي أيضاً.

تبعَته في الشهادة الممرّضة كارفن، وقد بدت أنيقة بزيّها وكانت أجوبتها دقيقة. لقد اعتنت بالسيدة فرانكلين أكثر من شهرين، السيدة فرانكلين التي كانت تعاني من الاكتئاب، وقد سمعَتها الشاهدة ثلاث

مرات على الأقل تقول إنها تريد إنهاء كل شيء وتردد أن حياتها عديمة الفائدة وأنها تشعر بأنها كالحجر الذي يثقل عنق زوجها.

سألها المحقق: لماذا قالت ذلك؟ هل كان بينها وبين زوجها خصام؟

- لا، ولكنها كانت تعرف أن زوجها قد مُنح عقداً للعمل في الخارج، وقد رفض ذلك العقد حتى لا يتركها.

- وهل شعرَت بالانقباض بسبب ذلك في بعض الأحيان؟

- نعم، كانت تلوم صحتها العليلة وكان ذلك يغضبها جداً.

- هل كان الدكتور فرانكلين يعلم ذلك؟

- لا أظنها قالت ذلك أمامه كثيراً.

- لكنها كانت عرضة لنوبات من الكآبة، أليس كذلك؟

- بلى، بالتأكيد.

- هل ذكرت بالتحديد نيّتها في الانتحار؟

- أظنها قالت فقط: أريد إنهاء كل شيء.

- ألم تقترح أيّ وسيلة معينة لإنهاء حياتها؟

- لم تفعل؛ كانت غامضة بعض الشيء.

- هل أدّى أي شيء إلى كآبتها مؤخَّراً؟

- لا، كانت روحها المعنوية عالية نوعاً ما.

- هل توافقين الدكتور فرانكلين على أن روحها المعنوية كانت عالية ليلة موتها؟

ترددت الممرّضة كارفن ثم قالت: حسناً، لقد كانت في حالة إثارة. أصابها ألم شديد خلال النهار واشتكت من صداع ودُوار، ثم بدت بشكل أفضل في المساء. لكن روحها المعنوية العالية كانت مصطنَعة، لقد بدت وكأنها مصابة بالحمى.

- هل رأيتِ زجاجة أو أيّ شيء يمكن أن يُستخدم لتخزين السم؟

- لا.

- ماذا أكلَت أو شربَت؟

- تناولَت حساءً وقطعة لحم وبازلاء وبطاطا مهروسة وكعكة الكرز، وشربت كأساً من العصير.

- من أين جاء ذلك العصير؟

- من زجاجة كانت في حجرتها، وقد بقي فيها بعض الشراب، وأظن أنها فُحصت ووُجدت خالية من السم.

- هل يُحتمَل أن تكون قد وضعت السم في شرابها دون أن تشاهديها؟

- نعم، بكل بساطة. لقد كنت داخلة خارجة من الغرفة أنظف وأرتب الأشياء، ولم أكُن أراقبها. كانت بجانبها حقيبة ملفات وحقيبة يدها، ويمكن لها أن تضع أيّ شيء في الشراب أو في القهوة لاحقاً

أو في الحليب الساخن الذي كان آخِر ما تناولَته.

- هل لديك فكرة عمّا يمكن أن تكون قد فعلَته بالزجاجة أو الحاوية إذا كان ذلك صحيحاً؟

فكّرت الممرّضة كارفن لحظة ثم قالت: حسناً، ربما رمتها لاحقاً خارج النافذة أو وضعتها في سلة المهملات أو حتّى غسلَتها في الحمام وأعادتها إلى خزانة الأدوية. في الخزانة عدد من الزجاجات الفارغة لا أتخلص منها لأنها مفيدة في بعض الأحيان.

- متى كانت آخِر مرة رأيت فيها السيدة فرانكلين؟

- في نحو العاشرة والنصف عندما وضعتُها في الفراش، وكانت قد تناولت الحليب الساخن وطلبت حبة أسبرين.

- كيف كانت عندئذ؟

فكرت الشاهدة لحظة ثم أجابت: حسناً، كعادتها... لا، يمكنني القول إنها كانت مثارة قليلاً.

- ألم تكُن مكتئبة؟

- بل كانت عصبية، ويمكن أن تؤدّي بها حالتها تلك إلى الانتحار إن كانت تفكر في ذلك. يمكن أن يعطيها ذلك شعوراً بالسعادة.

- هل تعتبرينها قادرة على الانتحار؟

ران صمت شديد، وظهرت الممرّضة كارفن كأنها تجد

صعوبة في تكوين رأيها، وأخيراً قالت: حسناً، أنا... نعم، بشكل عام. لقد فقدَت توازنها.

جاء دور السير بويد كارنغتون للشهادة، وقد ظهر أنه كان حزيناً ولكنه تقدم بشهادته بكل وضوح. لقد لعب البوكيه مع المتوفّاة تلك الليلة ولم يلاحظ أيّ علامة على اكتئابها عندئذ، ولكنْ خلال محادثة سابقة ذكرَت السيدة فرانكلين موضوع الانتحار. لم تكُن امرأة أنانية قط، وقد ساءها جداً أن تكون عقبة في طريق زوجها، وكانت مخلصة جداً لزوجها وطموحاته، وكانت مكتئبة في بعض الأحيان بخصوص صحتها.

ثم استُدعيت جوديث، ولكن لم يكُن لديها الكثير لتقوله. لا تعرف شيئاً عن سرقة السم من المختبر، وفي ليلة المأساة بدت السيدة فرانكلين طبيعية ولكن ربما كانت عصبية قليلاً. لم تسمع السيدة فرانكلين تتحدث عن الانتحار قط.

كان هيركيول بوارو آخر الشهود. أدلى بشهادته بطريقة واثقة وبشكل أثار الإعجاب، ووصف محادثته مع السيدة فرانكلين في اليوم السابق لوفاتها. كانت مكتئبة جداً، وقد ذكرت أكثر من مرة رغبتها في إنهاء كل شيء. كانت قلقة بشأن صحتها واعترفت له بأنها تصيبها نوبات من الحزن الشديد عندما لا تبدو الحياة جديرة بالعيش، وفي بعض الأحيان قالت إنه سيكون عظيماً لو استطاعت الذهاب إلى النوم ولم تصحُ بعد ذلك أبداً.

وقد أدى ردّه التالي إلى إثارة أعظم حين سئل: هل كنت تجلس في العاشر من حزيران (يونيو) خارج باب المختبر؟

- نعم.

- هل رأيت السيدة فرانكلين خارجة من المختبر؟

- نعم.

- هل كانت تحمل شيئاً في يدها؟

- كانت يدها تقبض على زجاجة صغيرة.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- نعم.

- هل ظهر عليها الارتباك عندما رأتك؟

- بدا أنها فوجئت، هذا كل شيء.

تابع المحقق تلخيصه. يجب أن يقرر المحلّفون كيف ماتت الضحية، ولن يكون صعباً تحديد سبب الوفاة فقد أخبرهم الدليل الطبي بذلك، وكل ما عليهم هو أن يقرروا إن كانت قد أخذت السم عمداً أم بطريق الخطأ. لقد سمعوا أن المتوفّاة كانت تُصاب بنوبات من الحزن الشديد نتيجة لاعتلال صحتها، وفي حين لم يكُن لمرضها سبب عضوي فقد كانت في حالة صحية سيّئة، وقد أكد السيد بوارو، الشاهد الذي يحمل اسمه وزناً كبيراً، أنه رأى السيدة فرانكلين خارجة من المختبر وبيدها زجاجة صغيرة، وقد فوجئت برؤيته.

يمكنهم أن يستنتجوا أنها أخذت السم من المختبر بنيّة الانتحار. لقد كانت تعاني من اعتقادٍ راسخ بأنها حجر عثرة في طريق زوجها وأنها تعوق تقدمه، ومن العدل للدكتور فرانكلين

القول بأنه كان زوجاً عطوفاً محبّاً وأنه لم يشكُ يوماً من ضعف صحتها أو من كونها عقبة في طريق تقدمه، ويبدو أن هذه كانت فكرتها وحدها. النساء في ظروف معينة من الانهيار العصبي تصيبهن مثل هذه الأفكار.

لم يقُم دليل على كيفية أخذ السم، ومن غير الطبيعي أن لا يُعثر على الزجاجة التي احتوت السم، ولكن من المحتمل -كما قالت الممرّضة كارفن- أن تكون السيدة فرانكلين قد غسلت الزجاجة ووضعتها في خزانة الحمّام من حيث أخذتها أصلاً. وعلى المحلفين أن يقرروا.

تم التوصل إلى الحكم بعد فترة مداولة قصيرة، فقد وجد المحلَّفون أن السيدة فرانكلين قتلت نفسها في لحظة جنون.

-٢-

بعد نصف ساعة كنت في غرفة بوارو، وقد بدا مرهَقاً جداً. وضعه كيرتس في فراشه وكان يحاول مساعدته، وكنت متحرّقاً للكلام لكنني انتظرت حتى غادر الخادم الغرفة، ومن ثَم اندفعت قائلاً: هل كان ما قلتَه صحيحاً يا بوارو؟ هل حقاً رأيتَ زجاجة في يد السيدة فرانكلين عندما خرجت من المعمل؟

لاحت ابتسامة خفيفة على شفتَي بوارو المُزرَقّتين وغمغم: هل رأيتَها أنتَ يا صديقي؟

- لا، لم أرَها.

- ولكن ربما لم تلاحظ، أليس كذلك؟

- بلى، ربما لم ألاحظ. لا أستطيع القطع شخصياً بأنها لم تكُن معها.

ونظرتُ إليه بشك وسألتُه: السؤال الآن هو: هل أخبرتَهم بالحقيقة؟

- وهل تعتقد أنني سأكذب يا صديقي؟

- هذا ليس بعيداً عنك.

- هيستنغز، أنت تثير دهشتي! أين ثقتك البسيطة؟

اعترفت له بما في نفسي وقلت: حسناً، لا أعتقد أنك ستكذب أمام المحكمة.

فقال بوارو بخبث: لن تُحسَب كذبة لأنها لم تكن تحت القسَم.

- إذن فقد كذبتَ؟

لوّح بوارو بيده وقال: ما قلتُه قلته وقُضي الأمر يا عزيزي، وليس من الضروري الخوض فيه.

صرخت بحدة: أنا لا أفهمك!

- ما الذي لا تفهمه؟

- دليلك... كل ذلك الكلام عن انتحار السيدة فرانكلين واكتئابها. لقد سمعتَها بنفسك تقول ذلك، نعم، ولكن كان ذلك

واحداً من حالاتها النفسية، غير أنك لم توضح ذلك.

- ربما لم أرِد ذلك.

حدقت إليه وقلت: هل أردتَ أن يكون الحكم موتاً بالانتحار؟

سكت بوارو قليلاً قبل أن يجيب: أعتقد أنك لا تقدّر خطورة الموقف يا هيستنغز. نعم، إذا كنت تريد ذلك: أردتُ أن يكون الحكم موتاً بالانتحار.

- ولكنك لا تعتقد أنها انتحرت، أليس كذلك؟

هزّ بوارو رأسه نفياً ببطء فقلت: أتعتقد أنها قُتلت؟

- نعم يا هيستنغز، لقد قُتلت!

- لماذا تحاول تغطية الموضوع إذن؟ لماذا تحاول جعله يبدو وكأنها انتحرت؟ سيوقف ذلك جميع التحريات.

- بالضبط.

- أتريد ذلك؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟!

- أيُعقَل أنك لا تدرك؟! حسناً، لنتوقف عن الخوض في هذا الأمر على أي حال. يجب أن تثق بقولي إنها كانت جريمة قتل وإن جريمة أخرى ستُقترَف هنا، ولم يكُن من الممكن إيقافها لأن المجرم عديم الرحمة ومصمّم على القتل.

ارتعشتُ وقلت: وماذا سيحدث الآن؟

ابتسم بوارو وقال: لقد انتهت القضية؛ أُعطيَت رقماً ووُضعَت جانباً على أنها قضية انتحار، ولكننا، أنت وأنا، سنستمر بالعمل في الخفاء يا هيستنغز، وعاجلاً أو آجلاً سنقبض على هذا القاتل.

قلت: افرض أن شخصاً آخَر قُتل في هذه الأثناء، فماذا سنفعل؟

هزّ بوارو رأسه نفياً وقال: لا أعتقد ذلك، إلا إذا كان أحدٌ قد رأى شيئاً أو سمع شيئاً، وهذا غير وارد لأنه لو كان أحد قد رأى شيئاً لذكر ذلك في شهادته.

* * *

الفصل الخامس عشر

-١-

ذاكرتي مشوَّشة قليلاً بخصوص أحداث اليوم التالي مباشرة لوفاة السيدة فرانكلين. جرت مراسيم الجنازة بالطبع وحضرها جمع غفير من أهالي ستايلز سينت ميري الفضوليين، وفي هذه المناسبة خاطبَتني سيدة ذات عينين دامعتين وأسلوب لا لباقة فيه، وقد بادرَتني بالكلام عندما كنّا نخرج من المقبرة فقالت: أنا أتذكرك يا سيدي، نعم.

- حسناً، من المحتمل أن...

لكنها تابعَت دون أن تُصغي لما قلت: مضى أكثر من عشرين عاماً منذ ماتت السيدة العجوز. كانت تلك أول جريمة تحدث في ستايلز، ولن تكون الأخيرة! أعني السيدة العجوز إنغليثورب، وقد قلنا جميعاً إن زوجها هو الذي قتلها.

ونظرَت إليّ بخبث وتابعت: من المحتمَل أن يكون الزوج أيضاً قد فعلها في هذه المرة أيضاً.

قلت بحدّة: ماذا تعنين؟ ألم تسمعي الحكم الذي أرجع سبب الموت إلى الانتحار.

وخزتني في جانبي قائلة: كان هذا ما قاله المحقّق، لكن من الممكن أن يكون مخطئاً. الأطباء ماهرون بالتخلص من زوجاتهم، ولم تكُن مناسِبة له على ما يبدو.

التفتّ إليها بغضب ولكنها تركتني ومشت بعيداً تتمتم لنفسها بأنها لم تقصد شيئاً، قائلة إن ممّا يثير الاستغراب أن تحدث للمرة الثانية! وللحظة مدهشة فكرت بأنها تتهمني بارتكاب الجريمتين! لقد كان ذلك مزعجاً جداً ولكنه جعلني أدرك كم هي غريبة شكوك الناس المحللين! مع ذلك فلم تكُن بعيدة عن الحقيقة لأن أحدهم قتل السيدة فرانكلين، وكما قلتُ فأنا أتذكر القليل عن تلك الأيام.

كانت صحة بوارو تقلقني جداً، وقد جاء كيرتس إليّ بوجهه الجامد منزعجاً ليخبرني بأن بوارو أُصيب بنوبة قلبية خفيفة، ثم قال: يبدو لي أنه بحاجة إلى طبيب يا سيدي.

ذهبتُ بسرعة إلى بوارو الذي رفض الفكرة بشكل قاطع. ولم يكُن ذلك من صفاته بل كان دائماً يهتمّ بصحته فيما أعلم؛ فهو يتحاشى التيارات الهوائية ويلفّ رقبته بالصوف، وكان ينزعج جداً إذا ابتلّت قدماه ويقيس درجة حرارته ثم يأوي إلى الفراش عند أول ظاهرة برد محتمَل، وكانت فكرتي عنه أنه يستشير الطبيب فوراً في كل حالة مَرَضية مهما كانت بسيطة.

والآن وهو مريض حقاً ينعكس الوضع! فهل يكون مرضه الحقيقي هو السبب في ذلك؟ الأمراض الأخرى كانت عديمة

الأهمية، أما والآن وهو رجل مريض فربما خشي أن يعترف بحقيقة مرضه واستخفّ به لأنه كان خائفاً منه.

أجاب بوارو على احتجاجاتي بحيوية ومرارة قائلاً: لكنني استشرت الأطباء، ليس واحداً بل عدة، وقد ذهبت إلى طبيبَين اختصاصيَّين من كبار الأطباء، وماذا عملا؟ أرسلاني إلى مصر لتسوء صحتي. وقد ذهبت إلى أخصائي قلب أيضاً.

سألته بسرعة: وماذا قال؟

رمقني بوارو بنظرة جانبية جعلت قلبي يقفز بعنف، ثم قال بهدوء: لقد عمل ما يستطيعه من أجلي. لديّ علاجي وأدويتي قريبة منّي، ولا شيء أكثر من هذا؛ لذلك فإن استدعاء المزيد من الأطباء لن ينفع. الآلة تهرم يا صديقي، ولا يستطيع المرء تركيب آلة جديدة كالسيارة ليبدأ من جديد.

- لكن اسمع يا بوارو، لا بد أن في الأمر شيئاً. إن كيرتس...

قال بوارو بحده: كيرتس؟!

- نعم، لقد جاء إليّ قلقاً وقال إنك أُصبتَ بنوبة قلبية.

أومأ بوارو برأسه بلطف وقال: نعم، نعم؛ تحدث بعض الاضطرابات أحياناً، وهي مؤلمة لمن يشاهدها. إن كيرتس غير معتاد على رؤية نوبات القلب.

- ألن تذهب إلى الطبيب؟

- لا فائدة يا صديقي.

كان يتكلم بهدوء ولكن بطريقة حاسمة، وقد جعلني ذلك أشعر بضيق شديد في صدري مرة أخرى. ابتسم لي بوارو وقال: ستكون هذه آخر قضية لي يا هيستنغز، وستكون الأكثر إثارة أيضاً، وسيكون المجرم الأكثر إثارة لأن السيد «س» يمتلك أسلوباً مميزاً ورائعاً، وهذا يدعو إلى الإعجاب على الرغم من كل شيء. لقد استطاع أن يهزمني حتى الآن بأساليبه التي عمل بها يا عزيزي، أنا هيركيول بوارو! لقد طوّر هجومه بشكل لا أستطيع مناظرته.

قلت مخفّفاً عنه: لو كانت صحتك جيدة...

وعلى ما بدا فلم يكُن ذلك مناسباً قوله؛ فقد ثار غضب هيركيول بوارو وقال: ألم أقل لك ستاً وثلاثين مرة وستاً وثلاثين مرة أخرى إنه ليست بي حاجة إلى العمل الجسدي؟ يحتاج الشخص إلى التفكير فقط.

- حسناً، بالتأكيد، نعم، تستطيع ذلك بشكل مناسب.

- مناسب؟! بل أستطيع ذلك باقتدار. أطرافي مشلولة وقلبي عليل، لكن عقلي يعمل بلا علّة من أيّ نوع يا هيستنغز؛ عقلي ما زال من الصنف الممتاز.

قلت محاولاً تهدئته: هذا عظيم.

لكنني فكرت حينما كنت متجهاً إلى الطابق السفلي بأن عقل بوارو لم يكُن يستوعب الأشياء بنفس سرعته المعهودة؛ فأولاً نجاة السيدة لاتريل والآن وفاة السيدة فرانكلين، وماذا كنّا نعمل حيالهما؟ لا شيء.

-٢-

في اليوم التالي قال لي بوارو: لقد اقترحتَ أن أذهب لرؤية الطبيب يا هيستنغز.

قلت بحرارة: نعم، سأشعر بسرور بالغ إن فعلتَ.

- حسناً، سأوافق، سأرىَ فرانكلين.

نظرت إليه بشك وقلت: فرانكلين؟!

- أليس طبيباً جيداً؟

- بلى، ولكنه مختصّ في الأبحاث، أليس كذلك؟

- بلى، بلا شك، ولن ينجح طبيباً عاماً على ما أعتقد؛ فليس لديه ما يسمّى «آداب السرير»، لكنه مؤهَّل. في الحقيقة يجب أن أقول كما يقولون في الأفلام: «إنه يعرف موضوعه أكثر من الآخَرين».

لم أقتنع بما قاله، ومع أنني لم أشكّ في مقدرة فرانكلين إلاّ أنني اعتقدت دائماً أنه رجل عديم الصبر وغير مهتمّ بالأمراض البشرية. من الممكن أن يكون هذا موضع إعجاب في مجال الأبحاث ولكنه ليس جيداً لأي مريضٍ يعاينه. على أية حال كان ذلك تنازلاً من جانب بوارو حيث لم يكُن له طبيب خاص.

وافق فرانكلين على فحص بوارو ولكنه أوضح أنه إذا كانت هناك حاجة لعناية طبية روتينية فمن الواجب استدعاء الطبيب المحلي، حيث إنه لن يكون قادراً على الاعتناء به شخصياً. وقد

أمضى فرانكلين وقتاً طويلاً في فحصه، وكنتُ في انتظاره عندما خرج في النهاية فسحبته إلى غرفتي وأغلقت الباب ثم سألته بقلق: حسناً، ما الأمر؟

قال فرانكلين بعد تفكير: إن بوارو رجل مميَّز.

تجاهلت هذه الحقيقة الواضحة وقلت: آه، نعم، ولكن كيف صحته؟

قال فرانكلين وقد بدا مدهوشاً وكأنني لم أذكر أيّ شيء مهم: آه، صحته؟ صحته سيئة طبعاً.

لم تكُن تلك هي الطريقة المهنية الصحيحة لوصف الحالة حسب اعتقادي، لكنني سمعت من جوديث أن فرانكلين كان من ألمع الطلاب في وقته فتساءلت بقلق: سيئة إلى أي درجة؟

رماني بنظرة ثم قال: أتريد أن تعرف؟

- طبعاً.

وماذا كان يظن هذا الغبي؟! ثم أخبرني في الحال فقال: معظم الناس لا يريدون أن يعرفوا، يريدون جرعة مخفَّفة، يريدون أملاً، يريدون تأكيدات بأن الأدوية ستشفيهم، وبالطبع قد تحدث معجزة ويشفون ولكن هذا لن يحدث في حالة بوارو.

- هل تعني...؟

ومرة أخرى شعرت بضيق في صدري، وأومأ فرانكلين وقال: بوارو على وشك الموت بالتأكيد، وقريباً جداً كما أظن. لم

يكُن بإمكاني إخبارك لو لم يسمح لي بوارو بذلك.

- إذن فهو يعرف هذا؟

- إنه يعرف تماماً أنّ قلبه يمكن أن يتوقف في أية لحظة. بالطبع لا يستطيع المرء أن يخمّن الوقت بالتحديد.

توقف لحظة ثم قال ببطء: لقد استنتجت ممّا قاله أنه قلق بخصوص أمر ما، شيء منشغل به كما قال. هل تعرف شيئاً عن ذلك؟

قلت: نعم، أعرف.

رمقني فرانكلين بنظرة اهتمام وقال: إنه يريد إنهاء المهمة.

- حسناً، أنا أُدرك ما تعني.

تساءلت في نفسي إن كان جون فرانكلين يعرف المهمة! ثم قال ببطء: أتمنى أن ينال مراده، فهذا يعني الكثير له كما قال.

وتوقف لحظة ثم تابع: إن لديه عقلاً منطقياً.

سألت بقلق: ألا يمكن عمل شيء لعلاجه؟

هزّ رأسه نفياً وقال: "لا شيء. لديه الكثير من الكبسولات التي يمكن أن يستخدمها إذا شعر بنوبة قادمة". ثم قال ببطء: بوارو يقدّر الحياة البشرية، أليس كذلك؟

كان سؤاله مثيراً للفضول فقلت: بلى، أعتقد ذلك.

لقد سمعت بوارو مرات عديدة يقول إنه لا يوافق على

الجريمة. هذه الجملة البسيطة التي قيلت بعناية لعبت بعواطفي بشدة، في حين تابع فرانكلين: هذا هو الفرق بيننا، فأنا لا أقدّر الحياة البشرية.

نظرت إليه بفضول وقد أمال رأسه بابتسامة باهتة ثم قال: صحيح تماماً. إذا كان الموت لا بد أن يأتي فما الفرق بين مجيئه آجلاً أو عاجلاً؟ فرق ضئيل جداً.

سألت بغضب: إذن ما الذي جعلك تدرس الطب إذا كان شعورك هكذا؟!

- عزيزي هيستنغز، ليس الطب لإطالة الحياة فقط بل لتحسين نوعيتها أيضاً. إذا مات رجل وهو في صحة جيدة فهذا لا يهمّ كثيراً، أما إذا مات رجل مُقعَد أو عليل فهذا أمر حسن، وإذا كان إعطاء الدواء المناسب سيحوّل مُقعَدك إلى فرد معافَىً بتحسين غدده مثلاً فهذا مهم جداً.

نظرت إليه باهتمام أكثر وما زلت أشعر بأنني لن أستدعي الدكتور فرانكلين إذا أصابني البرد، ولكنني قدّرت كثيراً جديته العميقة وقوته الداخلية. لقد لاحظت تغيّراً فيه منذ وفاة زوجته، حيث لم يُبدِ أي مظاهر حزن مألوفة، بل كان -على العكس من ذلك- مليئاً بالحياة والحيوية، ولم يكن غائب الذهن كالمعتاد.

قال فجأة قاطعاً أفكاري: لا تشابُه بينك وبين جوديث، أليس كذلك؟

- بلى، لا أعتقد أننا متشابهان.

- أتشبه أمها؟

فكرت ملياً ثم هززت رأسي ببطء نفياً وقلت: ليس بالضبط؛ فقد كانت زوجتي بَشوشة ضاحكة ولم تكُن تحمل أي شيء على محمل الجدّ، وقد حاولت أن تجعلني مثلها لكنها لم تنجح في ذلك للأسف.

ابتسم بفتور وقال: نعم، أنت أب صارم كما تقول جوديث، أليس كذلك؟ جوديث فتاة جادة لا تضحك كثيراً بسبب كثرة العمل كما أعتقد، وهذا ذنبي.

وبدأ يتكلم عن عمله فقلت بطريقة تقليدية: لا بد أن عملك مثير جداً.

- ماذا؟

- قلت إن عملك لا بدوأن يكون مثيراً.

- فقط لحفنة من الناس، وممل جداً للبقية العظمى، وربما كانوا على حق. على أية حال...

ودفع برأسه إلى الوراء وبدا رجلاً عظيم الهيبة مليئاً بالحيوية وهو يقول: لقد سنحت فرصتي الآن، يا إلهي! أستطيع الصراخ الآن. لقد أخبرني معهد ألمنستر اليوم بأن الوظيفة لا تزال موجودة، وسأبدأ العمل خلال عشرة أيام.

- هل ستسافر إلى أفريقيا؟

- نعم، يا لها من فرصة عظيمة!

وشعرت بالصدمة قليلاً فقلت: بهذه السرعة؟

حدّق إليّ دَهِشاً وقال: ماذا تعني بسؤالك؟! آه، لقد فهمتُ.

وانقشعت تكشيرته وقال: أتعني بعد موت باربرا؟ لِمَ لا؟ ليس من الملائم التظاهر بأن موتها لم يكُن أعظم خلاص لي.

بدا مدهوشاً للتعبير الذي ظهر على وجهي وقال: ليس لديّ الوقت للاعتبارات التقليدية. لقد أحببت باربرا وكانت فتاة جميلة جداً، وتزوجتُها ثم لم أعُد أحبّها بعد سنة من الزواج. لا أعتقد أن حبي لها امتدّ حتى هذه الفترة. لقد كنتُ خيبة أمل لها طبعاً، وقد فكّرَت بأنها تستطيع التأثير فيّ ولكنها لم تستطع لأنني أناني قاسٍ أعمل ما أريد.

ذكّرته قائلاً: ولكنك رفضت هذه الوظيفة في أفريقيا مراعاة لها؟

- نعم، لقد كان ذلك من ناحية مادية فقط، فقد تعهدت لباربرا بأن أوفّر لها حياة مريحة كالتي اعتادتها، ولو ذهبتُ إلى أفريقيا لما استطعتُ توفير ذلك لها.

ثم ابتسم ابتسامة طفولية صريحة وهو يتابع: لقد تحول الحظ إلى جانبي.

أثار ذلك شعوري بالغثيان. أعتقد أنه يصحّ القول إن كثيرين من الرجال الذين تموت زوجاتهم لا يشعرون بالحزن فعلاً (والكل تقريباً يعرف هذه الحقيقة)، لكن فرانكلين بالَغ في الصراحة.

ورأى التعبير على وجهي ولكن ذلك لم يثنِه فقلت بحدة: ألا يقلقك أن زوجتك قتلت نفسها؟

ففكر لحظة ثم قال: لا أصدّق أنها قتلت نفسها حقاً، هذا بعيد عن الحقيقة.

- ماذا تظنه قد حدث إذن؟

- لا أدري، ولا أعتقد أنني أريد أن أعرف. أتفهمني؟

حدقت إليه فوجدت عينيه قاسيتين باردتين، وقال مرة أخرى: لا أريد أن أعرف، لست مهتماً بأن أعرف. ألا ترى؟

لقد فهمت ما يقصده ولكنه لم يعجبني، لم يعجبني مطلقاً.

-٣-

لا أدري بالضبط متى لاحظت أن شيئاً ما يشغل تفكير ستيفن نورتون. كان صامتاً بعد انتهاء جلسة التحقيق وبعد الجنازة حيث كان يسير بجبين مقطَّب وعينين منكَّستين، وكان من عادته أن يمرر أصابعه في شعره حتى ينتصب. لقد كان ذلك مضحكاً ويوحي بنوع من الارتباك.

عندما كلمته أجاب إجابات تنمّ عن شروده، وقد خطر ببالي أن شيئاً ما لا بد أن يكون قد أقلقه في الفترة الأخيرة. سألته بلطف إن كان قد سمع أخباراً سيّئة من أي نوع لكنه أجاب بالنفي، وقد أنهت إجابته هذا الموضوع. ولكن بدا بعد وقت قصير وكأنه يحاول استشارتي في موضوع معيَّن مستخدماً اللفّ والدوران بطريقة

سخيفة، وكما كان يتلعثم دائماً عندما يريد الكلام في موضوع جادّ فقد بدأ يحكي لي قصة تتركز في نقطة أخلاقية فقال: أتعلم يا هيستنغز؟ من المفروض أن يكون الكلام عن الصواب والخطأ سهلاً، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة عندما توضع في تجرِبة عملية. أعني أن المرء قد يرى -مصادفة- شيئاً معيَّناً ليس من المفترض فيه أن يراه، وهو الشيء نفسه الذي لا تستطيع استخدامه لصالحك، ومع ذلك فقد يكون مهماً جداً. هل تفهم ما أعني؟

فاعترفت قائلاً: ليس تماماً في الحقيقة.

قطّب نورتون حاجبَيه ومرّ بأصابعه في شعره بطريقة جعلت شعره يقف بطريقة مضحكة وقال: من الصعب جداً تفسير الأمر. ما أعنيه هو... حسناً، لنفترض أنك رأيت شيئاً في رسالة خاصة فُتحت بطريق الخطأ، الرسالة موجَّهة لشخص آخَر، ولكنك فتحتَها بطريق الخطأ وبدأتَ تقرؤها لأنك كنت تظن الرسالة موجَّهة لك قبل أن تلاحظ أنها ليست لك، هذا يمكن أن يحدث كما تعلم.

- بالطبع يمكن أن يحدث.

- حسناً، ماذا يمكن للشخص أن يفعل؟

فكّرت بالمشكلة ثم قلت: حسناً، أظن أن من الواجب أن تذهب إلى ذلك الشخص وتعتذر له لأنك فتحت رسالته بطريق الخطأ.

تنهد نورتون وقال: ليس الأمر بهذه السهولة؛ من الممكن أن تكون قد قرأتَ شيئاً محرجاً يا هيستنغز.

- تعني أن ذلك سيحرج الشخص الآخر؟ أظن أنك ستتظاهر بأنك لم تقرأ أي شيء وأنك اكتشفت خطأك قبل فوات الأوان.

قال نورتون بعد دقيقة صمت وقد بدا أنه لم يشعر أنه وصل إلى حلّ مقبول: "نعم". ثم قال بلامبالاة: أتمنى أن أعرف ما يجب عمله.

قلت: أنا لا أرى أيّ حل أخر.

قال نورتون وما زال الارتباك بادياً عليه: أترى يا هيستنغز؟ هناك أكثر مما هو ظاهر. افترض أن ما قرأته كان مهما جداً لشخص آخر، أعني...

فقدتُ صبري فقلت بحدة: يا إلهي يا نورتون! لا أفهم ما تقصده. إنك لا تستطيع الاستمرار في قراءة رسائل الآخرين، أليس كذلك؟

- بلى، بلى، بالطبع لم أقصد ذلك، ولم تكُن رسالة على أية حال. قلت ذلك فقط لأحاول تفسير شيء آخر مشابه. بالطبع أيّ شيء رأيته أو سمعته أو قرأته ستحتفظ به لنفسك، إلا...

- إلا ماذا؟

قال نورتون ببطء: إلا إذا كان شيئاً يجب عليك الكلام بشأنه.

نظرت إليه باهتمام فتابع: اسمعني، افرض أنك رأيت شيئاً خلال ثقب المفتاح.

الكلام عن ثقوب المفاتيح جعلني أفكر في بوارو. بدأ نورتون

بالتلعثم قائلاً: ما أعنيه أنه إذا كان عندك سبب جيّد للنظر من خلال ثقب الباب، مثلاً إذا انحشر المفتاح ونظرت لترى سبب انحشاره ولم تظن أبداً أنك سترى ما رأيته.

وللحظة أو اثنتين فقدتُ خيط جمله المتعثرة لأنني تذكرت فجأة يوم كنّا نتمشى معاً حينما كان نورتون يراقب نقّار الخشب بمنظاره، وقد تذكرت مدى انزعاجه وارتباكه ومحاولته منعي من النظر بالمنظار. في تلك اللحظة اعتقدتُ أن ما رآه كان شيئاً يخصني، وأنه في الحقيقة رأى جوديث وأليرتون. لكن لنفرض أنه لم يرَهما بل رأى شيئاً مختلفاً، وأنني ظننت أنه أمرٌ يخص جوديث وأليرتون لأنني كنت منشغلاً بالتفكير فيهما في ذلك الوقت ولم أستطع التفكير في أي شيء آخر.

قلت فجأة: هل كان شيئاً رأيته بمنظارك؟

بدا نورتون وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيل عن كاهله وقال: كيف خمّنت ذلك يا هيستنغز؟

- كان هذا في ذلك اليوم عندما كنّا أنت وأنا وإليزابيث كول نتمشى عند تلك الهضبة، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح.

- ولم تكُن تريدني أن أرى؟

- نعم، لم تكُن... أعني أنه لم يكُن من المفترَض لأحد أن يرى.

- ماذا رأيت؟

قطب نورتون حاجبَيه مجدَّداً وقال: هذه هي معضلتي. هل أستطيع القول؟ أعني أنه كان... حسناً، لقد كان تجسّساً. رأيت شيئاً لم يكُن من المفترَض أن أراه، لقد كان هناك حقاً نقار خشب، ثم رأيت شيئاً آخر.

وتوقف عن الكلام وقد أثار فضولي بشدة، ومع ذلك احترمت حيرته وسألته: هل كان شيئاً مهماً؟

حملق ببطء وقال: من الممكن أن يكون مهماً، وتلك هي المعضلة! لا أدري.

فسألته: هل لهذا الشيء علاقة بموت السيدة فرانكلين؟

فحملق بي وقال: غريب أن تقول ذلك!

- إذن فالأمر كذلك؟

فقال ببطء: لا، لا، ليس بشكل مباشر، ولكن من الممكن أن يكون كذلك، يمكن لما رأيت أن يلقي ضوءاً مختلفاً على أشياء محدَّدة، يمكنه أن يعني... يا إلهي! لا أدري ما ينبغي أن أفعل.

كنت في حيرة من أمري والفضول يلتهمني، ومع ذلك شعرت بأن نورتون متردد جداً في إخباري بما رأى، وقد قدّرتُ ذلك وكنت سأشعر بشعوره نفسه لو كنت مكانه. من المكروه أن تكون لديك معلومات اكتسبتها -حسب اعتقاد الناس- بطرق ملتوية.

خطرت ببالي فكرة فعرضتها على نورتون قائلاً: لماذا لا تستشير بوارو؟

بدا نورتون متشككاً وهو يقول: بوارو؟

- نعم، اسأله نصيحته.

قال نورتون ببطء: حسناً، إنها فكرة جيدة. لكنه أجنبي!

وتوقّف محرَجاً وقد فهمتُ ما قال. كنت أعرف تماماً تعليق بوارو الحادّ على مسألة الانغماس في اللعبة، وقد تعجبتُ لماذا لم يفكّر بوارو في استعمال المنظار لمراقبة الطيور! كان سيفعل ذلك بالتأكيد لو فكر به. شجعت نورتون قائلاً: سيحترم خصوصيتك وائتمانك له، ولا حاجة بك للأخذ بنصيحته إن لم تُرِد.

قال نورتون بعد أن زالت تقطيبة وجهه: هذا صحيح. أتعلم يا هيستنغز؟ سأفعل ذلك بالتأكيد.

-٤-

أدهشني ردّ فعل بوارو على المعلومات التي أخبرتُه بها حيث هتف قائلاً: ما هذا الذي تقوله يا هيستنغز؟!

وأسقط قطعة الخبز من يده ودفع برأسه إلى الأمام وأكمل قائلاً: أخبرني، أخبرني بسرعة.

أعدت عليه القصة فردّ بوارو بعد تفكير: رأى شيئاً ما في ذلك اليوم بمنظاره، شيئاً لن يخبرك به؟

واندفعت يد بوارو ممسكة بذراعي وقال: ألم يخبر أحداً بذلك؟

- لا أظنه أخبر أحداً، أنا متأكد من أنه لم يفعل.

- كن حَذِراً يا هيستنغز؛ من الضروري أن لا يخبر أحداً بذلك. يجب أن لا يلمّح لأحد بذلك لأن هذا قد يضعه في موقف خطير.

- موقف خطير؟!

- نعم، خطير جداً.

كان وجه بوارو وقوراً وهو يتابع قائلاً: رتّب معه يا صديقي لمقابلتي هذا المساء. مجرَّد زيارة عادية لصديق، ولا تدَع أحداً يشك بأن لهذه الزيارة سبباً آخَر. وكن حَذِراً جداً يا هيستنغز، كن حذراً جداً. من كان معكم في ذلك الوقت؟

- إليزابيث كول.

- هل لاحظت شيئاً غريباً بخصوص تصرفها؟

حاولت أن أتذكر ثم قلت: لا أدري، ربما لاحظت. هل أسألها إذا...؟

- لن تقول شيئاً يا هيستنغز، لا شيء مطلقاً.

* * *

الفصل السادس عشر

-١-

أخبرت نورتون برسالة بوارو فقال: سأذهب لرؤيته بالتأكيد، لكن أتدري يا هيستنغز؟ أنا آسف لأنني ذكرتُ الأمر لك.

- أنت بالطبع لم تذكر الأمر لأحد سواي؟

- بالطبع لم أذكره لأحد.

- هل أنت متأكد؟

- طبعاً، لم أذكر أيّ شيء.

- حسناً، إيّاك أن تفعل، ليس قبل أن ترى بوارو.

لاحظت التردد في نبرة صوته عندما أجاب أول مرة، ولكن كانت نبرة التصميم واضحة في تأكيده الثاني، ولقد تذكرت ردّه هذا فيما بعد.

-٢-

ذهبت مرة أخرى إلى المرتفَع العشبي حيث كنّا ذلك اليوم،

وكان شخص آخر قد سبقني إلى المكان، إليزابيث كول. وقد أدارت رأسها حين صعدت الممر وقالت: تبدو منفعلاً يا كابتن هيستنغز، هل من مشكلة؟

حاولت تهدئة نفسي وقلت: "لا، أبداً، أنا ألهث لأنني كنت أمشي مسرعاً". ثم أضفت بصوت طبيعي: ستمطر اليوم.

فنظرَت إلى السماء وقالت: نعم، أعتقد ذلك.

ووقفنا صامتَين لمدة دقيقة أو اثنتين. في هذه المرأة شيء يجعلك تشعر بالشفقة نحوها، ومنذ أبلغَتني بهويتها وحدثتني عن المصيبة التي حطّمت حياتها وأنا أشعر بالشفقة عليها؛ فإن رابطة قوية تربط -عادة- أي شخصين يمران بالظروف التعِسة نفسها، ولكن أظن أنه كان هناك جانب آخَر بالنسبة لها. قلت باندفاع: أنا لست منفعلاً، ولكنني سمعت أخباراً سيّئة بخصوص صديقي.

- السيد بوارو؟

جعلني اهتمامها العطوف أتخلص من أثقال نفسي وأوضح لها الأمر كله، وعندما انتهيت قالت بنعومة: أنا أقدّر الموقف، ولكنك تعلم أن النهاية ستأتي في وقت ما.

أومأت برأسي عاجزاً عن الكلام، وبعد دقيقة أو اثنتين قلت: وعندما يموت سأكون وحيداً في هذا العالَم.

- لا؛ فعندك جوديث وأولادك الآخرون.

- أبنائي مشتَّتون حول العالَم، أما جوديث فلها عملها ولن تحتاج إليّ.

- أوافقك على ذلك؛ لا يحتاج الأبناء آباءهم إلا إذا وقعوا في المتاعب. هذه قاعدة أساسية. أنا وحيدة أكثر منك فأختاي بعيدتان عنّي، إحداهما في أمريكا والأخرى في إيطاليا.

قلت: يا ابنتي، ما زالت حياتك في بدايتها.

- وأنا في الخامسة والثلاثين؟

قلت: وما الخامسة والثلاثون؟ ليتني كنت في الخامسة والثلاثين!

ثم أضفت بمكر: وأنا لست أعمى كما تعلمين.

رمقتني بنظرة متسائلة لحظة، ثم احمَرّ وجهها وقالت: لا تذهب بظنونك بعيداً؛ أنا وستيفن نورتون مجرَّد صديقَين، ونحن متشابهان في كثير من الأمور.

- هذا أفضل.

- نورتون شخص طيب جداً.

- عزيزتي، لا تصدقي بأن كل ذلك طِيبة، فليس هذا من طبيعتنا نحن الرجال.

شحب وجه إليزابيث كول فجأة وقالت بصوت منخفض قلق: أنت قاسٍ؛ كيف يمكن أن أفكّر أبداً بالزواج بتاريخي الحافل وأختي مجرمة أو مختلّة عقلياً، ولا ادري ما الأضرار التي...؟

قلت بقوة: لا تدَعي ذلك ينهش عقلك، وتذكري بأنه قد لا يكون صحيحاً.

- ماذا تعني؟! بل هو صحيح.

- ألا تذكرين أنك قلت لي يوماً إنها ليست طبيعة ماغي.

حبست أنفاسها وقالت: مَن يعرفها يحسّ بذلك.

- إحساس المرء هو الصحيح عادة.

حملقت إليّ ثم قالت: ماذا تعني؟

- أعني أن أختك لم تقتل أباها.

ارتفعت يدها إلى فمها تلقائياً واتسعت حدقتاها وقد لاح فيهما الخوف، ونظرت إلى عينَيّ مباشرة وقالت: أنت مجنون، لا بد أن تكون مجنوناً! مَن أخبرك بذلك؟

فقلت: لا يهم من أخبرني، ولكنه صحيح، وسأثبت لك ذلك يوماً ما.

-٣-

لقيت بويد كارنغتون قرب المنزل مصادفة فقال لي: هذه ليلتي الأخيرة هنا، وسأغادر غداً.

- إلى «ناتون»؟

- نعم.

- لا بدّ أن هذا مثيرٌ لك.

فتنهد ثم قال: أعتقد ذلك، وعلى أي حال فليس لديّ مانع من إخبارك بأنني سأكون مسروراً بالرحيل من هنا.

- نعم، فالطعام رديء والخدمة سيّئة.

- لم أقصد ذلك، وعلى أي حال فالمكان هنا رخيص ولا يمكن أن تتوقع الكثير من بيوت الضيافة هذه. لا يا هيستنغز، أنا أعني أكثر من الراحة، أنا لا أحب هذا المنزل لأن له تأثيراً ضارّاً، فهنا تحدث أشياء سيئة.

- بالتأكيد تحدث أشياء هنا.

- لا أدري ما هي. لعل بيتاً ارتُكبت فيه جريمة في السابق لن يكون البيت ذاته بعد ذلك أبداً. ولكنني لا أحبه، فأولاً حادثة السيدة لاتريل (ومن سوء الحظ أن يحدث هذا)، وبعد ذلك المسكينة باربرا.

وتوقف قليلاً ثم تابع: يمكنني القول إنها آخر شخص في العالَم يمكن أن يفكّر بالانتحار.

ترددت قبل أن أقول: لا أعلم إن كنت أوافقك الرأي في هذا، ولكن...

فقاطعني قائلاً: حسناً، يمكنني قول ذلك. لنستعرض الأحداث معاً: لقد كنتُ معها طوال اليوم السابق، وكانت مرحة واستمتعَت بنزهتنا معاً، والشيء الوحيد الذي كان يقلقها هو انغماس زوجها في تجارِبه التي قد تنهكه أو احتمال أن يحاول إجراء بعض التجارِب على نفسه. أتعلم ما أفكر به يا هيستنغز؟

- لا.

- إن زوجها مسؤول عن وفاتها، فقد كان يضايقها على ما أظن. لقد جعلها تعتقد أنها حجر عثرة في طريق مستقبله فدمّرها ذلك. هذا الملعون القاسي لم تهتزّ له شعرة، وقد أخبرني بكل برود أنه ذاهب إلى أفريقيا. أتعلم يا هيستنغز؟ في الحقيقة لن يدهشني أن يكون هو الذي قتلها.

قلت بحدة: أنت لا تعني ذلك بالتأكيد.

- بالطبع لا أعنيه في الحقيقة، فأنا أعتقد أنه كان سيستخدم طريقة أخرى لو كان هو القاتل. لقد كان معروفاً أنه يجري تجارِبه على تلك المادة المسمّاة الفايزوستغمين، ولذلك فمن الواضح أنه لو أراد قتلها لاستعمل طريقة أخرى ولما استخدم هذه المادة، ولكن وبالرغم من كل شيء يا هيستنغز فلستُ الوحيد الذي يعتقد بأن فرانكلين موضع الشبهات، لقد أخبرني شخص يعرف...

سألته بحدة: من كان ذلك الشخص؟

خفض بويد كارنغتون صوته وأجاب: الممرّضة كارفن.

وقد دُهشت جداً من جوابه فهتفت: من؟!

- اسكت، لا تصرخ. الممرّضة كارفن أوحت لي بالفكرة. كارفن فتاة ذكية جداً كما تعلم وقوية الملاحظة، وهي لم تُعجب بفرانكلين، لم تُعجب به قط.

تعجبتُ لما قاله، وكان من المفروض أن أقول إن الشخص

الذي كرهته الممرّضة كارفن هو مريضتها. وأدركتُ فجأة أن الممرّضة كارفن لا بد أن تعرف الكثير من أسرار عائلة فرانكلين.

قال بويد كارنغتون: ستمكث الليلة هنا.

قلتُ بدهشة: ماذا؟

كنت أعرف أن كارفن قد غادرت بعد الجنازة مباشرة، وقد فسّر بويد كارنغتون قوله قائلاً: مجرَّد ليلة واحدة حتى تنتقل إلى مريضها الجديد.

- آه، نعم.

واكتنفني شعور غامض بعدم السرور لم أدرِ كنهه لعودة الممرّضة كارفن، وقد تساءلت إن كان لعودتها سبب، فهي لم تكُن معجَبة بفرانكلين كما قال بويد كارنغتون. وقلت له محاولاً طمأنة نفسي: ليس من حقها القدح في فرانكلين؛ فبعد كل شيء فإن أدلتها هي التي أدّت إلى تقرير أن الوفاة كانت نتيجة للانتحار. هذا بالإضافة إلى شهادة بوارو عن رؤيته السيدة فرانكلين خارجة من المختبر وفي يدها زجاجة صغيرة.

فردّ بويد كارنغتون بحدّة: وماذا في حملها زجاجة؟ النساء يحملن زجاجات دائماً، زجاجات عطر وصبغة شعر ودهان أظافر... تلك المرأة المسكينة كانت تتجول حاملة زجاجة في يدها تلك الليلة، وهذا لا يعني أنها كانت تفكر بالانتحار، أليس كذلك؟ هذا كلام فارغ.

لذتُ بالصمت عندما انضمّ إلينا أليرتون، وقد رافق صمتي

وبشكل سينمائي قعقعة رعد في البعد، واعتقدت (كما فعلت قبلاً) أن دور الشرير يناسب أليرتون جداً. لكنه كان بعيداً عن المنزل ليلة وفاة باربرا فرانكلين، وبالإضافة إلى ذلك لم أرَ له دافعاً لقتلها، ولكنني فكرت مرة أخرى بأن السيد «س» لا دافع لديه أيضاً. كان ذلك موضع قوّته، في حين كان هو، وهو فقط، موضع ضعفنا. ومع ذلك فقد تأتينا ومضة إلهام في أية لحظة تُلقي الضوء على الأحداث.

-٤-

أعتقد الآن (وأحب أن أسجل هذه الحقيقة هنا) أنني لم أفكر للحظة بأن بوارو يمكن أن يفشل، وفي الصراع بين بوارو والسيد «س» لم يخطر ببالي قط أن «س» سيكون المنتصر. وبالرغم من ضعف صحة بوارو وشيخوخته إلا أنني كنتُ مؤمناً بأنه الأقوى، ولقد اعتدت على نجاحه الدائم.

كان بوارو أول من زرع الشك في عقلي، وكنتُ قد ذهبت لرؤيته في طريقي إلى وجبة العشاء. لا أدري بالضبط ما الذي أدّى إلى ذلك، لكنه استعمل فجأة عبارة «إن حدث لي شيء»، فاحتججت حالاً بصوت مرتفع وقلت: لن يحدث شيء، لا يمكن لأيّ شيء أن يحدث.

- حسناً، إذن فأنت لم تستمع باهتمام لما قاله لك الدكتور فرانكلين؟

- فرانكلين لا يعرف شيئاً، ما زالت أمامك بضع سنين يا بوارو.

- محتمَل يا صديقي، ولكنه غير مؤكد. أنا الآن أتكلم عن الأكثر احتمالاً، فقد أموت قريباً لكنّ هذا الاحتمال لن يكون كافياً للسيد «س».

- ماذا؟

قلتها وقد لاحت الدهشة على وجهي نتيجة للصدمة، فأومأ بوارو قائلاً: إن «س» ذكي بالرغم من كل شيء يا هيستنغز، ذكي جداً في الحقيقة، ولن يفوته أن التخلص مني حتى قبل موتي الطبيعي ببضعة أيام فقط سيكون ذا فائدة لا تقدَّر بثمن.

أدهشني كلام بوارو فقلت: لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- عندما يسقط القائد فإن نائبه يأخذ مكانه يا عزيزي. ستأخذ أنت مكاني.

- كيف يمكنني ذلك؟! أنا ما زلت لا أعرف شيئاً!

- لقد حسبتُ حساب ذلك. إذا حدث لي أيّ شيء -يا صديقي- فستجد هنا جميع الأدلة التي تحتاج إليها.

قالها وهو يربّت على حقيبته التي وضعها بجانبه، ثم عاد يكمل: لقد احتطتُ لجميع الاحتمالات كما ترى. ليست بك حاجة لأن تكون ذكياً.

- حسناً، أخبرني الآن بكلّ شيء تجب معرفته.

- لا يا صديقي، عدم معرفتك بما أعرفه هو مصدر قوة في الحقيقة.

- هل تركت لي وثيقة مفصّلة؟

- بالتأكيد لم أفعل، فمن المحتمَل أن تقع في يد «س».

- إذن ما الذي تركتَه؟

- أدلة لن تعني شيئاً للقاتل، ولكنها ستقودك إلى اكتشاف الحقيقة.

- لستُ متأكداً من ذلك. لماذا يجب أن يكون عقلك ملتوياً بهذا الشكل يا بوارو؟! أنت تحب تعقيد الأمور دائماً! لقد كنتَ كذلك طول عمرك.

- وأنا شغوف بذلك الآن، أليس هذا ما تودّ قوله؟ لكن تأكد أنّ أدلتي ستقودك إلى الحقيقة.

وتوقف لحظة ثم تابع: وقد تتمنّى لو لم تقُدك إلى هذا الحد، وربما تمنيت أن تقول: «أَسْدِل الستارة».

كان في صوته شيء ما أيقظ داخلي ذلك الشعور بالفزع، الشعور الذي أحسسته عدة مرات من قبل، وبدا كما لو كان شيء ما بعيداً عن مرمى البصر. حقيقة لم أكُن أريد معرفتها ولا أستطيع الاعتراف بها، شيء ما أعرفه جيداً في داخل نفسي.

وتخلصت من ذلك الشعور تدريجياً ثم نزلت لتناول طعام العشاء.

* * *

الفصل السابع عشر

-١-

كانت وجبة العشاء مرحة إلى حد معقول، وقد كانت السيدة لاتريل في غرفة الجلوس مرة أخرى حيث كانت في قمة مرحها الأيرلندي المصطنَع، وكان فرانكلين أكثر حيوية وبشاشة من المعتاد، أما الممرّضة كارفن فقد كانت المرة الأولى التي أراها فيها تلبس ثياباً عادية بدلاً من زي الممرضات، وقد بدت امرأة جميلة بحق بعدما طرحت تحفظها المهنيّ جانباً.

اقترحَت السيدة لاتريل لعبة ورق بعد العشاء. وقد ابتدأ اللعب في النهاية، وفي نحو التاسعة والنصف أعلن نورتون عن نيته زيارة بوارو. قال بويد كارنغتون: فكرة جيدة؛ أشعر بالأسف لأنه لم يكُن بصحة جيدة مؤخَّراً. سآتي معك للاطمئنان عليه.

كان يجب عليّ التصرف بحكمة فقلتُ: انتظر، أرجو أن لا تمانع ولكن بوارو يتعبه حقاً التحدث لأكثر من شخص في نفس الوقت.

وفهم نورتون مقصدي فقال: لقد وعدته أن أعيره كتاباً عن الطيور.

قال بويد كارنغتون: حسناً، هل ستعود يا هيستنغز؟

- نعم.

وصعدت مع نورتون حيث كان بوارو ينتظرنا، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات عدت إلى غرفة الجلوس حيث بدأنا لعب الورق. وأعتقد أن بويد كارنغتون كان ممتعضاً من جو المرح الذي ساد «ستايلز» تلك الليلة، فربما فكّر أنه من المبكّر أن ينسى الجميع ما حدث. لقد لعب بذهن غائب ونسي في بعض الأوقات ما كان يفعله، وأخيراً اعتذر عن اللعب وذهب إلى النافذة وفتحها. كان يمكن سماع صوت الرعد الآتي من بعيد، وكان من الواضح أن عاصفة في طريقها إلينا ولكنها لم تصل بعد. ثم أعاد إغلاق النافذة ورجع إلينا ووقف يراقب اللعب لدقيقة أو اثنتين، ثم غادر الغرفة.

ذهبت إلى الفراش في نحو الحادية عشرة إلا الربع. ولم أذهب لرؤية بوارو؛ فلعله يكون نائماً. وبالإضافة إلى ذلك فقد شعرت برغبة في عدم التفكير بستايلز ومشكلاته. أردت أن أنام، أنام وأنسى.

كنت على وشك النوم عندما نبّهني صوتٌ ظننت أنه طرقة خفيفة على بابي، فناديت: "ادخل". لكنني لم أسمع ردّاً، فأشعلت الضوء ونظرت إلى الممر فرأيت نورتون يخرج من الحمام متجهاً إلى غرفته. كان يلبس رداء نوم مخطّطاً ذا ألوان بشعة وكان شعره منتصباً كما هو حاله دائماً. ذهب إلى غرفته وأغلق الباب، وبعد

ذلك مباشرة سمعته يدير المفتاح في قفل الباب.

كانت العاصفة تقترب وكان يمكن سماع صوت رعد خفيف. وعدت إلى الفراش يساورني شعور بالقلق نتج عن سماعي صوت المفتاح يدور في القفل؛ لقد أوحى ذلك -ولو بشكل بسيط- باحتمالات شريرة. لماذا يقفل نورتون باب غرفته في أثناء الليل؟ هل حذّره بوارو وطلب منه أن يفعل ذلك؟ وتذكرت -ببعض القلق- كيف اختفى مفتاح غرفة بوارو بطريقة غامضة.

استلقيت في فراشي وقلقي يزداد، وكان هدير العاصفة يزيد من شعوري بعدم الارتياح. وأخيراً نهضت وأقفلت باب حجرتي وعدت إلى فراشي ونمت.

-٢-

ذهبت لرؤية بوارو قبل نزولي لتناول طعام الفطور فوجدته ما يزال في فراشه، وقد فاجأني منظره العليل مرة أخرى. كانت تجاعيد عميقة بادية على وجهه نتيجة للتعب وكبر السن. قلت: كيف حالك أيها العجوز؟

لاح على وجهه تعبير باسم وقال: ما زلت حياً يا صديقي، ما زلت حياً.

- دون أيّ ألم؟

قال: "أنا تَعِبٌ فقط"، ثم تنهد.وتابع: تعِب جداً.

أومأت قائلاً: حسناً، ماذا حدث في الليلة الماضية؟ هل أخبرك نورتون بما رأى ذلك اليوم؟

- نعم، لقد أخبرني.

- وما الذي رآه؟

نظر إليّ بوارو وقد فكّر طويلاً قبل أن يردّ: لستُ متأكداً إن كان من الواجب أن أخبرك، فمن الممكن أن تسيء الفهم.

- ماذا تقول؟!

قال بوارو: أخبرني نورتون أنه رأى شخصين.

فصرختُ قائلاً: جوديث وأليرتون؟ لقد ظننتُ ذلك في حينه.

- حسناً، ليس جوديث وأليرتون. ألم أخبرك أنك ستسيء الفهم؟ أنت رجل ذو تفكير محدود.

فقلت: حسناً، أنا آسف، ولكن أخبرني إذن.

- سأخبرك غداً؛ فلديّ الكثير للتفكير به.

- هل سيساعد هذا في القضية؟

أومأ بوارو برأسه ثم أغلق عينيه واسترخى على مسنده وهو يقول: لقد انتهت القضية، نعم، لقد انتهت. فقط يجب إنهاء بعض الأمور البسيطة. اذهب لتناول فطورك يا صديقي وابعث لي كيرتس.

فعلت ما طلبه مني حين ذهبت إلى الطابق السفلي لتناول طعام

الفطور، وقد أردت رؤية نورتون لأنني شعرت بالفضول لمعرفة ما أخبر به بوارو. كنت أحس بعدم السعادة لاشعورياً، فخلوّ صوت بوارو من البهجة أزعجني. لماذا كل هذا التكتم؟ لماذا هذا الشعور بالحزن الذي لا يمكن تفسيره؟ ما حقيقة كل هذا؟

* * *

لم يكُن نورتون موجوداً على مائدة الإفطار، وبعد الفطور تمشيت في الحديقة حيث كان الجو منعشاً وبارداً بعد العاصفة، وقد لاحظت أنها أمطرت بغزارة. كان بويد كارنغتون يتمشى على العشب فسعدتُ لرؤيته كثيراً وتمنيت لو استطعت أن أضع فيه ثقتي. تمنيت ذلك دائماً، وقد ازداد الإغراء في تلك اللحظة حيث لم يكُن بوارو قادراً على الاستمرار.

قال بويد كارنغتون: هل تأخرتَ في النهوض هذا الصباح؟

أومأت إيجاباً ثم قلت: نمتُ متأخراً.

- هل سمعت الرعد في الليلة الماضية؟

وتذكرت حينها أنني كنت واعياً في نومي، وقال بويد كارنغتون: لقد أحسستُ بتوعك في الليلة الماضية، أما اليوم فأحسّ بتحسن.

وتثاءب مادّاً ذراعَيه جانباً فسألته: أين نورتون؟

- لا أظن أن الشيطان الكسول قد استيقظ بعد.

وبشكل تلقائي رفعنا بصرنا إلى الأعلى، وكانت نوافذ غرفة نورتون فوقنا تماماً حيث وقفنا، وحملقت بدهشة لأن نوافذ غرفة نورتون كانت الوحيدة المغلَقة من بين جميع نوافذ الطابق. قلت بقلق: شيء غريب! أتظن أنهم نسوا إيقاظه؟

- غريب فعلاً! أرجو أن لا يكون مريضاً. دعنا نصعد للاطمئنان عليه.

صعدنا إلى الطابق العلوي معاً، وقد كانت منظّفة البيت (وهي فتاة غبية المظهر) في الممر، وأجابت على سؤالي قائلة إن السيد نورتون لم يردّ عليها عندما قرعَت الباب.

طرقتُ الباب مرة أو اثنتين، ولكن لا يبدو أنه قد سمع طرقي، وقد كان بابه مقفَلاً. سرَت في جسدي رعشة لا أعرف سببها، وطرقت الباب بعنف وأنا أنادي قائلاً: نورتون، استيقظ يا نورتون.

وأعدتُ النداء مرة أخرى شاعراً بالقلق قائلاً: أفِق يا نورتون.

-٣-

عندما صار واضحاً أننا لن نحصل على إجابة ذهبنا فوجدنا الكولونيل لاتريل الذي استمع لنا وعلامات القلق بادية في عينيه الزرقاوين الذابلتين، ثم فتل شاربه كعلامة تردد. أما السيدة لاتريل فقد كانت سيدة حازمة تتخذ القرارات دون ضجة حيث قالت: عليكم فتح الباب بأي طريقة، فليس لدينا حل آخر.

وللمرة الثانية في حياتي رأيت باباً يُكسَر في ستايلز، وقد

كان خلف هذا الباب المقَفل ما كان خلف الباب المقَفل في المرة الأولى: موت عنيف!

كان نورتون مُلقىً على سريره بردائه المسائي، وقد كان مفتاح الباب في جيبه، وكان في يده مسدس صغير يشبه لعبة صغيرة لكنها قادرة على إحداث الضرر، ورأينا ثقباً في منتصف جبينه بالضبط.

لدقيقة أو اثنتين لم أستطع التفكير بما ذكّرني به هذا المشهد... شيء قديم جداً، وقد كنت تَعِباً لا أستطيع تذكّره. وعندما دخلتُ غرفة بوارو ورأى تعبير وجهي قال بسرعة: ما الذي حدث؟ أهو نورتون؟

- لقد مات.

- كيف؟ ومتى؟

أخبرتُه بإيجاز بما حدث، واختتمتُ كلامي قائلاً: يقولون إنه انتحر. ماذا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك؟ لقد كان بابه موصداً والنوافذ مقفلة ومفتاح الغرفة في جيبه، كما أنني فعلاً رأيته يدخل الغرفة وسمعته يقفل الباب.

- هل رأيتَه حقاً يا هيستنغز؟

- نعم، لقد رأيته في الليلة الماضية.

شرحت له ما رأيت فقال: هل أنت متأكد من أنه كان نورتون؟

- بالطبع، فأنا أستطيع التعرف على ذلك الرداء القبيح أينما كان.

وللحظة عاد بوارو إلى طبيعته القديمة فقال: لكي أكون جاداً فمن المفروض أن تتعرف على الرجل وليس على ردائه؛ إذ يمكن لأي شخص أن يلبس لباساً مشابهاً.

قلت ببطء: هذا صحيح، فأنا لم أرَ وجهه، ولكن كان ذلك شعره بالتأكيد، وكذلك عرَجه.

- أيّ شخص يستطيع أن يعرج.

نظرت إليه دَهِشاً وقلت: أتريد أن تقول -يا بوارو- إن مَن رأيتُه لم يكُن نورتون؟

- أنا لا أقول أيّ شيء من هذا القبيل، ولكنني منزعج من الأسباب غير العلمية التي تعطيها لتثبت أنه كان نورتون. لا، لا أقول إنه لم يكُن نورتون، فمن الصعب أن يكون أحداً غيره؛ فجميع الرجال هنا طوال القامة، أطول منه بكثير، ولا تستطيع أبداً إخفاء الطول. لقد كان نورتون بطول خمسة أقدام وخمس بوصات تقريباً. يبدو الأمر وكأنه خدعة سحرية، أليس كذلك؟ يذهب إلى غرفته ويوصد الباب ثم يضع المفتاح في جيبه، وبعد ذلك يُعثَر عليه مقتولاً بالرصاص والمسدس في يده وما زال المفتاح في جيبه.

فقلت: أنت لا تصدق أنه قد قتل نفسه؟

هزّ بوارو رأسه ببطء وقال: نعم، لم يطلق نورتون النار على نفسه. لقد قُتل عمداً!

-٤-

ذهبت إلى الطابق السفلي وأنا لا أصدق، وأرجو مسامحتي إذا كنت قد فشلت في رواية ما سيتبع لأنني كنتُ منبهراً، وكان ما حدث شيئاً يصعب تفسيره. ومع ذلك فقد كانت الأحداث منطقية جداً. لقد قُتل نورتون، ولكن لماذا؟ لمنعه -كما اعتقدتُ- من إخبار أحد بما رأى. لكنه أخبر شخصاً آخر بذلك الأمر، وذلك الشخص في خطر أيضاً، ولم يكُن في خطر فحسب بل لا يمكنه الدفاع عن نفسه أيضاً.

كان من الواجب أن أعرف ذلك، كان من الواجب أن أتنبأ به.

قال بوارو بينما كنت أغادر الغرفة: صديقي العزيز!

كانت هذه آخر كلمات سمعته يقولها، فعندما جاء كيرتس ليعتني بسيده وجد ذلك السيد ميتاً.

* * *

الفصل الثامن عشر

-١-

لا أريد أن أكتب عن الموضوع لأنني أريد أن أنسى. لقد مات هيركيول بوارو، وبموته مات جزء كبير من آرثر هيستنغز.

سأعطيكم جميع الحقائق المجرَّدة دون رتوش، حيث إن هذا هو كل ما أستطيع تحمّل عمله. لقد مات بوارو -كما زعموا- بأسباب طبيعية نتيجة لنوبة قلبية كما توقع الدكتور فرانكلين. ولا شك أن موت نورتون قد أدّى لحدوث إحدى هذه النوبات، ونتيجة للإهمال فلم يكُن دواؤه (كبسولات الإميلنتريت) بجانب سريره. هل كان ذلك إهمالا؟ هل أزالها أحدهم عمداً؟ الأمر أعمق من ذلك؛ لا يستطيع السيد «س» أن ينتظر حدوث أزمة قلبية لبوارو. أنا أرفض أن أصدّق أن موت بوارو كان طبيعياً وأعتقد أنه قد قُتل كما قُتل نورتون وباربرا فرانكلين، ولا أعرف لماذا قُتلوا كما لا أعرف القاتل.

كالعادة جرى تحقيق لتحديد سبب وفاة نورتون، وكان الحكم أنه قد انتحر، ونقطة الشك الوحيدة أثارها الجرّاح بقوله إنه

من غير المعتاد لرجل أن يطلق النار على نفسه في منتصف جبهته تماماً، وقد كانت تلك هي نقطة الشك الوحيدة حيث كان كل شيء واضحاً: الباب المقفَل من الداخل والمفتاح في جيب القتيل والنوافذ المقفَلة والمسدس في يده.

وعلى ما يبدو كان نورتون قد اشتكى من صداع، وكانت بعض استثماراته المالية قد فشلت. من غير المعقول أن تكون هذه أسباباً تدعو إلى الانتحار ولكن كان عليهم أن يذكروا شيئاً. كان المسدس ملكه، فقد رأته المنظّفة في درج الطاولة عدة مرات خلال مكوثه في ستايلز. وهكذا فقد انتهى الأمر؛ جريمة أخرى نُفّذت بحذق ومهارة، وكالعادة دون احتمالات أخرى للشك.

في الصراع بين بوارو والسيد «س» كسب «س» الجولة، وقد بقي الأمر لي الآن لحل اللغز. وبصفتي منفّذاً لوصية بوارو فقد ذهبتُ إلى غرفته وأخذت حقيبة الوثائق ثم فتحتُها في غرفتي، وفي الحال أُصبتُ بصدمة عنيفة؛ فقد اختفى منها ملف قضايا «س». لقد رأيت الملف في الحقيبة قبل يوم أو اثنين عندما فتحها بوارو أمامي، وهذا دليل (إن احتجتُ إلى دليل) على أن هذا القاتل المجهول كان يعمل في الخفاء؛ فإما أن بوارو قد أتلف هذه الأوراق أو أن «س» هو مَن فعل ذلك.

ذلك الملعون الحقير، «س»! لكن الحقيبة لم تكُن خالية تماماً، فقد تذكّرت وعد بوارو بأنني سأجد دلائل أخرى لن يعرف عنها قاتلنا شيئاً، فهل هذه هي الدلائل؟ كان في الحقيبة نسخة من رواية شكسبير «عطيل»، طبعة صغيرة رخيصة، كما كانت فيها نسخة

من مسرحية «جون فيرغوسون» للكاتب سينت جون إرفن، وكانت فيها علامة عند الفصل الثالث.

حدّقت إلى الكتابَين ببلاهة، ففي الكتابَين تكمن الدلائل التي تركها لي بوارو، ولم يَعْنِ هذا أيّ شيء لي على الإطلاق! ماذا يمكن أن يعني هذا؟! الشيء الوحيد الذي فكرت به هو وجود شفرة ما، شفرة مبنيّة على الكتابَين، ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكنني حل هذه الشفرة السرية؟! لم أجد أيّ خطوط تحت أيّ كلمات أو حروف، وقد حاولت تسخين الصفحات بلطف ولكن دون نتيجة.

قرأت الفصل الثالث من مسرحية «جون فيرغوسون» بتأنٍّ وحرص. كان مشهداً جميلاً ومثيراً حيث يجلس كلوتي جون ويتكلم، وينتهي بخروج الشاب فيرغوسون باحثاً عن ذلك الشخص الذي أخطأ بحق أخته. شخصيات موصوفة بشكل مدهش، ولكنني لم أظن أن بوارو ترك لي الروايتين لتحسين ذوقي في الأدب!

وحينما كنت أقلب صفحات الكتاب سقطت منه قصاصة ورق صغيرة كان عليها بخط بوارو نفسه هذه الكلمات: «كلّم خادمي جورج».

حسناً، هنا شيء ما، لعله مفتاح اللغز... إن كان بوارو قد ترك لغزاً مع جورج. يجب أن أجد عنوانه وأذهب لرؤيته، لكن يجب عليّ أن أنتهي أولاً من عملية دفن صديقي المحزنة. هذه هي البقعة التي عاش فيها حين قدم إلى هذا البلد لأول مرة، وسيُدفن هنا في النهاية!

* * *

كانت جوديث لطيفة معي في تلك الأيام، فقد قضت معظم الوقت معي وساعدت في الترتيبات النهائية. كانت جوديث رقيقة وعطوفة، وكذلك كان بويد كارنغتون وإليزابيث كول.

ولم تتأثر إليزابيث كول كثيراً لموت نورتون كما توقعت، وإذا كانت قد حزنت كثيراً لموته فقد كتمت مشاعرها بمهارة.

وهكذا انتهى كل شيء.

-٢-

نعم، يجب أن أقولها؛ انتهت طقوس الجنازة. وقد كنت أجلس مع جوديث محاولاً وضع خطط للمستقبل حين قالت: لكنني لن أكون هنا يا أبي العزيز.

- لن تكوني هنا؟

- لن أكون في إنكلترا.

وحملقت إليها فقالت: لم أودّ إخبارك من قبل يا أبي؛ أردت أن لا أزيد الأمر سوءاً، ولكن يجب أن تعرف الآن وأرجو أن لا تمانع. سأذهب إلى أفريقيا مع الدكتور فرانكلين.

وتملّكني غضب شديد، فقد كان ذلك لا يُطاق! لا يمكنها أن تفعل شيئاً كهذا أبداً، فالكل سيلوك سمعتها بالتأكيد. أن تكون مساعدته هنا في إنكلترا وزوجتُه على قيد الحياة شيء، وأن تذهب معه إلى أفريقيا بعد وفاة زوجته شيء آخر. كان التفكير في هذا الأمر

غير محتمَل، ولسوف أحاول منعها بأيّ وسيلة، يجب أن لا تفعل جوديث شيئاً كهذا.

لم تقاطعني وتركتني أنهي كلامي، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: لكنني -يا أبي العزيز- لن أذهب مساعِدةً له، بل سأذهب معه زوجة.

صُعقت لما قالت وقلت بتلعثم: وماذا عن أليرتون؟

نظرت إليّ ببعض الدهشة ثم قالت: لم يكُن بيننا شيء قط، وقد كنت سأخبرك بذلك لو لم تغضبني. وبصراحة كنتُ أريدك أن تفكر بأن بيننا شيئاً ولم أحب أن تعرف أنه جون.

- ولكنني رأيتُه يضمك في إحدى الليالي على الشرفة!

قالت بنفاد صبر: كنت تعِسة تلك الليلة، وكما تعلم فهذه الأشياء يمكن أن تحدث.

قلت: لا تستطيعين الزواج بفرانكلين بعد، ليس بهذه السرعة.

- بل أستطيع، وأريد الذهاب معه. وكما قلت، فذلك أسهل. لا يوجد ما ننتظره الآن.

جوديث وفرانكلين... فرانكلين وجوديث! هل تستطيع فهم الأفكار التي راودتني؟ الأفكار التي اختبأت تحت السطح لفترة؟ جوديث تحمل زجاجة في يدها، جوديث تعلن بصوتها الفتيّ المتحمس بأن الناس عديمو الفائدة يجب التخلص منهم لإفساح

المجال أمام الناس المفيدين. جوديث التي أحببتها وأحبها بوارو... هل كان الشخصان اللذان رآهما نورتون جوديث وفرانكلين؟ لكن إذا كانا هما... لا، هذا مستحيل؛ لا، ليست جوديث قاتلة. ولكن من المحتمَل أن يكون فرانكلين، فهو شخص غريب عديم الشفقة وإذا صمم على القتل فسيقتل مرة وأخرى.

كان بوارو راغباً في استشارة فرانكلين، فلماذا؟ وماذا قال له ذلك الصباح؟ لكن ليست جوديث، ليست ابنتي الجميلة الصغيرة جوديث. ومع ذلك فكم بدا بوارو غريباً! وكم صعقتني كلماته حين قال: "وربما تمنيت أن تقول: «أسْدِل الستارة»"!

فجأة خطرت ببالي فكرة جديدة: كل هذا غريب لا يصدَّق. هل كانت قصة «س» كلها ملفَّقة؟ هل جاء بوارو إلى ستايلز لأنه خاف من مأساة في منزل عائلة فرانكلين؟ هل جاء للاعتناء بجوديث؟ هل كان هذا هو السبب في عدم إخباري بشيء لأن القصة كلها مفتعَلة من أساسها وغطاء لقدومه هنا؟ هل كانت ابنتي جوديث هي قلب المأساة؟

عُطَيل! كانت رواية «عطيل» تلك هي التي أخذتُها من خزانة الكتب في الليلة التي ماتت فيها السيدة فرانكلين. فهل كان ذلك هو الدليل؟

جوديث التي بدت في تلك الليلة (كما قال أحدهم) مثل سَمِيّتها قبل أن تقطع رأس هولوفيرنْس... جوديث ذات القلب المملوء بالموت!

* * *

الفصل التاسع عشر

أكتب هذه الكلمات وأنا في إيستبورن حيث قدمت لرؤية جورج خادم بوارو السابق. عمل جورج لدى بوارو لعدة سنوات، وقد كان كفئاً مستقيماً وكان صريحاً صادقاً يذكر الحقائق كما هي دون لفّ أو دوران. حسناً، لقد ذهبت لرؤيته وأخبرته بموت بوارو، وكان ردّ فعل جورج كما هو متوقًّع تماماً، فقد أصابه الحزن والاكتئاب لكنه كابَدَ لإخفاء هذه المشاعر.

قلت له: لقد ترك بوارو رسالة لي معك، أليس كذلك؟

فقال جورج مباشرة: لك يا سيدي؟ لا أتذكر أنه فعل.

دهشت لردّه، ورغم إصراري فقد كان متيقناً من جوابه. وقلت في النهاية: "إنها غلطتي على ما أظن. حسناً، لقد انتهى الأمر". ثم قلت: كم أتمنّى لو كنتُ معه عندما مات!

فقال جورج: كنت أتمنّى ذلك أنا أيضاً يا سيدي.

- لكن إذا كان والدك مريضاً فلا بد أن تذهب للاعتناء به، أليس كذلك؟

نظر إليّ جورج نظرة فضولية وقال: أرجو معذرتك يا سيدي، لكنني لا أفهم ما تقصده.

- لقد تركت خدمة بوارو للاعتناء بوالدك المريض، أليس هذا صحيحاً؟

- أنا لم أرغب في تركه يا سيدي، ولكنه أصر على ذهابي.

فحدّقت إليه وقلت: استغنى عن خدماتك؟

- لا أعني أنه صرفني من خدمته يا سيدي، بل كان الاتفاق على أن أعود إلى خدمته لاحقاً، لكنني تركته حسب رغبته وقد دفع كل أتعابي حينما كنت هنا مع والدي.

- لكن لماذا يا جورج؟ لماذا فعل ذلك؟

- لا أعرف يا سيدي.

- ألم تسأله؟

- لم أفعل يا سيدي؛ لم أفكّر أن هذا من اختصاصي. لقد كان للسيد بوارو دائماً أفكاره الخاصة، فهو رجل ذكي، وقد كنت أفهمه وأحترمه دائماً يا سيدي.

قلت بصوت خافت: نعم، نعم.

- لقد كان دقيقاً في اختيار ملابسه التي كان يفضّل أن تكون أجنبية فاخرة... إن فهمت ما أعني يا سيدي. ويمكن فهم ذلك إذا كان أجنبياً، كما أنه كان مهتماً جداً بشعره وشاربه.

وشعرت بوخزة ألم حين تذكرت كم كان معتزاً بشاربه فقلت: نعم، هذا الشارب المشهور.

تابع جورج: لقد كان دقيقاً جداً بشأن شاربه، ومع أنه كان يهذّبه بطريقة تقليدية إلا أنه كان يناسبه، إن فهمت ما أعني يا سيدي.

قلت: "أعلم ذلك". ثم غمغمت بلطف: أظن أنه كان يصبغه كما صبغ شعره؟

- كان يفعل ذلك في بعض الأحيان، ولكنه لم يصبغ شعره خلال السنوات الأخيرة.

قلت: كلام فارغ، لقد كان شعره أسود كالغراب بحيث بدا غيرَ طبيعي كالشعر المستعار.

فتنحنح جورج باعتذار وقال: عفواً سيدي، ولكنه كان شعراً مستعاراً بالفعل؛ فقد كان السيد بوارو يفقد شعره بغزارة مؤخَّراً ولذلك استخدم الشعر المستعار.

وفكّرت أنه من الغريب حقاً أن يعلم الخادم أسرار سيده أكثر بكثير من أعز أصدقائه! وعدت مرة أخرى إلى اللغز الذي حيّرني فقلت: ولكن ألا تعلم حقيقةً لماذا استغنى عنك السيد بوارو كما فعل؟ فكّر يا رجل، فكر جيداً.

حاول جورج أن يحكّ ذهنه، ولكن ذلك كان خارج نطاق قدرته، فقال في النهاية: أستطيع فقط أن أقترح يا سيدي أنه تخلص منّي لأنه أراد أن يوظّف كيرتس لديه.

- كيرتس؟ لماذا أراد أن يعمل كيرتس لديه؟

فكر جورج مرة أخرى ثم قال: حسناً يا سيدي، لا أستطيع حقاً القول. لم يبدُ لي عندما رأيته (وأرجو معذرتك يا سيدي) شخصاً ذكياً. إنه قوي طبعاً، ولكنني لا أعتقد أنه من النوع الذي يفضّله السيد بوارو. لقد كان مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً في وقت من الأوقات على ما أظن.

حدّقت إلى جورج وقلت: كيرتس!

أهذا هو السبب الذي دفع بوارو إلى عدم إخباري بالكثير عن القضية؟ كيرتس؟ الرجل الوحيد الذي لم يُثِر شكوكي؟ نعم، وقد كان بوارو راضياً أن يبقى الأمر كذلك، كان راضياً أن أتفحص جميع ضيوف ستايلز باحثاً عن «س» الغامض، ولكن «س» لم يكُن ضيفاً... كان كيرتس!

عمل كيرتس في بعض الأوقات مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً. لقد قرأت مرة أن نزلاء الملاجئ وبيوت المجانين يبقون هناك في بعض الأحيان، أو يعودون إليها كمساعدين؟ رجل غريب بليد يقتل لأسباب غريبة! وإذا كان الأمر كذلك، إذا كان صحيحاً، فسوف ينزاح حمل ثقيل عن كاهلي. يا إلهي! كيرتس!

* * *

ملحق

ملاحظة بقلم الكابتن آرثر هيستنغز: وصلتني هذه المخطوطة بعد أربعة أشهر من وفاة صديقي هيركيول بوارو، فقد استلمتُ رسالة من إحدى المؤسسات القانونية تطلب منّي زيارة مكتبها، وفي المكتب وبناء على تعليمات عميلها السيد هيركيول بوارو سُلّمتُ طرداً مغلَقاً، وسأعيد نسخ محتوياته هنا.

مخطوطة بقلم هيركيول بوارو

صديقي العزيز، سيكون قد مضى على موتي أربعة أشهر عندما تقرأ هذه الكلمات، ولقد فكرت كثيراً قبل أن أكتب هذه الكلمات الموجودة هنا، ثم قررت أنه من الضروري أن يعرف أحدهم حقيقة الجريمة الثانية في «ستايلز». وقد راودني أيضاً حدس بأنه حتى يحين الوقت الذي ستقرأ فيه هذه الرسالة ستكون قد استنبطتَ نظريات مستحيلة.

قد تؤلمك هذه النظريات، لكن دعني أخبرك أنه كان يجب أن تتوصل إلى الحقيقة بسهولة يا صديقي. لقد تأكدتُ من وصول كافة الأدلة إليك، فإن كنت لم تصل إلى الحقيقة فذلك لأنك -كالعادة-

سليم النية وتثق كثيراً بالآخرين. كان ينبغي أن تعرف مَن قتل نورتون على الأقل، أما باربرا فرانكلين فلا أحسبك ستعرف المسؤول عن موتها، وحينما تعرف ستجد الأمر صدمة بالغة لك.

كما تعلم، في البداية أرسلت في طلبك وأخبرتك أنني بحاجة إليك، وقد كان هذا صحيحاً؛ لقد أخبرتك بأنني أريدك أن تكون أذنيّ وعينيّ، وهذا أيضاً كان صحيحاً، صحيحاً جداً، وإن لم يكُن بالمفهوم الذي فهمتَه. **لقد أردتك أن ترى ما أريدك أن تراه وتسمع ما أريدك أن تسمعه.**

لقد تذمرتَ -يا عزيزي- لأنني لم أكُن عادلاً في عرض هذه القضية، فقد أخفيت عنك معلومات كنتُ أعرفها، أي أنني رفضت أن أخبرك بهوية «س» المجهول، وهذا صحيح. لقد اضطُررت إلى عمل ذلك، ولكن ليس للأسباب التي قدمتُها لك بل لأسباب أخرى ستعلمها الآن.

دعنا نتفحص أمر السيد «س». لقد أطلعتك على ملخَّص القضايا المختلفة وأخبرتك أن الشخص المتهَم أو المشتبَه به قد بدا في كل قضية من هذه القضايا وكأنه قد ارتكب الجريمة المعنيّة فعلاً، وأنه لا يتوفر بديل آخر. ثم انتقلتُ إلى الحقيقة الثانية المهمة، وهي أنه في كل قضية كان «س» إمّا موجوداً أو ذا علاقة وثيقة بالقضية، وقد توصلتَ أنت حينها إلى استنتاج هو صحيح وخاطئ بشكل متناقض، حيث قلت إن «س» هو مَن ارتكب الجرائم كلها.

لكن الظروف أشارت في كل حالة تقريباً إلى أن المتهم فقط كان يمكنه ارتكاب الجريمة. فكيف يمكننا تفسير شخصية «س»

إذا كان هذا صحيحاً؟ سوف نخرج بنتيجة غريبة، وهي أن المسألة ليست سوى نوع من التدخل؛ أي مثل تفاعل بين مادّتين يحصل فقط بوجود مادة ثالثة، ومن الواضح أن هذه المادة لا تشارك في التفاعل وتبقى كما هي من غير أن تتأثر. هذا هو الموقف، وهذا يعني أن الجرائم تحدث حيث يكون «س» موجوداً ولكنه لا يشارك فيها بنفسه.

إنه موقف غريب وغير معتاد، وقد أدركت أنني صادفت -أخيراً وفي نهاية سيرتي المهنية- الجريمة الكاملة والمجرم الذي اخترع أسلوباً فريداً بحيث لا يمكن تجريمه أبداً.

كان مدهشاً، ولكنه ليس بالجديد حيث وُجدت قبله أمثلة مشابهة. وهنا يأتي دور الدليل الأول الذي تركتُه لك، مسرحية «عطيل». في هذه المسرحية وبتصوير رائع نرى «س» الأصلي، إياغو، في هيئة مجرم مثالي. فموت ديزدمونة وكاسيو، وبالتأكيد عطيل نفسه... هذه الجرائم كلها كانت من فعل إياغو الذي خطط لها ونفذها، غير أنه ظل بعيداً عن الشبهات لا يطوله الشك تقريباً. نعم، هذا هو الكمال بعينه في فن الجريمة، فهو لم يقترف الجريمة مباشرة بل هو يحول بين الآخرين والعنف مثيراً الشكوك حول أمور لم يكُن ليفكر بها أحد لو لم يذكرها هو نفسه. ثم نشاهد الأسلوب نفسه في الفصل الثالث الرائع من مسرحية «جون فيرغوسون»، حيث أقنع كلوتي جون الآخَرين بقتل الرجل الذي كان هو يكرهه... إنه مثال رائع على للإيحاء النفسي.

يجب عليك أن تدرك هذا يا هيستنغز: إن كل شخص مجرمٌ

محتمَل، فأحياناً تستيقظ في الإنسان الرغبة للقتل، ولكن ليس إرادة القتل. كم من مرة سمعت الآخرين يقولون: "لقد أثارت غضبي بحيث شعرتُ بأني أودّ قتلها"، أو: "كنت سأقتله لأنه قال كذا وكذا"، أو: "كنت غاضباً فكدت أقتله"؟

هذه العبارات كلها صحيحة بشكل مطلَق. إن ذهن المرء يكون صافياً جداً في مثل تلك الحالات، فهو يودّ قتل فلان وفلان، ولكنه لا يفعل ذلك لأن إرادته لا توافق رغبته. أمّا بالنسبة للأطفال فهذا الكابح لا يعمل بصورة جيدة. عرفت طفلاً كان منزعجاً من قطته فقال لها: "ابقي ساكنة وإلا ضربتك على رأسك وقتلتك"، وقد فعل ذلك فعلاً ليشعر بالدهشة والرعب بعد لحظات عندما اكتشف أن القطة لن تعود إلى الحياة، فذلك الطفل كان يحب قطته كثيراً.

إذن فنحن جميعاً مجرمون محتمَلون، وكان هذا هو فن السيد «س»؛ فهو لا يقترح هذه الرغبة ولكنه يكسر جانب الاستقامة الذي يعارض القتل. كان فناً تم الوصول به إلى حد الكمال عن طريق الممارَسة. عرف «س» الكلمات المناسبة والعبارات المناسبة واستطاع أن يتحكم في نبرات صوته وأن يركّز على نقط الضعف. يمكن عمل ذلك بسهولة، وقد نفّذ ذلك فعلاً دون إثارة شك الضحية، فلم يكُن ذلك تنويماً مغنطيسياً لأن التنويم المغنطيسي ما كان لينجح. بل كان أسلوبه أكثر مكراً وفاعلية، كان جمع قوى الإنسان كافة لتوسيع الثغرة بدلاً من رتقها، كان يستهدف الخير في الإنسان ويقوم بتحويله ليتّحد مع الشر. أنت تعرف ذلك يا هيستنغز، فقد تعرضتَ له.

والآن، ربما بدأت ترى ماذا كانت تعني بعض ملاحظاتي التي أزعجَتك وحيّرتك عندما كنتُ أتحدث عن جريمة ستُرتكب، ولم أعنِ الجريمة ذاتها دائماً. أخبرتك أنني كنت في «ستايلز» لهدف، كنت هناك لأن جريمة سيتمّ ارتكابها. ودُهِشت أنت بسبب تأكدي من هذه النقطة، ولكنني كنت واثقاً لأنني أنا الذي سيرتكب هذه الجريمة!

نعم يا صديقي، إنه لأمر مضحك وغريب ومخيف! أنا الذي أرفض القتل، أنا الذي أقدّس الحياة البشرية، أنهيت سيرتي المهنية بارتكاب جريمة! لعلّي صنعت ذلك لأنني اعتقدت أنني أحسن أخلاقاً من الآخرين. لقد كنت واثقاً من استقامتي بحيث تعرضتُ إلى هذه المعضلة، لأن للقضية جانبَين كما ترى: أحدهما أن عملي في هذه الحياة هو إنقاذ الأبرياء ومنع الجريمة، وهذه هي الطريقة الوحيدة لعمل ذلك. الأمر واضح، فلم يكُن باستطاعة القانون القبض على «س»، لقد كان آمناً، ومهما بلغت براعتي فلم أكُن لأستطيع غلبته إلا بهذه الطريقة.

وعلى الرغم من ذلك كنت متردداً يا صديقي. لقد عرفت ما يجب عليّ عمله ولكنني لم أستطع إجبار نفسي على تنفيذه. كنت مثل هاملت، أحاول دائماً تأجيل ذلك اليوم المشؤوم. ثم حصلت المحاولة التالية، محاولة قتل السيدة لاتريل.

لقد كنتُ فضولياً -يا هيستنغز- لأعرف: هل سينجح حسّك المعروف في تمييز الأمور الواضحة؟ وقد نجح. كان رد فعلك الأول هو الشك في نورتون، وقد كنتَ مصيباً؛ كان نورتون هو الرجل. ولم يكُن لاعتقادك هذا سبب ما عدا اقتراحك الصحيح

(وإن كان فاتراً) بأنه كان شخصية تافهة! وهنا أظنك اقتربتَ جداً من الحقيقة. فقد درستُ تاريخ حياته بعناية فوجدت أنه كان الابن الوحيد لامرأة قوية مسيطرة، ويبدو أنه لم تُتَح له الفرصة للثقة بنفسه أو التأثير بشخصيته على الآخرين، بل كان يعرج دائماً وكان عاجزاً عن المشاركة بالألعاب المدرسية.

وكانت واحدة من أهم الملاحظات التي أخبرتني بها تلك الملاحظة عن ضحك الآخرين منه في المدرسة حين أغمي عليه لأنه رأى أرنباً ميتاً. كانت تلك الحادثة قد أثّرت فيه تأثيراً عميقاً على ما أظن. كان يكره الدم والعنف، وقد كان يعاني نتيجة لذلك، وبالتأكيد فقد قرر (وبغير وعي منه) أن يُصلح الوضع بأن يصبح جريئاً قاسياً.

أظن أنه اكتشف مبكراً قدرته على التأثير في الناس؛ فقد كان مستمعاً جيداً وكانت لديه شخصية متعاطفة. كان الناس يحبونه ولكنهم -في الوقت ذاته- لم يُعيروه الكثير من الاهتمام، وقد ساءه هذا كثيراً. ثم استفاد من هذه الصفة واكتشف كم كان الأمر سهلاً، وذلك باستعمال الكلمات المناسبة وتوفير الحافز الملائم للتأثير في الآخرين. كان الشيء الوحيد المطلوب منه هو فهم الناس والتغلغل في أفكارهم ودوافعهم الخفية وأمنيّاتهم.

أتدري يا هيستنغز؟ إن مثل هذا الاكتشاف يغذي الإحساس بالقوة. ها هو ذا ستيفن نورتون الذي أحبه الآخرون واحتقروه، ها هو ذا يستطيع دفع الناس إلى عمل أمور لا يريدون عملها أو (وانتبه لهذا) يظنون أنهم لا يريدون عملها.

أستطيع تصوّره وهو ينمّي قدرته هذه، وشيئاً فشيئاً يطوّر نزعته السوداء للعنف، وبطريقة غير مباشرة. هي نزعة مَرَضية للعنف، العنف الذي يحتاج إلى قوة بدنية كانت تنقصه وكان يتعرض إلى السخرية بسببها. نعم، وتنمو الهواية عنده إلى أن تصبح شغفاً، تصبح ضرورة... كانت مخدّراً يا هيستنغز، مخدراً يسبّب الإدمان مثلما يفعل الأفيون والكوكايين.

نورتون، ذلك الرجل الرقيق المحب، كان سادياً في الحقيقة! كان مدمناً على الألم والتعذيب العقلي، وقد انتشر هذا الوباء في العالَم في السنين الأخيرة. لقد أُشبعَت فيه شهوتان: السادية والقوة؛ فهو يكاد يتحكم في مصائر الناس! ومثله (كأي أسير للمخدرات) كان يجب أن يتزود بالمخدرات، فعثر على الضحية تلو الأخرى!

أنا متأكد من وجود قضايا أخرى سوى القضايا الخمس التي تتبعتُها، ولكنه لعب الدور نفسه في كل واحدة من هذه القضايا. لقد عرف إثرنغتون لأنه أمضى صيفاً في القرية حيث كان يعيش ريغز، وكان يذهب مع ريغز لتناول الشراب في الحانة المحلية. وفي إحدى رحلاته البحرية تعرّف إلى فريدا كلاي فشجّعها واستغل أفكارها الباطنية القاضية بأن موت خالتها سيكون أمراً جيّداً وسوف يحقق الراحة لخالتها، كما أنه سيوفر نوعاً من الراحة المادية والمتعة لها. وكان صديقاً لعائلة ليتسفيلد، وبعد أن تحدثَت مرغريت إليه تصورت نفسها في دور البطلة التي ستُخلّص أخواتها من سجنهنّ الأبدي، ولا أعتقد -يا هيستنغز- أن أياً من هؤلاء الناس كان سيرتكب جريمة لولا تأثير نورتون.

والآن ننتقل إلى الأحداث التي جرت في ستايلز. كنت قد

بدأت بتعقّب نورتون منذ بعض الوقت، وعندما تعرّف على عائلة فرانكلين شممتُ رائحة الخطر. لا بد أنك تدرك أنه حتى نورتون كان بحاجة إلى نواة يبدأ منها عمله، فأنت تحتاج إلى بذرة لتطوير شيء ما؛ في «عُطَيل» مثلاً اعتقدت دائماً بأن عطيلاً كان يؤمن داخلياً بالاعتقاد القائل (وقد يكون صحيحاً) بأن حب ديزدمونة له كان حباً غير متوازن، وربما كان مجرَّد افتتان فتاة صغيرة بذلك الفارس الشجاع وليس حب امرأة لعطيل الرجل، وربما أدرك بأن كاسيو كان حبها الحقيقي وأنها ستدرك هذه الحقيقة بمرور الوقت.

وقد قدّمَت عائلة فرانكلين أرضية خصبة لنورتون. لا بد أنك قد أدركت الآن -يا هيستنغز- الشيء الذي كان يمكن لأيّ شخص ذي مقدرة سليمة في الحكم على الأشخاص أن يراه بوضوح، وهو أن فرانكلين كان يحبّ جوديث وأن جوديث كانت تحبه، وأن فظاظته وعادته في عدم النظر إليها وعدم لباقته... كان يجب أن يخبرك كل هذا بأن الرجل غارق في حبها حتى أذنيه، ولكن فرانكلين رجل ذو شخصية قوية مستقيمة، كلامه قاسٍ ولكنه رجل ذو مبادئ واضحة، وفي دستوره أن على الرجل أن يتمسك بالزوجة التي اختارها.

وكانت جوديث (وكنت أظن أنك رأيت ذلك) تحبه، لكنها كانت يائسة تعسة. وقد ظنّت أنك اكتشفت هذه الحقيقة عندما وجدتَها في حديقة الأزهار، ولهذا انفجرت غضباً؛ فأصحاب الشخصيات أمثالها لا يحتملون الشفقة والتعاطف لأنهما مثل ملامسة جرح مؤلم. ثم اكتشفَت أنك تظن أنها تحب أليرتون، وقد تركَتك تظن ذلك لتحمي نفسها من عطفك الذي كان آخر شيء

تحتاجه وخوفاً من إعادة فتح الجرح مرة أخرى. كانت تُظهر اهتماماً بأليرتون كنوع من العزاء لنفسها، وكانت تعرف جيداً أيّ نوع من الأشخاص هو ولم تكُن تشعر نحوه بأي عاطفة.

وبالطبع عرف نورتون كيف تسير الأمور ورأى احتمالاً في ثلاثية فرانكلين. يمكنني القول إنه بدأ بفرانكلين أولاً ولكنه لم ينجح؛ فهو (أي فرانكلين) من ذلك النوع من الرجال المحصَّنين ضد إيحاء نورتون الماكر لأنه يملك عقلاً محدَّداً وواضحاً، ويملك معرفة دقيقة بمشاعره ولا يُعير انتباهاً للضغط الخارجي، وبالإضافة إلى ذلك فحبه الكبير في هذه الحياة هو عمله، وانهماكه فيه يجعله أقلّ تعرضاً للأذى.

ولكن نورتون أحرز نجاحاً أكبر مع جوديث، فقد لعب بذكاء في موضوع الحياة التي لا فائدة منها. كانت مسألةَ اعتقاد عند جوديث، وقد تجاهلَت بحدّة حقيقة أن رغباتها السرية توافقت مع هذا الاعتقاد في حين كان نورتون يعلم أنها كذلك. وقد كان في غاية الذكاء، يأخذ لنفسه وجهة النظر المعاكسة ويسخر من الفكرة قائلاً إنها لن تملك الجرأة أبداً لارتكاب مثل هذا العمل الحازم لأن الشباب يقولون دائماً لكنهم لا يفعلون... إنه أسلوب قديم رخيص ولكنه ينجح غالباً يا هيستنغز؛ فهؤلاء الشباب سريعو التأثر وهم مستعدّون لقبول التحدي (رغم أنهم لا يرون الأمر على حقيقته). وبعد إزاحة باربرا عديمة الفائدة كان الطريق سيصبح خالياً لفرانكلين وجوديث، لكن ذلك لم يُذكَر قط أو يُكشَف عنه. كان التأكيد على أن العامل الشخصي لا دور له بتاتاً، فلو أدركَت جوديث أن العامل الشخصي يلعب دوراً لكان ردّها عنيفاً.

لكن نشاطاً واحداً لا يكفي بالنسبة لقاتل مدمن مثل نورتون؛ بل هو يبحث عن فرص المتعة في كل مكان، ووجد فرصته في عائلة لاتريل.

فكّر فيما حدث يا هيستنغز. هل تذكر أول ليلة لعبتم فيها البريدج؟ هل تذكر ملاحظة نورتون التي قالها لك لإحقاً بصوت مرتفع والتي كنتَ تخشى أن يسمعها الكولونيل لاتريل؟ بالطبع كان نورتون يقصد أن يسمعها الكولونيل، وهو لم يفوّت فرصة للتأكيد عليها وكان يذكرها دائماً، وأخيراً تُوِّجَت جهوده بالنجاح. لقد حدث ذلك تحت أنفك يا هيستنغز ولم ترَ كيف نُفِذَّ!

لقد وُضع حجر الأساس؛ تزايد الشعور بالعبء، الخجل من مظهره أمام الرجال الآخرين، ويزداد شعوره بالاستياء من زوجته... أنت تذكر ما حدث بالضبط. يقول نورتون إنه عطش، هل كان يعلم أن السيدة لاتريل في المنزل وأنها ستظهر على مسرح الأحداث؟ ويتصرف الكولونيل كأيّ مضيف كريم، وتلك هي طبيعته، فيعرض عليكم الشراب ويذهب لإحضاره. ولا تزالون أنتم جالسين قرب النافذة، ثم تصل زوجته ويحدث المشهد المحتوم الذي يعلم أنكم سمعتموه، ثم يخرج. وكان بالإمكان تناسي كل ذلك بالتظاهر. كان بإمكان بويد كارنغتون القيام بذلك جيداً، فهو يمتلك درجة من الحكمة واللباقة (وما عدا ذلك فهو من أكثر الناس الذين عرفتهم غروراً وإثارة للضجر). أنت نفسك كان بإمكانك أن تُبلي بلاءً حسناً أيضاً، لكن نورتون سارع إلى الكلام بخبث وحماقة شديدة لا داعي لها، وهو تصرّفٌ زاد الأمر سوءاً. أخذ يثرثر عن البريدج ويتحدث عمداً عن حوادث إطلاق النار.

وكما أراد نورتون تماماً فقد تبعه ذلك الغبي بويد كارنغتون فروى قصة الجندي الأيرلندي الذي أطلق النار على أخيه، وهي قصة كان نورتون قد رواها لبويد كارنغتون وهو يعلم جيداً أن هذا الغبي سيرويها على أنها حصلت معه عندما يجد المناسبة. أنت ترى -إذن- أن الإيحاء الكبير الواضح لن يأتي من نورتون نفسه!

لقد تم الإعداد للأمر جيداً؛ يبدأ بالأثر المتراكم حتى يصل إلى نقطة الحسم. لقد أُهينت مكانة الكولونيل لاتريل كمضيف وأُحرج أمام أصدقائه، وكان يتألم من معرفته بأنهم مقتنعون تماماً بأنه لا يملك الجرأة لعمل شيء إلاّ الخضوع لسيطرة زوجته، ثم سمع الكلمات المناسبة: «بندقية الصيد، حوادث، رجل أطلق النار على أخيه...»، ويظهر فجأة رأس زوجته فتدور في رأسه كلمات: «أنت آمن، سيكون مجرَّد حادث، سأريهم، سأريها، عليها اللعنة! أتمنّى أن تموت، سوف تموت...»!

هو لم يقتلها يا هيستنغز، أنا نفسي أظن أنه عندما أطلق النار أخطأها متعمداً لأنه كان يريد أن يخطئ. وبعد فترة زال السحر الأسود. لقد كانت زوجته، المرأة التي أحبها على الرغم من كل شيء. هذه كانت إحدى جرائم نورتون التي لم تنجح.

آه، ثم كانت محاولته التالية! ألا تدرك يا هيستنغز أنك كنت التالي؟ عُد بذاكرتك إلى الوراء وتذكّر كل شيء. أنت، صديقي الصادق العطوف هيستنغز! لقد كشف نقاط ضعفك كلها، نعم، كما اكتشف أيضاً نقاط استقامتك وضميرك الحي. أليرتون هو ذلك النوع من الرجال الذي تكرهه وتخافه غريزياً؛ فهو من النوع الذي تظن أنه

يجب القضاء عليه، وكل ما سمعتَه عنه وكل ما كنتَ تفكر فيه عنه كان صحيحاً. أخبرك نورتون عنه بقصة ما، وهي قصة صحيحة من حيث الوقائع، مع أن الفتاة المعنيّة كانت -في الحقيقة- مصابة بمرض عصبي ومن عائلة فقيرة. هذه القصة وافقت معتقداتك المحافظة القديمة نوعاً ما: "هذا الرجل شرير يُغوي النساء ثم يحطمهن ويدفعهن إلى الانتحار". ثم يقوم نورتون بإقناع بويد كارنغتون بالتحدث إليك أيضاً، وتُضطر أن تتحدث إلى جوديث، ويكون جواب جوديث الفوري أنها ستفعل بحياتها ما تشاء، وهذا الردّ يجعلك تصدّق الأسوأ.

أرأيت الآن النقاط التي استغلها نورتون؟ حبك لابنتك، شعورك المتحفظ والعميق بالمسؤولية التي يشعر بها كل رجل مثلك نحو أبنائه، اعتزازك بنفسك... وهنا يخطر ببالك أنك يجب أن تفعل شيئاً ما، فالأمر كله يعتمد على شعورك بالضعف، ويرجع ذلك إلى افتقارك إلى رأي زوجتك الحكيم وإلى إخلاصك في تربية أبنائك، فتقول في نفسك: "لن أخذلها"! والنقطة الأهم كانت غرورك، فمن خلال مرافقتك لي تعلمتَ سر المهنة! وأخيراً ذلك الشعور الداخلي الذي يلازم جميع الآباء بشأن بناتهم، الشعور (الذي لا يُعرَف سببه) بالغيرة أو بالكراهية نحو ذلك الرجل الذي سوف يأخذهن منه.

استغل نورتون ذلك كفنان محترف، وقد استجبتَ أنت له. أنت تتقبل الأمور بسهولة، وقد كنتَ تفعل ذلك دائماً؛ صدّقت بسهولة أن أليرتون كان يتحدث إلى جوديث في المنزل الصيفي، ولكنك لم ترَها بل لم تسمعها تتكلم، والأمر الذي لا يصدَّق هو أنك كنت لا تزال تظن -في صباح اليوم التالي- أنها كانت جوديث، وقد فرحتَ جداً لأنها غيرَت رأيها!

ولكن لو كلفت نفسك مشقّة فحص الحقائق لكنتَ أدركتَ على الفور أنه لم يكُن أيّ احتمال وارداً لذهاب جوديث إلى لندن في ذلك اليوم، ولكنك فشلت أيضاً في الوصول إلى الاستنتاج الواضح. كان أحد الأشخاص في إجازة في ذلك اليوم، وقد كان ذلك الشخص غاضباً لأنه لم يستطع الذهاب. ذلك الشخص هو الممرّضة كارفن! فليس أليرتون بالشخص الذي يكتفي بملاحقة امرأة واحدة، وعلاقته مع الممرّضة كارفن كانت تتقدم بشكل أكثر من مجرَّد الغزل الذي كان يمارسه مع جوديث.

كل ذلك كان من تدبير نورتون. لقد رأيتَ أليرتون وجوديث يتعانقان، وبعدها مباشرة دفعك نورتون خلف زاوية المنزل لأنه كان يعلم -بلا شك- أن أليرتون كان سيقابل الممرّضة كارفن في المنزل الصيفي، وبعد قليل من المناقشة تركك تذهب إلى هناك ولكنه ظل في رفقتك، والجملة التي سمعتَ أليرتون يتلفّظ بها كانت مناسبة لغرضه، وقد سحبك نورتون بسرعة قبل أن تسنح لك الفرصة لتكتشف أن المرأة لم تكُن جوديث. وكان ردّ فعلك على هذه الأمور فورياً وتاماً، فقد استجبتَ وقررتَ أن ترتكب جريمة!

لكن -لحسن حظك يا هيستنغز- لديك صديق لا يزال محتفظاً بعقله. لقد قلتُ لك في بداية الأمر إنك إن لم تتوصل إلى الحقيقة فذلك لأنك شديد الثقة في الناس. أنت تصدّق كل ما يقال لك، وصدّقتَ ما قلتُه أنا لك، ومع ذلك فقد كان من السهل عليك أن تكتشف الحقيقة.

لماذا تظنني أرسلتُ جورج بعيداً؟ صنعت ذلك لأستبدله

برجل أقل خبرة، ومن الواضح أنه أقل ذكاءً أيضاً. لماذا لم يعتنِ بي الطبيب؟ أنا الذي كنت حريصاً على صحتي لم أكُن لأسمح باستدعاء طبيب، لماذا؟ هل رأيت الآن لماذا كان وجودك ضرورياً في «ستايلز»؟ كنتُ بحاجة لأحد يتقبّل ما أقوله بلا مناقشة. لقد صدّقتَ روايتي بأنني عدت من مصر وأنا في حال أسوأ مما كنت عليه قبل أن أذهب، ولكن هذا لم يكُن صحيحاً؛ فقد عدتُ وأنا أحسن حالاً، ولو كلّفتَ نفسك العناء لكنتَ اكتشفت ذلك، ولكنك لم تفعل بل صدّقتَني فقط.

لقد استغنيت عن جورج لأنني لم أكُن لأنجح في إقناعه بأنني فقدت القوة في جميع أعضائي فجأة. جورج في منتهى الذكاء فيما يتعلق بما يراه، وهو كان سيدرك أنني كنت أتظاهر. هل تفهم يا هيستنغز؟ طوال الوقت الذي كنت أتظاهر فيه بالعجز (وكنت بذلك أخدع كيرتس) لم أكُن عاجزاً على الإطلاق، بل كنت أستطيع المشي، ولكنني كنت أعرج.

لقد سمعتك تصعد في ذلك المساء وسمعتك تتردد ثم تدخل إلى غرفة أليرتون، وعلى الفور تنبهت. كنت قلقاً جداً بسبب حالتك العقلية والنفسية، ولم أتردد. وكنتُ وحدي حيث كان كيرتس قد نزل لتناول العشاء، فتسللتُ خارج غرفتي عبر الممر وسمعتك في حمّام أليرتون، وبسرعة -يا صديقي- وبأسلوب تكرهه كثيراً نزلتُ على ركبتيّ ونظرتُ من خلال ثقب مفتاح الحمّام (حيث يمكن للمرء أن يرى لحسن الحظ، فقد كان للباب سقّاطة لا مفتاح من الداخل). وأدركتُ جيداً معنى تلاعبك بالحبوب المنومة، وأدركت خطتك.

وبناءً على ذلك تصرفتُ يا صديقي. رجعت إلى غرفتي وأعددتُ خطتي، وعندما صعد كيرتس أرسلتُه لإحضارك، وقد جئتَ وأنت تتثاءب متعذّراً بالصداع وأحدثتَ جلبة كبيرة. وجعلتُك تتناول الدواء؛ فقد وافقتَ -حتى تغادر سريعاً- على شرب كوب من الشكلاتة الحلوة الساخنة، شربتَه لكي تستطيع الذهاب سريعاً. **ولكن لديّ أنا أيضاً بعض الحبوب المنوّمة يا صديقي!**

وهكذا فقد نمتَ حتى الصباح إلى أن عدتَ إلى طبيعتك وعقلك، وكنتَ مرعوباً مما كنتَ قد أوشكت على ارتكابه. كنتَ قد أصبحتَ آمناً في ذلك الوقت، فالمرء لا يرتكب مثل هذه الأمور مرتين، ليس عندما يسترجع المرء عقله. لكن هذا جعلني أقرر يا هيستنغز، لأن ما لا أعرفه عن الآخرين لا ينطبق عليك. أنك لستَ مجرماً، أنت صديقي الصادق الطيب الشريف هيستنغز! أنت في غاية الطيبة والأمانة والبراءة، ولكنك كنت ستُشنَق لارتكابك جريمة، جريمة ارتكبها شخص آخَر لن يُعتبَر مذنباً في نظر القانون.

كان يجب أن أتصرف. كنتُ أعلم أن وقتي قصير وكنتُ سعيداً لذلك؛ فإن أسوأ جزء من الجريمة -يا هيستنغز- هو تأثيرها اللاحق على المجرم. كان الخوف أن أتخيل نفسي، أنا هيركيول بوارو، وقد سخّرتني العناية الإلهية لأقتل المجرمين جميعاً! ولكن الوقت ليس كافياً لذلك (وللحمد لله) لأن نهايتي قريبة.

لقد خشيت أن ينجح نورتون في محاولته مع شخص عزيز جداً على كلينا، أعني ابنتك جوديث. وهنا نأتي إلى الحديث عن مقتل باربرا فرانكلين. ومهما كانت شكوكك بشأن الموضوع -يا هيستنغز-

فلا أظن أنك قد توقعتَ الحقيقة قط. **لقد كنتَ أنت الذي قتل باربرا فرانكلين!** نعم، لقد فعلتَ ذلك! كان للمثلث بعد آخَر، بعدٌ لم آخذه بعين الاعتبار، فقد كانت أساليب نورتون فيه غير مرئية أو مسموعة من قِبَل أيّ منّا، ولكنني لا أشك أنه قد استعملها.

هل حاولت التفكير في سبب رغبة السيدة فرانكلين بالقدوم إلى «ستايلز»؟ عندما تفكر بالأمر ستجد أنه ليس موقعها المفضَّل؛ فهي تحب الراحة والطعام الجيّد وتحب العلاقات الاجتماعية. وليس «ستايلز» مكاناً مرحاً، وهو لا يُدار جيداً، وهو أيضاً في منطقة ريفية مملّة. ولكن كانت السيدة فرانكلين هي التي أصرّت على تمضية الصيف هنا!

نعم، كان هناك بعدٌ ثالث هو بويد كارنغتون. كانت السيدة فرانكلين امرأة قد خابت آمالها، وكان ذلك هو أساس مرضها العصبي. كانت طَموحة اجتماعياً ومادياً، وقد تزوجت فرانكلين لأنها توقعت له مستقبلاً برّاقاً. كان زوجها ذكياً ولكن ليس وفقاً لما كانت تتمنى، فلم يكُن ذكاؤه ليجلب له شهرة ولا سمعة كسمعة أطباء شارع هارلي المرموقين. كان معروفاً من قِبَل مجموعة من الرجال الذين ينتمون إلى مهنته نفسها، وكان ينشر المقالات في المجلات العلمية ولكن العالَم الخارجي لم يسمع به، وبالتأكيد لم يجنِ الأموال الكثيرة.

وها هو ذا بويد كارنغتون وقد عاد من الشرق، وكان قد حصل على لقب بارون وجنى المال، وقد كان يشعر بميل عاطفي نحو الفتاة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعاً التي كان قد أوشك على

طلب يدها ذات مرة. كان ذاهباً إلى «ستايلز» واقترح على عائلة فرانكلين القدوم أيضاً، وهكذا أتت باربرا. وكم كان ذلك مثيراً لغضبها! من الواضح أنها لم تفقد سحرها القديم بالنسبة لهذا الرجل الغني الجذاب، لكنه كان محافظاً ولم يكُن ليشير عليها بالطلاق، وكذلك لن يوافق جون فرانكلين على الطلاق أيضاً، أما إذا مات جون فرانكلين فستصبح هي الليدي بويد كارنغتون وستكون الحياة رائعة... أظن أن نورتون وجد أداة طيّعة في يده.

عندما تفكر بالأمر ستجد أن المسألة كانت في غاية الوضوح يا هيستنغز. تلك المحاولات الأولى المترددة لإظهار مدى محبتها لزوجها (وقد بالغَت في ذلك قليلاً، مثل ترديدها عبارة «أريد إنهاء الأمر» بحجة أنها كانت عبئاً عليه). وبعد ذلك اتبعَت أسلوباً جديداً، وهو خوفها من أن يُجري فرانكلين تجارِبه على نفسه.

كان ينبغي أن يكون هذا واضحاً لكلينا يا هيستنغز، لقد كانت تُعِدّنا لتقبل موت فرانكلين نتيجة تسممه بمادة الفايزوستغمين حيث لن نشكّ في أنّ أحداً قد سمّمه بل سنظن أن الأمر مجرَّد بحث علمي محض: ظنّ أنه يتناول مادة شبه قلوية غير سامة ثم تبين لاحقاً أنها ضارة!

المشكلة كانت أن الأمر كله جرى سريعاً. أنت أخبرتني أنها لم تكُن مسرورة عندما قامت الممرّضة كارفن بقراءة كف بويد كارنغتون. وكانت الممرّضة كارفن امرأة جذّابة تحاول اجتذاب الرجال، حاولت مع الدكتور فرانكلين لكنها لم تنجح، ولهذا كرهت جوديث، وها هي ذي تحاول الآن مع أليرتون، ولكنها تعلم

أنه ليس جاداً في علاقتهما أبداً، ولذا فمن المحتّم أن تضع عينيها على ذلك الرجل الغني الذي لا يزال جذّاباً، السير ويليام الذي كان قد بدأ ينتبه للممرّضة كارفن على أنها فتاة جميلة.

خافت باربرا فرانكلين وقررت العمل بسرعة، فكلما أسرعت لتصبح الأرملة الحزينة الجذّابة التي لا يمكن تعزيتها كان ذلك أفضل؛ ولذلك باشرت العمل بعد ذلك الصباح الذي بدت فيه مهتاجة. أتدري يا صديقي؟ أنا أحترم «لوبياء كالابار»؛ لقد نجحت هذه المرة، فقد أبقت على البريء وتخلصّت من المذنب!

دعتكم السيدة فرانكلين جميعاً للصعود إلى غرفتها وأخذت تُعِدّ القهوة مثيرةً الضجة ومحاوِلةً إظهار الأمر بصورة واضحة. وكما قلتَ لي فقد كان فنجانها بجانبها وفنجان زوجها في الجهة الأخرى من سطح خزانة الكتب الدَّوّارة. ثم رأيتم الشهاب وخرج الجميع وبقيتَ أنت فقط يا صديقي، أنت وكلماتك المتقاطعة وذكرياتك، ولكي تخفي مشاعرك فقد دوّرتَ خزانة الكتب باحثاً عن اقتباس من شكسبير.

وهكذا فعندما عادوا جميعاً كان كوبا القهوة قد تبادلا موقعَيهما، فشربَت السيدة فرانكلين القهوة المخلوطة بلوبياء كالابار التي كان مخطَّطاً أن يشربها الزوج العزيز، أما الدكتور فرانكلين فقد شرب كوب القهوة الخالي من السم الذي كان مخصَّصا للسيدة فرانكلين الذكية!

لكنك لو فكرت قليلاً يا هيستنغز لوجدت أنني لم أملك سوى طريقة واحدة للتصرف رغم أنني أدركت ما حدث. لم أكُن

قادراً على إثبات الحقيقة، وإذا ما شكّ أحدهم في أن وفاة السيدة فرانكلين لم تكُن انتحاراً فسوف يُثار الشك بالتأكيد في فرانكلين أو جوديث، وهما شخصان كانا بريئَين بالتأكيد؛ ولذلك فقد فعلتُ ما أظن أن من حقي فعله، فاستغللتُ ملاحظات السيدة فرانكلين غير المقنعة بشأن إنهاء حياتها.

كنت أستطيع القيام بذلك، وربما كنت الوحيد الذي كان باستطاعته عمل ذلك؛ فلشهادتي وزنها كما تعلم، وأنا خبير في الجرائم، فإذا ما اقتنعت أنا بأن الأمر كان انتحاراً فسوف يُقبَل على أنه انتحار. وقد لاحظت أن هذا حيّرك وأنك لم تكُن مسروراً، ولكنك لم تشكّ في الخطر الحقيقي لحسن الحظ.

ولكن هل ستفكر بالأمر بعد وفاتي؟ هل ستفكر وتردّد بين الحين والآخَر قائلاً: "افرض أن جوديث..."؟ قد تفعل، ولذلك كتبت لك هذا؛ يجب أن تعلم الحقيقة.

شخص واحد لم يعجبه الحكم بأن الأمر كان انتحاراً، وهذا الشخص هو نورتون. لقد حُرم من رطل اللحم الذي توقعه! حُرم من متعته وأخفقت الجريمة التي أعدها، لكنه لم يلبث أن رأى وسيلة لتعويض الأمر، وسرعان ما بدأ بإلقاء التلميحات، فتظاهر -في البداية- بأنه رأى شيئاً بمنظاره، كان يريد أن يوصل الانطباع بأنه رأى أليرتون وجوديث في وضع مشبوه. لكنه لم يَقُلْ شيئاً محدَّداً، فقد كان بإمكانه استغلال هذه الحادثة بطريقة أخرى.

فلنفترض -على سبيل المثال- أنه قال إنه رأى فرانكلين وجوديث؟ إن هذا سيثير جانباً جديداً في قضية الانتحار. وهكذا

قررتُ أنه يجب عمل ما يلزم بسرعة، فرتّبت أن تحضره إلى غرفتي في تلك الليلة.

سوف أخبرك بما جرى بالضبط: كان نورتون سعيداً -بلا شك- وهو يخبرني بقصته الملفّقة، ولكنني لم أنتظر بل أخبرته بوضوح ودقة بكل ما أعرفه عنه. ولم ينكر ذلك؛ نعم يا صديقي، لقد جلس في مقعده وابتسم ابتسامة راضية! أجل، لا توجد كلمة تستطيع التعبير عن ذلك إلا أنه ابتسم برضا، ثم سألني عمّا أنوي أن أفعله بشأن فكرتي المسلّية هذه، فقلت له إنني أنوي إعدامه، فقال: حقاً؟ بالخنجر أم بالسم؟

كنّا قد أوشكنا على تناول كوب من الشكلاتة معاً، فقد كان محباً للحلوى. قلت له: أسهل طريقة ستكون بالسم.

وناولته كوباً كنت قد صببته فقال: في هذه الحال أتمانع إن شربت من كوبك بدلاً من أن أشرب من كوبي؟

فقلت: لا، أبداً.

في الحقيقة لم يكُن ذلك مهماً، فكما قلت: أنا أيضاً أتناول الحبوب المنومة. لكنني ومنذ أن بدأت بتناولها كل ليلة لفترة طويلة اكتسبتُ نوعاً من المقاومة، والجرعة التي تنوّم نورتون تؤثر فيّ تأثيراً بسيطاً. كان الدواء في شراب الشكلاتة وقد تناول كلانا القدر نفسه منه، لكن جرعته أثّرت فيه فوراً في حين لم أتأثر أنا إلا قليلاً، ولا سيما بعدما عادلتها بجرعة من الإستركنين.

وهكذا انتهى هذا الفصل. وعندما نام نورتون أجلسته بسهولة

على كرسيّي المتحرك الذي يحوي العديد من التقنيات، ومن ثَمّ أعدت الكرسيّ إلى مكانه المعتاد عند النافذة خلف الستائر. وعندما نام الجميع بعدما وضعني كيرتس في الفراش قدت نورتون إلى غرفته، ولم يبقَ أمامي سوى أن أضع نفسي أمام أعين وآذان صديقي الطيب هيستنغز.

ربما لم تكُن قد أدركت ذلك، ولكنني أضع شعراً مستعاراً... واعلَمْ أيضاً أنني كنت أستعمل شارباً صناعياً! حتى جورج لا يعلم ذلك، وقد تظاهرتُ عندما قدم كيرتس بأنني أحرقته، وعلى الفور قام مُزيّني بإعداد بديل مماثل.

حسناً، أخيراً ارتديت رداء نورتون وشعّثت شعري الأبيض عند المقدمة ومشيت عبر الممرّ وطرقت بابك، وفتحتَ أنت الباب ونظرتَ بعينيك الناعستين عبر الممر، فماذا رأيت؟ رأيتَ نورتون يخرج من الحمام وهو يعرج عبر الممر إلى غرفته، ثم سمعتَه وهو يغلق الباب من الداخل بالمفتاح.

بعد ذلك نزعت الرداء عني ووضعته على نورتون ومدّدتُه على السرير، ثم أطلقت النار على رأسه من مسدس صغير كنت قد اشتريته واحتفظت به (ولم أستعمله إلا في مناسبتين خرج فيهما نورتون من غرفته، فوضعته في درج طاولته لتراه الخادمة وتشهد بأنه ملك له). بعد ذلك غادرت الغرفة بعد أن وضعت المفتاح في جيب نورتون وأوصدت الباب من الخارج بمفتاح شبيه كنت قد حصلت عليه منذ زمن، وأرجعت الكرسي المتحرك إلى غرفتي. ومنذ ذلك الوقت وأنا أكتب هذا التوضيح.

أنا تعِبٌ جداً والجهد الذي عانيتُه قد أثّر فيّ بشكل كبير، ولا أظن أن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن أموت، لكني أريد أن ألفت انتباهك إلى نقطة أو نقطتين: إن جرائم نورتون كانت هي الجرائم الكاملة، أما جريمتي فلم تكُن كذلك ولم أنوِ أن تكون كذلك. كانت أنسب وأسهل طريقة للتخلّص منه هي قتله أمام الجميع، كأن أقتله بالخطأ بمسدسي الصغير مثلاً، وكنت سأُظهر الشعور بالأسى والندم على هذا الحادث الذي سيبدو كحادث مأساوي. كانوا سيقولون إن المسكين لم يكُن يعلم أن المسدس كان محشواً، يا له من فتى مسكين!

ولكنني لم أرغب في هذه الطريقة، وسأخبرك لماذا فعلت ذلك: كان هذا -يا هيستنغز- لأنني أردت المقامرة. نعم، أردت المقامرة، وها أنذا أرتكب كل الأمور التي كنتَ تلومني دائماً لأنني لم أكُن أفعلها. وأنا عادل معك، أحاول تحديك وألعب اللعبة وكل الفرص متاحة أمامك لاكتشاف الحقيقة. إن كنت لا تصدقني فدعني أسرد لك كافة الأدلة.

المفاتيح مثلاً: أنت تعلم (لأنني أنا مَن أخبرك بذلك) أن نورتون وصل بعدي، كما أنك تعلم (لأنني أخبرتك) أنني غيّرت غرفتي بعد وصولي إلى «ستايلز» بقليل، وأنت تعرف (لأنني أخبرتك أيضاً) أن مفتاح غرفتي قد اختفى بعدما وصلت إلى «ستايلز» فصنعتُ مفتاحاً جديداً.

ولهذا فعندما تسأل نفسك: مَن قتل نورتون أو مَن أطلق عليه النار ثم استطاع مغادرة الغرفة التي كان بابها موصداً من الداخل

بصورة واضحة قاطعة، في الوقت الذي كان فيه المفتاح في جيب نورتون؟ عندما تسأل نفسك هذا السؤال فلن تجد سوى جواب واحد: إنه هيركيول بوارو. بوارو هو الوحيد الذي امتلك مفتاحاً بديلاً لإحدى الغرف منذ وصل إلى «ستايلز»، وهو الذي رأيته أنت في الممر!

بل إنني أنا نفسي سألتك إن كنتَ متأكداً من أن الرجل الذي رأيتَه في الممر هو نورتون. وقد أدهشك سؤالي وسألتَني إن كنتُ أقصد أن الرجل الذي رأيتَه لم يكُن نورتون، فأجبتك بأنني لم أقُل إنه لم يكُن نورتون، ولا سيما وأنني بذلتُ الكثير من الجهد لإثبات أنه كان نورتون بالتأكيد. ثم أثرتُ موضوع الطول وقلتُ لك إن جميع الرجال هنا أطول من نورتون، ولكن كان بينهم رجل أقصر من نورتون وهو هيركيول بوارو، وأنت تعلم أن المرء يستطيع أن يزيد من طوله بسهولة بواسطة الكعب العالي وروافع الأحذية.

لقد اعتقدتَ أنني عاجز مريض، ولكن لماذا؟ فقط لأنني أخبرتك بذلك. لقد أبعدتُ جورج، وكان دليلي الأخير إليك هو أن تذهب إلى جورج وتتحدث إليه.

الأدلة التي تركتها لك (عطيل وكلوتي جون) توجّه نظرك إلى أن «س» كان نورتون، فمَن إذن كان يمكنه قتل نورتون؟ فقط هيركيول بوارو! وحينما تبدأ بالتفكير بهذه الطريقة فسوف تفهم الأمور الباقية كلها، الأمور التي قلتُها وفعلتها؛ صمتي الذي لا يمكن تفسيره، وشهادات الأطباء من مصر وطبيبي الخاص في لندن بأنني لم أكُن عاجزاً عن المشي، وشهادة جورج بأنني كنت أضع

شعراً مستعاراً، والحقيقة التي لم أكُن قادراً على إخفائها والتي كان ينبغي أن تلاحظها، وهي أنني أعرج أكثر ممّا يعرج نورتون.

ثم نأتي أخيراً إلى طلقة المسدس... نقطة ضعفي الخاصة. كان ينبغي أن أطلق النار على صدغه، هذا أمر أعرفه تماماً. لكني لم أستطع السماح لنفسي بهذا العمل الذي سيترك أثراً يفتقر إلى التجانس والتوازن. فما الذي صنعته؟ أطلقت الرصاصة في منتصف الجبهة تماماً؛ نقطة ذات تناظر كامل. لقد غلبني عشقي الدائم للتجانس والكمال!

آه يا هيستنغز! كان يجب أن يخبرك هذا بالحقيقة. مع ذلك فربما كنت قد شككت بالحقيقة وعرفت الأمور كلها قبل أن تقرأ كلماتي هذه. أهذا ممكن؟ لا أظن، فأنت ذو طبيعة رقيقة وتبالغ في ثقتك بالآخرين.

بمَ يجب أن أخبرك أكثر من هذا؟ أظنك ستجد أن فرانكلين وجوديث قد عرفا الحقيقة، على الرغم من أنهما ما كانا ليخبراك بها. سيكون هذان الاثنان سعيدَين معاً، وسيكونان فقيرَين، وستلدغهما الحشرات الاستوائية وتصيبهما الحمّى، لكنّ لكل منّا آراءه عن الحياة المثالية، أليس كذلك؟ وأنت يا صديقي المسكين الوحيد هيستنغز! إن قلبي ينزف من أجلك، فهل تأخذ بنصيحة صديقك العجوز بوارو للمرة الأخيرة؟

بعد أن تقرأ هذه الكلمات اركب القطار (أو السيارة أو الحافلة) واذهب للبحث عن إليزابيث كول التي هي أيضاً إليزابيث ليتسفيلد، ودعها تقرأ هذا الشرح أو خبّرها به. أخبرها أنك أيضاً كنتَ على

وشك أن ترتكب نفس العمل الذي ارتكبَته أختها مارغريت، ولكن مارغريت ليتسفيلد لم يكُن لديها بوارو ليحرسها. أزِل عنها ذلك الكابوس وأخبرها بأن والدها لم يُقتَل بيد ابنته، بل بيد صديق العائلة الطيّب العطوف، إياغو الصادق، ستيفن نورتون!

من غير الصحيح -يا صديقي- أن تنأى امرأة مثلها عن الحياة وهي شابة جذّابة فقط لأنها تظن أنها ملوَّثة، نعم، هذا لا يصحّ. أخبرها أنت بنفسك يا صديقي، أنت الذي ما زال النساء يجدنه جذّاباً.

حسناً، ليس لدي المزيد لأقوله. لا أعلم -يا هيستنغز- إن كان يمكن تبرير ما فعلتُه أو لا يمكن؛ فأنا أؤمن بأن أيّ إنسان لا يملك الحق في أن يطبّق القانون بنفسه، ولكن ومن ناحية أخرى فأنا القانون. حينما كنت شاباً في الشرطة البلجيكية قتلت مجرماً يائساً جلس على أحد السطوح وراح يطلق النار على الناس في الأسفل، واليوم أنقذت حياة كثير من الأبرياء حينما قتلت نورتون. ولكني لا أدري إن كان ما فعلتُه صحيحاً أم غير صحيح رغم هذا كله، وقد يكون خيراً لي أن لا أعرف. لقد كنتُ متأكداً من كل شيء تأكّداً تاماً على الدوام، لكنني أقول الآن بتواضع الطفل الصغير إنني لا أعلم!

وداعاً يا عزيزي. لقد أبعدتُ زجاجة كبسولات الإميلنتريت عن جانب سريري؛ فأنا أفضّل أن أترك نفسي تحت رحمة الخالق، وأرجو أن يأتي عقابه أو أن تأتي رحمته سريعاً.

لن نصطاد معاً مرة أخرى يا صديقي. لقد كانت رحلة صيدنا

الأولى هنا وهنا كانت الأخيرة. لقد كانت أياماً طيبة، نعم، كانت أياماً طيبة.

(انتهت مخطوطة هيركيول بوارو).

* * *

ملاحظة أخيرة بقلم الكابتن آرثر هيستنغز: لقد انتهيت من القراءة، وأكاد لا أستطيع تصديق الأمر حتى الآن! لكنه على حق؛ كان عليّ أن أعرف، كان عليّ أن أعرف عندما رأيت ثقب الرصاصة في منتصف الجبين تماماً!

* * *

السِّتَارَة

عاد الكابتن هيستنغز إلى قصر «ستايلز» بعد كل هذه السنين ليجد صديقه الحميم بوارو عجوزاً مُقعَداً يتحرك على كرسي ذي عجلات.

بالنسبة للكابتن هيستنغز بدا كلُّ الضيوف في «ستايلز» لطفاء مسالمين، لكن بوارو يقول إن بينهم قاتلاً!

هيسنغز يظن أن بوارو قد فقد قدراته وبات يتخيل الأمور، لكنه يكتشف أن صديقه كان على صواب. لقد رأى هيستنغز البرهان: موت بوارو!

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

Agatha Christie



Curtain:
Poirot's Last Case

هيركيول بوارو





٧٦

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العال

ISBN 2-1957-2677-7

978219572677

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً